سلسلة مقاصد السور

نظم اللآلئ والدرر في معرفة مقاصد السور

من الصافات إلى الحجرات

عدنان عبد القادر

بسم الله الرحمن الرحيم

نظم الأسرار والدرر في معرفة مقاصد السور

من الصافات إلى الحجرات

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

حقوق الطبع محفوظة ولا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب او ترجمتة إلى أي لغه أخرى دون الحصول على إذن مسبق من الناشر

دار حامل المسك للنشر والتوزيع

الكويت – الشامية قطعة ٨ – شارع ٨٨ منزل ٥

هاتف: ٢٤٩٢٦٣٢٠ – النقال: ٦٦٨٩٠٠٧٨ – فاكس: ٢٤٩٢٦٣٢٢

ص.ب ١٢٣٢٦ الشامية – الرمز البريدي ٧١٦٥٣

Website: www.hamel-almisk.com

E-mail.: info@ hamel-almisk.com

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾.[1]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾.[2]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾.[3]

أما بعد:

فإن أحسن الكلام كلام الله سبحانه وتعالى وخير الهدي هدي محمدٍ ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، وكل ضلالةٍ في النار.

١- آل عمران: (١٠٢).

٢- النساء: (١).

٣- الأحزاب: (٧٠، ٧١).

قرأت كتاباً باسم «محمد ﷺ» لأديبة غربية تسمى بـ «كارين أرمسترونج»، ذكرت في كتابها عظمة النبي ﷺ وعظمة الإسلام الذي جاء به. ولكنها ذكرت أن صورة القرآن والنبي ﷺ مشوهة عند الغرب. أما فيما يتعلق بالقرآن فقد بينت بعض أسباب إعراض الغرب عنه وعن قراءته، منها ما بثه المستشرقون «أن السورة الواحدة من القرآن لا تتكلم عن مقصد واحد، ولا توجد محاور تحقق هذا المقصد، وإنما تتكلم السورة كما لو تكلم شخص من الناس بكلام مشتت، تارة عن موضوع وفجأة ينتقل إلى موضوع ثان بلا مقدمة ولا تمهيد، ثم إلى موضوع ثالث ثم رابع، وهكذا إلى أن تنتهي السورة، ولا يوجد رابط بين تلك المواضيع. فقالوا: كيف يكون هذا الكتاب نزل من عند الله تعالى بهذه الصيغة بينما في التوراة والإنجيل تجد كل سورة تتكلم عن قصة واحدة، تغطيها السورة من عدة جوانب».

وهذا الأمر كما استغله المستشرقون لتشويه صورة القرآن، كذلك ظنه كثير من المسلمين عند قراءتهم لكتاب الله تعالى.

بينما الصحيح أن كل سورة لها مقصد واحد، والذي يتحقق بعدة محاور تتناوله السورة.

هذه الشبهة عادت بي إلى الوراء إلى أكثر من ثلاثين عاماً عندما كنت أحرص على حضور دروس التفسير لشيخي الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق حفظه الله ورعاه. لما شرع الشيخ في تفسير سورة الإسراء وفسر قول الله تعالى (لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً)، ثم استمر في شرح ما بعدها من الآيات إلى أن وصل إلى قول الله تعالى (لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً) بين حينئذ التناسب بين هاتين الآيتين وأنهما فقرة واحدة ابتدأت بتلك وانتهت بهذه للتعانق بين آيات السورة الواحدة.

فانبهرت لمثل هذه الإشارة، وعجبت لعظمة القرآن. ومنذ ذلك الوقت، وأنا في أشد الشوق لمعرفة مثل هذا العلم وهذا الجمال القرآني.

ولما سنحت لي الفرصة في جمع المناسبات بين آيات السورة الواحدة منذ ما يقارب عشرين

سنة أحببت أن أسطرها في كتاب عسى الله تعالى أن ينفعني به وينفع به المسلمين.

لذا تتميز كل سورة:

أولاً: بالوحدة الموضوعية لها.

ثانياً: ترابط آياتها ببعضها.

وقد تناول علماؤنا ذلك على وجه الإجمال والتفصيل.

أولاً: الوحدة الموضوعية لكل سورة

كل سورة في القرآن الكريم تتناول مقصداً واحداً، وتتلاحم آياتها لتغطية محاور هذا المقصد من جميع جوانبه.

وممن أشار إلى هذا شيخ الإسلام ابن تيمية وأحمد بن الزبير الغرناطي من القرن السابع، والبقاعي من القرن التاسع وسيد قطب من القرن الرابع عشر وغيرهم.

أما شيخ الإسلام ابن تيمية فتكلم عن ذلك في تفاريق رسائله، من ذلك ما ورد عنه قوله: اشتملت سورة البقرة على تقرير أصول العلم وقواعد الدين.[١]

وقال: فتدبر تناسب القرآن وارتباط بعضه ببعض.[٢] وقال: سورة «ن» هي سورة الخُلُق الذي هو جماع الدين الذي بعث الله به محمداً ﷺ، قال الله تعالى فيها ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.[٣] وقال: وختمها بالأمر بالصبر الذي هو جماع الخلق العظيم في قوله ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾.[٤]

١- مجموع الفتاوى (١٤/٤١).

٢- المجموع (١٤/٤٦).

٣- سورة القلم: (٤) انظر المجموع (١٦/٦١).

٤- سورة القلم: (٤٨) انظر المجموع (١٦/٧٠).

قال د.مصطفى مسلم: «يجد الباحث لكل سورة شخصيتها المستقلة وأهدافها الأساسية».[1]

أما أحمد بن الزبير الغرناطي فقد ألف كتاباً سماه «البرهان في ترتيب سور القرآن» في مجلد واحد تناول فيه العلاقة بين السور. وبين فيه علاقة كل سورة بالتي قبلها وبالتي تليها. وتناول في أثناء ذلك - أحياناً - مقاصد السورة. وقال فيه: «إني تأملت فيها بفضل الله وجوه ارتباطاته وتلاحم سوره وآياته إلى ما يلتحم مع هذا القبيل من عجائب شواهد التنزيل».[2]

أما برهان الدين البقاعي فقد ألف تفسيراً سماه «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور»، طبع في ثمانية مجلدات، نقل فيه كلام الغرناطي والحرالي، ثم زاد عليهما أضعافه في تناسب الآيات فيما بينها، وتناسب السور، وبين فيه مقاصد السور بما أدى إليه اجتهاده.

أما سيد قطب فقد اهتم بعرض أهداف وأساسيات كل سورة قبل البدء في تفسيرها في كتابه (في ظلال القرآن).

أما سيد ولد آدم ﷺ فمن الواضح أنه كان يجد حلاوة ذلك ويتذوقه في صلاته لا سيما أثناء تهجده. قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح بالبقرة فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً.[3]

عندما يقرأ المسلم هذا الحديث يداخله التساؤل، ما الذي جعل النبي ﷺ يسترسل في كل سورة قرأها ولا يركع حتى ينتهي منها؟ كما ورد عن النبي ﷺ أنه كان غالباً ما يقرأ

١- مباحث في التفسير الموضوعي (٢٩).

٢- البرهان في ترتيب سور القرآن (٧٦).

٣- رواه مسلم (١٨١٤).

في كل ركعة بسورة منها. بل حث ﷺ على ذلك فقال: «لكل سورة ركعة». [1]

لمَ لَمْ يركع النبي ﷺ في منتصفها أو بعد الربع الأول من الحزب كما يفعله كثير من الأئمة لا سيما في السور الطويلة؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: وفي ذلك من المصلحة العظيمة بقراءة الكلام المتصل بعضه ببعض، والافتتاح بما فتح الله به السورة، والاختتام بما ختم به، وتكميل المقصود من كل سورة. [2]

ثانياً: ترابط الآيات ببعضها

ترتبط كل آية في السورة بالآيات التي قبلها والتي بعدها. أي توجد علاقة ومناسبة بينهما. ويسمى هذا العلم بعلم المناسبة، وهو علم شريف، من تدبره ونظر فيه انفتح له باب عظيم في معرفة لطائف القرآن وأسراره. لا سيما إذا علم المسلم أن ترتيب الآيات توقيفي من الله تعالى وأن الله حكيم خبير، يوقن حينئذ أنه ما قدمت آية ما على أختها إلا لحكمة، وما جعل ما بعدها من الآيات في الترتيب إلا لحكمة ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾.

وقد أشار إلى هذا العلم مجموعة من العلماء منهم شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن العربي المالكي والفخر الرازي والزركشي والبقاعي والسيوطي وغيرهم.

قال القاضي أبو بكر بن العربي في «سراج المريدين»: ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم، لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه في سورة البقرة، ثم فتح الله عز وجل لنا فيه. [3]

١- رواه الطحاوي (١/٢٠٤) وصححه الألباني في صفة الصلاة (١/٣٩٦).

٢- المجموع (١٣/٤١٤).

٣- البرهان للزركشي (١/٣٦).

وقال الشيخ أبو الحسن الشهراباني: أول من أظهر ببغداد علم المناسبة ولم نكن سمعناه من غيره هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب.[١]

قال الرافعي: كان نابغة عصرنا الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله كثيراً ما يعني في تفسيره بحقائق غريبة من تناسب الآيات وتعلق نظم القرآن بعضه ببعض.[٢]

وقال الرازي في سورة البقرة: من تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته.[٣]

قال الزركشي: واعلم أن المناسبة علم شريف تحرز به العقول، ويعرف به قدر القائل فيما يقول. وقد قل اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته، وممن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي وقال في تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط.

وقال بعض الأئمة: من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض، لئلا يكون منقطعاً. وهذا النوع يهمله بعض المفسرين، أو كثير منهم، وفوائده غزيرة.[٤]

قال الشيخ محمد دراز في حديثه عن قراءة السورة الواحدة من القرآن: تنقل بفكرتك معها مرحلة مرحلة، ثم ارجع البصر كرتين: كيف بدئت؟ وكيف ختمت؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ووطّأت أولاها لأخراها؟ وأنا لك زعيم بأنك لن تجد البتة في نظام معانيها أو مبانيها ما تعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت في نجم واحد أم في نجوم شتى. ولسوف تحسب

١- البرهان للزركشي (١/٣٦).

٢- إعجاز القرآن (٢٤٤).

٣- الإتقان (٢/١٣٨).

٤- البرهان (١/٣٥-٣٦).

أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة، حتى يحدثك التاريخ أنها كلها أو جلها قد نزلت نجوما.. فلا تزال تتنقل بين أجزائها بين حجرات وأفنية في بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة، لا تحس بشيء من تناكر الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحام. ... ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين، وتؤدي بمجموعها غرضاً خاصاً. (١)

وقال ملخصاً قول الشاطبي في الموافقات: فقديماً قال الأئمة: إن السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة. وإنه لا غنى لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر في جميعها، كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية. (٢) قال الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿ لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ ظَهِيرًا ﴾ (٤).

لذا قال البقاعي: علم المناسبات في غاية النفاسة، ونسبته من علم التفسير نسبة علم البيان من النحو. (٥) وقال ولي الله الملوي عن الآيات في السورة الواحدة: إنها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً. (٦)

١- النبأ العظيم (١٥٤-١٥٥).

٢- انظر الموافقات للشاطبي (٣/٤١٢ - ٤٢٠)، النبأ العظيم (١٥٩)

٣- سورة هود (١) .

٤- سورة الإسراء (٨٨) .

٥- نظم الدرر (١/٥).

٦- نظم الدرر (١/٦).

أهمية معرفة مناسبة الآيات

من تأمل ربط كل جملة بما تلته وما تلاها وخفي عليه وجه ذلك، ورأى أن الجمل متباعدة الأغراض، متنائية المقاصد، فظن أنها متنافرة، حصل له من القبض والكرب أضعاف ما كان حصل له بسماع القرآن من الهز والبسط، وربما شككه ذلك بكثير، وزلزل إيمانه وزحزح إيقانه، وربما وقف مكيس من أذكياء المخالفين عن الدخول في هذا الدين بعد ما وضحت لديه دلائله، وبرزت له من حجالها دقائقه وجلائله، لحكمة أرادها منزله، وأحكمها مجمله ومفصله.[١]

وقال ابن عطية: بها يتبين المعنى بعد المعنى.[٢]

وقال الرازي: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط.[٣]

لذا قال أحدهم: إن عجائب القرآن أطرقت نومي، ما أخرج من أعجوبة إلا وقعت في أخرى. وقال ابن أبي الحواري: إني لأقرأ القرآن وأنظر في آيه فيحير عقلي بها.

شروط طلب المناسبات

كما أن معرفة تناسب الآيات علم مهم فكذا شروط طلب المناسبات ذو أهمية كبرى لئلا يفرغ الآيات من مقاصدها بل قد يأتي بما يناقض مقاصد الشرع. وهذه الشروط تقارب شروط التفسير الإشاري، وسيأتي بإذن الله تعالى ذكرها.

١- نظم الدرر (١/٨).

٢- الوجيز (٢٨).

٣- البرهان للزركشي (١/٣٦).

النبي ﷺ وتناسب الآيات

للنبي ﷺ اليد الطولى في بيان تناسب الآيات ببعضها، إذ يذكر النبي ﷺ مناسبة الآية بالآية اللاحقة لها والسابقة لها بقول مختصر.

من ذلك ربط النبي ﷺ شهادة الزور الواردة في آية الوصية ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ﴾ بآية الصيام الواردة بعدها ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ وعمل الزور الوارد بعد آيات الصيام ﴿ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾. قال النبي ﷺ مبيناً هذا التناسب: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه». [١]

ومن يتتبع تفسير ابن كثير وسياقه للأحاديث المناسبة للآيات يرى أمراً عجاباً في فقه النبي ﷺ للقرآن وعلو كعبه في دقة فهمه لكتاب الله تعالى.

لذا تتوق نفس المسلم لمعرفة مقصد كل سورة ليسهل عليه ربط الآيات ببعضها لخدمة موضوعها وغرضها الرئيسي ومعالجته من جميع جوانبه، فتتجلى له عظمة القرآن، ويتذوق حلاوة زائدة، ويستشف دقائقه الخفية، فيخر ساجداً لتلك العظمة، ويحمد الله تعالى أن أكرم هذه الأمة وخصها بهذا الكتاب العظيم الذي عجز ألباء العرب ونقادها وبلغاؤها وأسيادها أن يأتوا بسورة من مثله، فخروا سجداً لسورة واحدة عند الكعبة-سورة النجم. ولم يتمالك سيدهم وبليغهم الوليد بن المغيرة حتى قال فيه: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته!. [٢]

١- رواه البخاري (١٩٠٣).

٢- رواه الحاكم عن ابن عباس حاكياً قول الوليد بن المغيرة، وصححه (٢/٥٠٦-٥٠٧).

قسم كبير من هذه المقدمة نقل من رسالة (نثر الدرر) للمؤلف نفسه.

منذ عشرين سنة شرع العبد الفقير إلى مولاه، الراجي عفوه في تناول كل سورة ببيان مقاصدها ومحاورها إلى أن انتهيت إلى سورة القمر في رمضان في عام ألف وأربعمائة وثلاثين من الهجرة النبوية، في الدروس الرمضانية بعد الفجر. فأحببت أن أدونها لعل الله تعالى أن ينفع بها كاتبها ويثيبه ووالديه ومن قرأها.

ولكني قسمتها إلى أقسام، تناولت في هذا المؤلف قسماً واحداً يبدأ بسورة الصافات وينتهي بالحجرات، فعسى الله أن يعينني على إتمام باقي السور تأليفاً وتدريساً، إنه هو الولي لذلك والقادر عليه.

ولكن قبل البدء بهذا القسم ينبغي التنبيه إلى بعض الأمور التي قد تتبادر إلى ذهن القارئ خلال قراءته، والتي هي من جماليات الأسلوب القرآني، وهي التخلص والتكرار، والتفسير الإشاري.

التخلص

«التخلص هو أن ينتقل مما ابتدئ به الكلام إلى المقصود على وجه سهل، يختلسه اختلاساً، دقيق المعنى، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع عليه الثاني لشدة الالتئام بينهما». [1]

فمما يلحظ في أغلب محاور السور الانتقال من محور إلى آخر بالتخلص الذي يبهر العقول. لذا تجد المْحَورين يتداخلان في بعضهما، والآيات الرابطة بينهما تحقق المقصد من المحور الأول، وكذا تكون مقدمة للمحور الذي يليه.

١- الإتقان للسيوطي (٢/١٤٠) وانظر البرهان للزركشي (١/٤٣).

التكرار

إذا تكرر الشيء رسخ في الأذهان رسوخاً تنتهي بقبوله حقيقة ناصعة.[1] فالمكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية (ويسمى بالعقل اللاواعي)، والتي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان، فإذا انقضى شطر من الزمن نسي الواحد منا صاحب التكرار وانتهى بتصديق المكرر.[2]

إن تكرار القواعد وسيلة لتثبيت المعنى في نفوس قارئيه وإقراره في أفئدتهم حتى يصبح عقيدة من عقائدهم.[3] لذا تجد القرآن يكررها بصروف من الألفاظ والأساليب لتستقر في العقول كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ ﴾[4] وقال سبحانه: ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾[5] وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ ﴾.[6]

سبب تكرار ذكر التوحيد والتحذير من الشرك وتأكيد البعث

ولما كان أصل الدين قائماً على توحيد الله تعالى وجعل اليوم الآخر موعداً لمحاسبة العباد على مدى التزامهم بهذا التوحيد تكرر ذكر هذين الأصلين في جميع السور بما يحقق مقصد كل سورة على حدة.

١- بلاغة القرآن لأحمد بدوي (١٤٣) نقلاً عن روح الاجتماع جوستاف لديدن (١٣٩).

٢- انظر بلاغة القرآن (١٤٣) نقلاً عن روح الاجتماع.

٣- انظر أحمد بدوي (١٤٣).

٤- الإسراء (٤١).

٥- طه (١١٣).

٦- الفرقان (٥٠).

على سبيل المثال: مقصد سورة الصافات العزة لله تعالى ولأوليائه. فبين فيها سبب تبوئهم هذه المكانة وهو تحقيقهم للتوحيد والإيمان بالبعث والعمل لذلك. أما سورة ص فموضوعها الصبر، فذكر فيها أنواع الصبر، وضرب فيها لكل نوع مثل من الصابرين على تحقيق التوحيد ونشره والدعوة إليه وإلى الإيمان بالوحي.

ومقصد سورة الزمر محبة الله الخالصة، فتكرر فيها ذكر التوحيد والبعث بما يحقق مقصدها ويتناسب مع محاورها. ولما كان مقصد سورة غافر تجنب الخصومات والجدال بالباطل تكرر فيها ذكر المجادلة بالباطل في نفي التوحيد والبعث وأسبابه وتبعاته. وهكذا في جميع السور.

التفسير الإشاري

في تحقيق أهداف كل سورة من خلال محاورها يلحظ المتدبر الإشارات القرآنية البديعة والذي يسميه بعضهم بالتفسير الإشاري.

فالتفسير الإشاري: أن يرى القارئ لكتاب الله تعالى إشارات خفية تنكشف لمن فتح الله عليه حال التدبر مع الإبقاء على المعنى الظاهر.

وقد أشار إلى ذلك علي رضي الله عنه لما سئل: هل عندكم شيء مما ليس في القرآن ما ليس عند الناس؟ قال: «والذي خلق الحبة وبرأ النسمة ما عندنا إلا ما في القرآن، إلا فهماً يُعطى رجل في كتابه». [١] لذا قال الله تعالى ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾، ومن هذا الباب دعا النبي ﷺ لابن عباس: «اللهم فقهه في الدين وعلمه الكتاب». [٢] وهو قريب من الكناية. [٣]

١- رواه البخاري (٦٩١٥).

٢- رواه البخاري (١٤٣،٧٥).

٣- انظر المدارج (٢/٤٨٣).

وهو بمثابة التفاؤل الذي قال فيه النبي ﷺ: «يعجبني الفأل». قيل: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة». [1] وكذا استدل النبي ﷺ بأمور على أمور أخرى، كما كان النبي ﷺ يستبشر بالأسماء الحسنة ويستدل بها. وكما فسر النبي ﷺ لرؤيته في المنام رطب ابن طاب في دار عقبة بن رافع فقال: «رافع: الرفعة لنا في الدنيا، وعقبة: العاقبة في الآخرة، وابن طاب: أن ديننا قد طاب». [2] وأمر من اسمه يعيش أن يحلب الناقة تفاؤلاً باسمه. [3]

قال ابن القيم: الإشارات من جنس الأدلة والأعلام. وسببها صفاء يحصل بالجمعية، فيلطف به الحس والذهن فيستيقظ لإدراك أمور لطيفة، لا يكشف حس غيره وفهمه عن إدراكها.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: «الصحيح منها ما يدل عليه اللفظ بإشارته من باب قياس الأولى. من ذلك قول الله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الصحيح في الآية أن المراد به: الصحف التي بأيدي الملائكة... ولكن الآية تدل على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر.

ومنها قول النبي ﷺ: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة» قال: فكيف تلج معرفة الله عز وجل ومحبته وحلاوة ذكره والأنس بقربه في قلب ممتلئ بكلاب الشهوات وصورها؟». [4]

١- رواه البخاري (٥٧٧٦) ومسلم (٢٢٢٤).

٢- رواه مسلم (٢٢٧٠).

٣- رواه ابن وهب من عدة طرق مرسلة (٦٥٢-٦٥٥) وعبدالرزاق (٤١/١١) عن عكرمة وابن سعد وابن السكن كما في الإصابة (٦٦٩/٣)، (٢٤٣/١) والطبراني ومن طريقه أبو نعيم في المعرفة (٢٨٢٠/٥) وابن عبدالبر في الاستذكار بسند حسن (٢٣٣/٢٧) والتمهيد(٧٢/٢٤) بزيادة اسم الصحابي يعيش، وحسنه الهيثمي في المجمع (٤٧/٨). ورواه البزار من حديث بريدة (الإصابة ٦٦٩/٣) وابن عبدالبر من طريق خلدة الزرقي (الإصابة ٤٥٥/١) .

٤- المدارج (٤١٦/٢-٤١٨).

لذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «تلك الإشارات هي من باب الاعتبار والقياس وإلحاق ما ليس بمنصوص بالمنصوص، مثل الاعتبار والقياس الذي يستعمله الفقهاء في الأحكام، لكن هذا يستعمل في الترغيب والترهيب وفضائل الأعمال... فإن كانت الإشارة اعتبارية من جنس القياس الصحيح كانت حسنة مقبولة». [١]

وقال: «أما أرباب الإشارات الذين يثبتون ما دل اللفظ عليه، ويجعلون المعنى المشار إليه مفهوماً من جهة القياس والاعتبار فحالهم كحال الفقهاء العالمين بالقياس والاعتبار. وهذا حق إذا كان قياساً صحيحاً لا فاسداً، واعتباراً مستقيماً لا منحرفاً». [٢]

من ذلك ما فهمه عمر وابن عباس رضي الله عنهم من نزول سورة النصر بأن فيها نعي النبي ﷺ، أي قرب وفاته. [٣] لذا قال ابن حجر: فيه جواز تأويل القرآن بما يفهم من الإشارات، وإنما يتمكن من ذلك من رسخت قدمه في العلم، ولهذا قال علي رضي الله عنه: «أو فهماً يؤتيه الله رجلاً في القرآن»[٤].

ولكن التفسير الإشاري المعتبر ينبغي أن تتوفر فيه الشروط الآتية:

١- أن يثبت المعنى الظاهر من الآية.
٢- أن لا يتنافى المعنى الإشاري مع المعنى الظاهر لئلا يفرغ الآية من مقصدها.
٣- أن لا يكون تأويلاً بعيداً سخيفاً كتفسير بعضهم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بجعل «لمع» من اللمعان.

١- المجموع (٦/٣٧٧).

٢- المجموع (٢/٢٨).

٣- رواه البخاري (٤٩٧٠).

٤- فتح البارى (٨/٧٣٦).

٤- أن لا يكون له معارض شرعي أو عقلي.

٥- أن يكون له شاهد شرعي يؤيده.

٦- لا يجب الأخذ به، وإنما يستحسن الأخذ به.[١]

خطة الكتاب

هذا الكتاب تناول مجموعة من السور تبدأ بالصافات وتنتهي بالحجرات على ترتيب المصحف العثماني.

وكل سورة تمثل فصلاً، ويذكر في كل فصل ما يلي:

١- مقصد السورة.

٢- الأدلة على تعيين مقصدها.

٣- محاورها على وجه الإجمال.

٤- تناول كل محور بتفصيل غير ممل ولا مخل بإذن الله تعالى.

فما وجدت فيه من فائدة فهو فضل محض من المولى القدير تفضل به على عبده الضعيف الذي ليس له من الأمر شيء، وما وجدت من عيب وخطأ فاستره سترك الله في الدنيا والآخرة، وبلغ كاتبه ليسارع إلى تصحيحه، جعلنا الله تعالى من المسارعين إلى الخيرات.

١- انظر مناهل العرفان (١/ ٥٤٩).

سورة الصافات

مقصد السورة

العزة لله تعالى ولأوليائه، والذل والصغار لأعدائه.

الأدلة على مقصدها

١- المناسبة بين أولها وآخرها

أ- بدأت السورة بقسم الله تعالى بأوليائه ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرًا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾، وانتهت بقول أوليائه ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾، فهم يتعززون بطاعته وعبادته وبولايتهم له سبحانه.

ب- وورد في أولها ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾، فتوحيده سبحانه هو الأصل الذي تبنى عليه ولاية الله تعالى، وانتهت بقول الله تعالى ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾ فهو رب السموات والأرض وما بينهما، رب العالمين، رب العزة الذي نزهه أولياؤه – لا سيما المرسلون – عن جميع النقائص، وأثبتوا له جميع صفات الحمد والكمال، فتمت ولايتهم، وفازوا بسلام الله عليهم ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾. فمن عبده وتألهه فاز بالعزة والولاية.

٢- تكرار بعض العبارات

تكررت فيها أربع عبارات كلها تشير إلى أولياء الله تعالى المؤمنين المخلصين المحسنين وهي ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾، ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

وكذا التسليم عليهم ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ ﴾، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾، ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾.

٣- مما يميزها

أ- ﴿ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾: تميزت هذه السورة عن باقي السور بقول الله تعالى ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾. بينما في سائر القرآن إذا ذكر المشرق ذكر معه المغرب: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ [١]، ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ ﴾ [٢]، ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴾ [٣]. فـ ﴿ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾ تشير إلى أوليائه الذين بهم تشرق الأرض، ومقصد هذه السورة أولياؤه ومنزلتهم عند الله تعالى. فناسب الاقتصار على ذكر المشارق دون المغارب.

ب - ﴿ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾: وتميزت عن سورة الأنبياء بقول الله تعالى ﴿ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾، بينما في سورة الأنبياء ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾. ولفظ ﴿ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ يناسب مقصد السورة وهو سفول أعدائه، ليدل في المقابل على علو أوليائه وعزتهم، إذ كل عالٍ علواً حقيقياً فهو عزيز.

جـ - ﴿ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾: ورد هذا اللفظ في سياق قصة يونس ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾، وفيه إشارة إلى أن عددهم لا ينقص عن مائة ألف، فقد يزداد العدد لكثرة المواليد وقد ينقص بسبب الوفيات، ولكن المحصلة الكلية أنهم في ازدياد، فإذا نقص فإنه لا ينقص عن مائة ألف. وكذا أولياء الله تعالى، قلوبهم دائماً في تألق وارتقاء وارتفاع وازدياد في ولايتهم لله تعالى ومحبته، وعدد

١- المزمل

٢- المعارج

٣- الرحمن

أتباعهم في زيادة دائمة سواءً ضيق عليهم أم وسع.

د- ﴿ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾: فما فائدة ذكر نوع الشجر؟ أما شجر اليقطين فهو الشجر الذي لا ساق له كشجر القرع ونحوه.

ورد ذكرها في قصة يونس عليه السلام إشارة إلى لطف الله تعالى بأوليائه. لما ألقى الحوت يونس عليه السلام وهو في غاية السقم ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ استلقى على الأرض، فلشدة مرضه وهزالة جسمه وضعفه أصبح الشجر الأرضي الذي لا ساق له أرفع منه فظلله فقال سبحانه: ﴿ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ ﴾ أي أنبتناها مطلة عليه، مظلة له كالخيمة.[1]

والقرع هو الدباء، ويجمع خصالاً عدة: برد الظل، ولين الملمس، وعظم الورق، وأن الذباب لا يقع عليها كما قيل. وكان عليه السلام لرقة جلده حين ألقي لم يكن يحتمل الذباب، ويؤلمه حر الشمس، ويستطيب بارد الظل، فلطف الله تعالى به. وذكر أن ورق القرع أنفع شيء لمن ينسلخ جلده.[2]

ثم كلمة ﴿ يَقْطِينٍ ﴾ أصلها من «قطن» أي أقام بالمكان وتوطّنه، وسكن فيه. وفيه إشارة إلى التمكين في الأرض لأولياء الله تعالى، كما قال تعالى بعدها عن أوليائه: ﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾.

١- روح المعاني (١٤٦/٢٣)

٢- انظر روح المعاني (١٤٦/٢٣) وتفسير الجمل (٣٥٨/٦)

٤- اسمها

اسمها الصافات، والصافات هي الملائكة أولياء الله تعالى الذين يصفون لعبادة الله، ويندرج معهم أولياؤه من الإنس والجن. فالصف صفة أوليائه المقربين الذين يصفون في أجل العبادات. فهم يصفون للصلاة لعبادته تقرباً إليه وتعززاً به، وكذا يصفون للجهاد في سبيله. فسميت باسمهم لعزتهم ومكانتهم عند الله تعالى.

٥- آخر السورة السابقة لها

ورد في آخر سورة يس السابقة لهذه السورة: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾، أرادوا التعزز بآلهتهم فكانت سبباً في إهانتهم وهوانهم وعذابهم. ثم ختمت ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ فالملك ملكه والأمر أمره، والخلق خلقه والمصير إليه، فالعزة له سبحانه.

فناسب آخر سورة يس مقصد السورة التي بعدها سورة الصافات بأن العزة لله تعالى ولأوليائه، والذل والصغار لأعدائه.

محاور سورة الصافات

المحـــور الأول: استهلالها بمكانة أولياء الله تعالى.

المحـــور الثاني: سبب سفالة وحقارة أعدائه.

المحـــور الثالث: الذل والصغار لأعدائه في أرض المحشر يوم القيامة.

المحـــور الرابع: كرامة العباد المخلصين في المحشر وعلو درجتهم في الجنة.

المحـور الخامس: كمال الإهانة والذل لأعدائه في نار جهنم.

المحور السادس: حسن العاقبة في الدنيا لأولياء الله تعالى وسوء العاقبة لأعدائه.

المحـــور السابع: سفالة عقول الكفار واعتقاداتهم.

المحـــور الثامن: كمال عقول أولياء الله تعالى.

المحـــور التاسع: الخاتمة.

محاورها

المحور الأول: استهلالها بمكانة أولياء الله تعالى

بدأت السورة بقسم الله تعالى بعباده المخلصين المصطفّين لعظم قدرهم عنده لا سيما حال طاعتهم وعبادتهم في الصلاة والجهاد وغير ذلك. فهم ينتظمون فيها صفوفاً تعظيماً لله وتأدباً ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ﴾، آمرين بعضهم بعضاً بتسوية الصفوف، متناهين عن الخلل فيها ﴿ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ﴾، تالين كلامه ذاكرين له عابدين ﴿ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴾، يتلون آيات التوحيد وأذكار التسبيح والتعظيم، مفردينه بالتأليه والعبادة ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴾. قال النبي ﷺ لأمته لتفوز بنصيبها من هذا القسم الإلهي والمنزلة الشريفة: «ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم؟ قالوا: وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: يتمون الصفوف المتقدمة ويتراصون في الصف». [1] واصطفاؤهم وعزتهم على قدر توحيدهم لربهم وإخلاصهم له ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴾.

وهؤلاء الأولياء المخلصون الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر بهم تشرق الدنيا وينقشع الظلام ﴿ وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴾، فهم زينتها، وبهم يحفظ دين العباد، وبهم تحفظ الأرض ويحفظ العالم من المصائب، ومن التلبيس بشبهات شياطين الإنس والجن، ومن الإغراء بشهواتهم: إذ يقذفون شبهاتهم بالحجج والشهب الساطعة القاطعة المحرقة فيدحرونها، ويردون دعاة الشهوات بالمواعظ الزاجرة. حالهم كحال الكواكب التي هي زينة للسماء الدنيا، وبها تحفظ من الشياطين ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ﴾. قال النبي ﷺ: «النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى

١- رواه مسلم (٤٣٠).

أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون».[١] فشبه النبي ﷺ نفسه والصحابة وأتباعه بالنجوم في السماء.

وبالرغم من أن الناس خلقوا من أصل مهين ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ إلا أن الله تعالى حط عن أوليائه الإهانة، فأعزهم وكرّمهم ورفعهم وثبتّهم بتوحيدهم وإخلاصهم له وتعظيمهم لكتابه ولرسالته وبمتابعتهم لك يا رسول الله. فكما عظمت القرآن لأنه من الله تعالى، ولعظمة ما فيه، ووفرة عجائبه وغزارتها، ولتفرده بالخصائص، فعجبت لعظمته ﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾، فكذا عظمه أتباعك المخلصون، فأعزهم الله تعالى، ورفع منزلتهم إلى مرتبة ولايته. والعجب يأتي لتعظيم الشيء لندرته أو تفرده.

١- رواه مسلم (٢٥٣١/٦٤٦٦).

المحور الثاني: سبب سفالة وحقارة أعدائه

أما أعداء الله تعالى فقد خلقوا من أصل مهين ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾، ولم يسعوا إلى ما يرفعه عنهم. بل ازدادوا سفالة بسخريتهم من دعوة التوحيد ومن كلام الله تعالى الذي توجل منه القلوب وتعجب من عظمته الألباب ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾. ثم تضاعف سفولهم ببلادتهم، وذهاب عقولهم، وعدم انتفاعهم بها ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴾، وقساوة قلوبهم التي لا تنتفع بالتذكير. ثم ازداد انحدارهم بمجالسهم الساقطة التي يغلب عليها اللغو والبطالة واستدعاء السخرية وإن لم توجد دواعيها لا سيما مما تنقاد النفوس لجلالته ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾. ثم توغلوا في قعر الصَّغار بالبهتان ورد الحق لما عجزوا عن المحاجة ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾، وتأكد ذلك برد القطعيات متعللين بجهلهم بها ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾، فهذا اليوم الذي أنكروه سيكونون فيه في غاية الذل والصغار.

المحور الثالث: الذل والصغار لأعدائه في أرض المحشر يوم القيامة

أما السفالة والذل الحقيقي فهو يوم القيامة حين يبعثون في غاية الذل والصغار ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾، قال النبي ﷺ: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس، تعلوهم نار الأنيار، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال، يطؤهم الناس يوم القيامة». [1] حينئذٍ يدعون على أنفسهم بالويل والثبور﴿ وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا ﴾. ثم يزداد صغارهم حين يسمعون المصير العام للظلمة والمشركين قبل حسابهم، إذ يسمعون قائلاً يقول: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، ثم سوقوهم إلى الطريق الواسع الذي يسع أضعافهم، ويسهل فيه الانتهاء إلى نار عظيمة لتلقوهم في الهاوية في واد سحيق ﴿ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ في أسفل سافلين، ليسقط في أيديهم فيكونوا في غاية الهوان عند سماعهم مصيرهم قبل أن يدخلوها. فيحشرون مع سقطة الناس، مع الكُناسة، ويقفون للمساءلة والحساب وقوف ذلٍ في تمام الوحدة والانفراد ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾، في غاية الاستسلام ﴿ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾، إذ يتخلى الخلان عن مناصرتهم.

بل تتحول الخلة الدنيوية إلى خصومة ليتبرأ بعضهم من بعض، ثم يتقاذفون اللوم ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴾. فيؤخذ كل منهم على انفراد أخذ المجرم المكبل بالسلاسل، المحاط بالحرس، المهان أمام العالمين، فينادى بصوت

١- رواه أحمد (٢/ ١٨٧) والترمذي (٢٤٩٢) والنسائي (١١٨٢٧) وصححه أحمد شاكر (٦٦٧٧) وحسنه الألباني وحسن العراقي النصف الأول منه في الإحياء (٣/ ٣٣٨).

يسمعه الأول كما يسمعه الآخر ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴾، هذا جزاء الاستكبار عن عبادة الله وحده ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ وجزاء عدم متابعة النبي ﷺ والسخرية به ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴾. هذا هو أصل الذل والصغار والسفول في أرض المحشر.

المحور الرابع: كرامة العباد المخلصين في المحشر وعلو درجتهم في الجنة

أما عباد الله المخلصون فلا يؤاخذون بجميع خطاياهم، بل يعاملهم الله تعالى بفضله، لا بأعمالهم وإنما برحمته ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾، لذا قال النبي ﷺ: «ما من أحد يدخله عمله الجنة. قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة».[1]

فهم في غاية النعيم والكرامة، هذا حالهم منذ بعثهم من قبورهم حتى سوقهم إلى أرض المحشر ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴾، يكرمون بالنظر إلى الله تعالى إلى أن يستقروا في جنة الخلد ﴿ في جنات النعيم. على سرر ﴾. ومن تمام السعادة المعنوية اجتماعهم مع أهليهم من أزواجهم وذرياتهم وآبائهم، تدار عليهم الكؤوس ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾. لا تعتريهم غائلة خمر الدنيا ولا سفالتها ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾، متنعمين بالحور العين ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾.

ثم يتمم لهم النعيم بلقاء الخلان والأصدقاء، والتندر معهم بتذكر ما مضى في أيام الدنيا -حين كملت عقولهم بالنظر في دعوة التوحيد، والمسارعة في قبولها، وعدم الاستجابة لأعداء الله وأعداء الرسل ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴾، فهذا هو النعيم الحقيقي. فإذا ما صاحبه رؤية عدوه وخصمه في النار في غاية الذل ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾، ثم قرّعه ووبّخه فلم يحر خصمه جواباً ﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾، حينئذ تظهر حقيقة العزة ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾. هكذا فليكن المؤمن، ليكن نظره دائماً نحو الآخرة لئلا تنسيه مصائب الدنيا غايته ويقنطه تأخر النصر الإلهي وتغتاله شهواتها.

١- رواه مسلم (٢٨١٦) ونحوه البخاري (٥٦٧٣).

المحور الخامس: كمال الإهانة والذل لأعدائه في نار جهنم

ما سبق من الذل والإهانة لأعداء الله تعالى في أرض المحشر ما هو إلا توطئة لما بعده. أما غاية الإهانة والذل والصغار لأعداء الرسل المستكبرين عن إفراد الله بالعبادة ومتابعة الأنبياء حين يكونون في منتصف الجحيم، في قعر الهاوية المضطرمة بالنيران ﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾.

طعامهم من شجرة كريهة المنظر، نتنة الرائحة، خبيثة الطعم ﴿ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾، تنبت في قاع الهاوية، تسقى من صديد أهل النار ونتنهم وخراجهم، فكيف يكون مذاقها؟ طلعها ومنظرها وثمارها في غاية القبح ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾. فجمع لهم أخبث مذاق مع أقبح منظر ليصبح طعامها ﴿ ٱلزَّقُّومِ ﴾، وشرابها ﴿ لَشَوْبًا ﴾ خليطاً من الأقذار والنجاسات والنتن، في غاية الحرارة، يملأون بها بطونهم ﴿ فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾.

هذا جزاء من أغفل قلبه، وانتكس عقله، وآثر العمى في دنياه تقليداً لآبائه في الشرك ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾. تلك عاقبة أعداء الله تعالى في الآخرة في غاية الذل والإهانة مقارنة مع أوليائه في غاية الكرامة ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾. هذا المصير في الحياة الباقية الدائمة التي هي حقيقة الحياة للخلق.

المحور السادس: حسن العاقبة في الدنيا والنصر لأولياء الله تعالى وسوء العاقبة لأعدائه

أما في الدنيا في الحياة الزائلة فأولياء الله تعالى المصلحون لهم العزة الحقيقية لا الموهومة، دعوتهم مجابة، ونجاتهم وأهليهم من الكروب والعقوبات الإلهية مضمونة، ونسلهم باق محفوظ ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾، وذكرهم حسن، وثناء الخلق عليهم دائم ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

بينما أعداء الله تعالى فإنه سيغرق عرشهم، ويتلاشى قدرهم، وتتساقط عزتهم الموهومة الزائفة في محيط متلاطم الأمواج ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾، فلا يبقى لهم ذكر إلا الشتم واللعن، وعاقبتهم البوار، ومصيرهم الهلاك ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾، وكيدهم في سفول ومردود عليهم ﴿ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾. فهذا ثواب آخر لأوليائه أن يروا مصير أعدائهم أعداء الله تعالى في الدنيا قبل الآخرة.

وصورة أخرى من الكرامة الدنيوية لأوليائه أنهم إذا تركوا شيئاً وهجروه لله تعالى ﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ فإنهم يبشرون ويرزقون ما لم يكن في الحسبان ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾. ولا يعكر صفوه أن يبتليهم بالبلاء الشديد ليرفع درجتهم ويعلي منزلتهم، فيجعل لهم جلالاً وشرفاً عظيماً، ويجعلهم أئمة، فهذا كرامة لهم. أما البلاء فإن الله تعالى سيجعل لهم مخرجاً منه، كما حدث لإبراهيم ﷺ حين ابتلي بذبح ابنه إسماعيل واستجاب لله تعالى وعزم على ذبحه أكرمناه بأن شكرناه على إقدامه ومنعناه من ذبحه ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾، ثم جعلنا له ذكراً خالداً بأن جعلناه نسكاً في عيد الأضحى إلى يوم القيامة لجميع العابدين ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾، وضاعفنا له النعم والمنن، وهذه كرامات متوالية. لذا ضوعفت

هذه العبارة لإبراهيم ﷺ فذكرت مرتين ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾. ثم أكرمناه بزيادة في الاصطفاء، وإصلاح الذرية، وحلول البركة عليهم ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ﴾. كذلك يجازى كل من سار على هديه في الإخلاص والإحسان والإيمان، ولكن قدر هذه المنن على قدر استسلام القلب لله تعالى وولايته.

ثم صورة أخرى من المنن والكرامة الدنيوية للمؤمن الداعي إلى توحيد الله تعالى وهي تسخير من يؤازره في دعوته ورسالته ليحمل معه همّ الدعوة، كما أكرم الله تعالى موسى عليه السلام بهارون عليه السلام وزيراً مؤازراً ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾، مع التأكيد على النصر على الأعداء والغلبة للمذكورين سلفاً ﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾، ثم يفوز بنصيبه من كلام الله تعالى، وتشريع يسعده في الحياة الدنيا، ويكرم ببصيرة القلب تنير له الطريق ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾، ثم يكرم بزيادة في الهداية والتثبيت والترقي في منازل الولاية ﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾. فالنجاة والنصر نسبهما الله تعالى إلى موسى وهارون عليهما السلام وقومهما، لكن إيتاء الكتاب والهداية إلى الصراط المستقيم قصرهما الله عليهما عليهما السلام، لأنهما فضل زائد خاص بأولياء الله تعالى.

المحور السابع: سفالة عقول الكفار واعتقاداتهم

لو تبصرت في اعتقاد الكفار لرأيت أن أصل اعتقادهم قائم على الفَرْج (عضو التناسل)، عقولهم لا تتعداه، مقصورة على الذكورة والأنوثة. إن تعظيمهم للذكورية يفوق تصور المرء. من ذلك عبادة الآلهة من أجل الفحولة والذكورة، فسموا إلههم بعلاً، لذا قال لهم نبيهم إلياس عليه السلام: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾، فتنافسوا في عبادته، وهو الذي يسمى (بعل بك – بعلبك) أي الإله بعل، تاركين عبادة الله وحده ودعوة نبيهم إلياس الذي هو خيرهم. فتمم الله له اسمه وسماه (إلياسين) لكمال عقله ووفوره مقابل انتكاس عقول قومه. وهكذا تسمى الأسماء بحقائقها، لا تلك الأسماء التي تطلق على الآلهة الباطلة بلا حقائق.

ومن تعظيمهم للذكورة التنافس في إثبات أيهم أكثر فحولة وأشدهم ذكورة، حتى سلك بعضهم في ذلك أقبح المسالك كاستئناث الذكور الآخرين وإتيانهم، كحال قوم لوط ﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴾، فمآلهم دوماً إلى سفال. وهذا يشمل من تواطأ معهم، ولو لم يمارس فاحشتهم، ولو كان شيخاً طاعناً في السن، بل امرأة عجوز، فمآلهم إلى سفال لا استثناء فيه. لقد انتكست عقولهم فدمرناهم، فاحذروا أن تنتكس عقولكم ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

إن هذه الفحولة التي تعظمونها وتجعلونها أصلاً تحومون حوله سواءً في عبادتكم وتألهكم أو في علاقاتكم مع الآخرين ليست مانعة من العقاب واللوم فضلاً عن أن تكون أصلاً تبنى عليه العبادة ويؤسس عليه الاعتقاد. إن الميزان عند الله تعالى ليس بالذكورة، وإنما بالتقوى وكمال الاستسلام له. فهذا يونس عليه السلام نبي ذكر مقرب، لما وقع فيما وقع فيه لامه الله تعالى ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾، بالرغم من كونه ذكراً رفيع المقام. فلم

يكن الميزان عند الله تعالى الذكورة، وإنما بالتقوى، وبعبادة الله وحده، والائتمار بأمره، والسعي في صلاح الخلق. فلما استسلم لله تعالى نجاه من موضع لم يعلم به ولم يسمع نداءه ولا استغاثته إلاّ الله تعالى ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾، بل سخرنا له حينئذٍ مائة ألف آمنوا به، ويزيدون عن هذا العدد ولا ينقصون.

حول الذكورة والأنوثة لا غير يدندن المشركون، وبالرغم من ذلك انتكست عقولهم فيها. فهم ينسبون البنات لله -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، بينما ينسبون الذكور إلى أنفسهم ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾. ثم لسفالة عقولهم يزعمون في الملائكة أنهم من سلالة الله تعالى ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾. ويزعمون أنهم نتاج زواجه من سروات الجن ﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾. فلا يقبل هذا البهتان إلا عقل ساقط سافل هاوٍ في الهاوية ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾.

المحور الثامن: كمال عقول أولياء الله تعالى

بينما المؤمنون أولياء الله تعالى عقولهم راجحة، سامية، متفانية في محبة الله تعالى والإخلاص له ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾، متألقة في سماء الأدب بين يديه، متراصون في صفوف منتظمة لكمال الذل والخضوع لجلاله لمّا عرفوه، لا سيما حال عبادتهم وطاعتهم، كل منهم لا يجاوز قدره ومقامه ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ لذا قال النبي ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد. فقولوا: عبدالله ورسوله». [1] ثابتون على تنزيه الله تعالى عن جميع النقائص، وعن مماثلة أحد من خلقه، وعن الولد والبنات والنكاح ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾، يعبدونه وحده لا شريك له. وقد كان الكفار يتمنون قبل أن يأتيهم رسول الله محمد بن عبدالله ﷺ أن لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله، لإن هذا نداء العقل السوي ﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾.

١- رواه البخاري (٣٤٤٥).

المحور التاسع: الخاتمة

العزة لله سبحانه ولأوليائه حالاً ومآلاً ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾. وسترون بأم أعينكم شيئاً من هذا النصر، وهم كذلك سيرون انتصاراتكم الباهرة ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾. ثم يعقبه نصر عام على العالم أجمع، وسوف يعاين العالَم راية التوحيد خفاقة على يد أولياء الله تعالى في جميع أرجاء الأرض، ويرى العالم نجومهم قد ملأت سماء الأرض، بهم يهتدي الناس، وبشهبهم تقذف شبه شياطين الإنس والجن، وبهم يحفظ الدين. وقد لا تدرك أنت هذا الانتصار العام وإن أدركت مقدماته، فلذا انتظر ﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾.

فالعزة لله تعالى الذي له كمال الصفات، ولرسله ولأوليائه كذلك دائماً في كل حال وفي كل حين، ولكن عزتهم على قدر تعظيمهم لله تعالى وانقيادهم وإفرادهم له بالعبادة، وعلى قدر وصفهم له بصفات الكمال والحمد والجلال التي وصفه بها المرسلون، وعلى قدر تنزيههم له عما لا يليق بجلاله، فجعل السلام عليهم بين تسبيح رب العزة وحمده ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فختمت السورة بما بدأت به أولاً.

ولله الحمد والمنة أولاً وآخراً والله أعلم.

سورة ص

مقصد السورة

التجمل بجميع ألوان الصبر من أجل الله؛ لنيل الذكر الأعلى عند الله تعالى.

الأدلة على مقصدها

١- المناسبة بين أولها وآخرها

ورد في أولها دعوة النبي ﷺ إلى الصبر على استهزاء الكفار به وبما جاء به لينتهي به الصبر إلى نعم عظيمة، وغايات جليلة. منها هلاك أعدائه الكفار، وظهور دعوته، ونيل الذكر العظيم له ولدعوته ﴿ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ ﴾، لذا قال الله تعالى للنبي ﷺ: ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾.

وفي آخر السورة توعدهم الله تعالى بظهور نبأ القرآن ونبأ من تمسك به، وتحقق ما جاء فيه من وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين ولكن ﴿ بَعْدَ حِينٍ ﴾. فتضمن حث النبي ﷺ على الصبر فترة من الزمن إلى أن يظهر وعده ووعيده ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴾.

٢- تكرار كلمة الصبر

تكررت فيها كلمة الصبر وصوره. من ذلك ما جاء فيها من تواصي الكفار فيما بينهم ﴿ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾، ووصية الله تعالى لنبيه ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾، وثناؤه على أيوب عليه السلام ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ﴾. وأما صوره فسيأتي ذكرها في محاورها بإذن الله تعالى.

٣- تكرار لفظي (العبد) و (إنه أواب)

لما ذكر الله تعالى داود عليه السلام وصفه بقوله ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، وسليمان ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، وأيوب ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، وخُلّص الأنبياء ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ﴾، ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾. والعبد المقرب هو الذي يصبر على كل شيء ليؤوب إلى مولاه، فيصبر نفسه على الأذى من أجل مولاه، وعلى المصائب التي يقدرها عليه ولو طال الزمان، ويصبر على تقديم محاب سيده على محابه، وعلى عدم الاعتراض على سيده، وعلى الرجوع الدائم والإياب إلى سيده في جميع الأحوال. ويصبر عن كل شيء إلا الصبر عن مولاه والإياب إليه، وهكذا جُمِعَت أنواع الصبر في هذه السورة، والله أعلم.

٤- تميزها

أ- تميزت سورة ص عن سائر السور بقول الله تعالى لإبليس لإظهار كرامة آدم عليه السلام: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾، فالله تعالى خلق آدم بيديه الكريمتين. إذ من مقتضيات اليد الكاملة القوة والكرم، وتمام العطاء والمنة، والتأييد والنصرة والمواساة، ومعية القربة والمصاحبة والمحبة، والتكريم بالسيادة والإمامة، والشرف، والحماية والوقاية من الأعداء، والفوز بكل خير، وبها يتحقق التطهير وإزالة ما لا يليق، وجميع مقتضيات اليد الكاملة ثمرات للصبر. فمن صبر في الدعوة إلى الله تعالى حاز التأييد الإلهي والنصر على الأعداء قال تعالى: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن النصر مع الصبر» [1]، وفاز بالكرم الإلهي ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم

١- رواه أحمد (١/ ٣٠٧).

بغير حساب ﴾، ونال الفلاح والفوز بكل خير ﴿ اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾، ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾، ﴿ وتمت كلمت ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ﴾ وكرم بالإمامة ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ﴾، ومعية القربة والمصاحبة ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾، والوقاية من العدو ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ﴾، ، وفاز بالحب الإلهي ﴿ والله يحب الصابرين ﴾، وأهل الصبر هم أهل اليمين الإلهي ﴿ وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة (١٧) أولئك أصحاب الميمنة ﴾، وإتمام المنة لأهل الصبر كما قال ﷺ لخباب: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه. والله ليتمن هذا الأمر».[١] وبالصبر يطهر ويزكى كما قال ﷺ: «ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله عنه به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها».[٢] وقال ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة».[٣]

هذه الكرامة الإلهية لبني آدم بأن خلق أباهم بيديه الكريمتين يجب أن تقابل بالشكر بعبادة الله وحده، والدعوة إليها، والصبر عليها بجميع أنواع الصبر.

ب- وكذا تميزت عن سورة ق بقوله تعالى ﴿ وقال الكافرون هذا سحر كذاب ﴾ بالواو ﴿ وقال ﴾، بينما في سورة ق ﴿ فقال ﴾ بالفاء للترتيب. ذلك أن آية ﴿ ص ﴾

١- رواه البخاري (٦٩٤٣).

٢- رواه البخاري (٥٦٤٨) ومسلم (٢٥٧١).

٣- رواه الترمذي (٢٣٩٩) وصححه الحاكم (١/٣٤٦) وحسنه الألباني في السلسلة (٢٢٨٠).

وردت في مقام بيان العظائم من أفعال كفار العرب وأقوالهم التي تقتضي النوع الأول من الصبر وهو الصبر على أذاهم. إذ يزعمون أنهم في عزة بل هم في شقاق، وعجبهم أن يكون المنذر منهم، واتهامهم له ﷺ زوراً بالسحر والكذب ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾، وكذا استنكارهم لتوحيد الإله المعبود ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾. فجمع الله تعالى هذه العظائم بما لا يقتضي ترتيباً ولا تعقيباً.[1] ذلك أن تلك الاتهامات الباطلة والتعجب من إرساله لم يكن بعضها مبنياً على بعضها الآخر.

فالاتهام بالسحر والكذب لم يكن متعلقاً بعجبهم من أن يكون المنذر منهم، بل قبل عجبهم اتهمه بعضهم وهو الصادق البار الناصح، وبعد عجبهم اتهمه بعضهم الآخر. وقد يكون اتهامه ﷺ من قبل بعضهم بالكذب قبل عجبهم، فلمّا لم يفلحوا في تكذيبهم أظهروا التعجب من أن يكون المنذر منهم، فلمّا لم يفلحوا ورأوا انكباب الناس عليه - أشرافهم وعبيدهم، نسائهم ورجالهم - صابرين على ألوان العذاب من أجل دعوة التوحيد اتهموه بعد ذلك بالسحر، فادعوا أنه يفرق بين الولد وأبيه والمرأة وزوجها والعبد وسيده. وبعضهم اتهمه بالسحر قبل تعجبهم ثم اتهمه بالكذب بعد التعجب، فلمّا كان الأمر كذلك لم يكن بعض الاتهام مبنياً على بعضه لم يحسن أن يعقبه بالفاء ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾، بل يعقبه بالواو ﴿ وَقَالَ ﴾ ليشملهم كلهم، إذ الواو لا تفيد الترتيب. فذلك السيل من الاتهامات المتباينة الباطلة في وقت واحد الذي استهلت به السورة اقتضى صبراً عظيماً، فناسب ذلك سورة الصبر، وناسب قوله تعالى بعدها ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾.

١- انظر ملاك التأويل (٢/٨٠٧-٨٠٩).

بينما سورة ق مقصدها البيان أنه بالرغم من قوة الأدلة ووضوحها إلاّ أن الكفار في حال تعجب وإعراض. فورد السياق بما يظهر هذا العجب الاستنكاري المتتالي من غير تدبر ولا نظر في الأدلة، فهو تعجب متعاقب سريع ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ فناسب ذكر فاء التعقيب في قوله تعالى ﴿ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ للدلالة على سرعة التعجب وردة الفعل السريعة من غير تدبر ولا نظر.

٥- اسم السورة

اسمها سورة ص وهو أول حروف الصبر.

٦- الآيات الأخيرة من السورة السابقة لها

تكرر حث الله تعالى نبيه ﷺ في آخر سورة الصافات بالصبر على الكفار والانتظار حتى حين، ليتحقق النصر الموعود ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾. ثم قال له ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾. فتلتها سورة ص شارحة ومبينة جميع صور الصبر الذي يحبه الله تعالى ليتحقق الوعد الإلهي لتنتهي بلفظ مقارب ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴾.

محاور سورة ص

المحور الأول: استهلالها.

المحور الثاني: تواصي الكفار بالصبر على كفرهم.

المحور الثالث: الصبر على أذى الكفار.

المحور الرابع: الصبر على التراجع عن الخطأ وعاقبته.

المحور الخامس: الصبر على بذل المحاب لوجه الله.

المحور السادس: إطالة مدة الصبر.

المحور السابع: نخبة من الصابرين.

المحور الثامن: العاقبة الأخروية للصبر.

المحور التاسع: أمر عظيم يستحق الصبر.

المحور العاشر: صبر السيادة.

المحور الحادي عشر: الصبر عن التكلف.

المحور الثاني عشر: صبر الله تعالى.

المحور الثالث عشر: الخاتمة.

محاورها

المحور الأول: استهلالها

هذا القرآن العربي المؤلف من الحروف العربية قد جمع الله فيه جميع المصالح التي تستقيم بها أمور العبد، وفيه بيان لجميع المفاسد التي ينبغي اجتنابها والتي تشقى بها حياته ويحصد بها معيشةً ضنكاً. فمن أكثر من مذاكرته وتلاوته اتعظ وتذكر ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ فاستقام حينئذٍ ليعيش حياة كريمة.

ومن اتعظ به وتذكر كان له عز حقيقي، وشرف عظيم، وذكر في الملأ الأعلى، قال النبي ﷺ: «قال الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم». [1] فكما كان له ذكر في الملأ الأعلى فسيكون له نصيب فيما يختصم به الملأ الأعلى. لِمَا له من القدر والشرف والدرجة العالية عند الله تعالى، قال النبي ﷺ: «قال الله تعالى: يا محمد! هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري. ثم قلت: في الكفّارات والدّرجات». [2] ثم يوضع له القبول في الأرض ليكون له فيها عز ظاهر وشرف آخر، ويجعل الله له ذكراً بين العباد وفي الكون ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾، فمن تمسك بالقرآن جعل الله له ذكراً بين الخلق. قال النبي ﷺ: «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إن الله يحب فلاناً فأحببه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء أن الله يحب فلاناً فأحبوه، ثم يوضع له القبول في الأرض». [3] وأكبر معين على ذلك بعد الله تعالى الصبر بأنواعه: الصبر على تعلمه، والصبر على العمل به، والصبر على الدعوة إليه، وقد جمعت هذه الأنواع في

١- رواه البخاري (٧٤٠٥).

٢- رواه الترمذي (٣٢٣٥) وصححه الألباني.

٣- رواه البخاري (٣٢٠٩).

سورة العصر.

قارن هذا الصابر على القرآن وعلى ذكر الله تعالى بمن أعرض عن القرآن فتقلب في عزةٍ واهية كاذبة موهومة، يتظاهر بها بين أصحابه مشاقاً لله ولرسوله، فجازاهم الله تعالى أن جعلهم أشد تمزقاً وشقاقاً، فاقتضى ذلك ذلاً لهم وصغاراً ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾، فالجزاء من جنس العمل. ثم سيعقبه هلاك أشد وطأة كما هو دأب من سبقهم من الأمم الذين استغاثوا حينئذ وحاولوا الفرار من العقوبات الإلهية والهلاك، ولكن لا نجاة منه ولا مفر ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ فأي عزة يدعونها؟!

المحور الثاني: تواصي الكفار بالصبر على كفرهم

لقد عجب الكفار من دعوة التوحيد التي جاءت على لسان رسول الله محمد ﷺ، بل هم في غاية العجب ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾. كيف يعجبون؟

بل الأعجب من عجبهم أن يأتيهم رسول منهم عرفوه وعرفوا صدقه وأمانته وسيرته العطرة وذاع صيته بذلك فقالوا: ﴿ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾! عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: عدا ذئب على شاة فأخذها، فطلبه الراعي فانتزعها منه، فأقعى الذئب على ذنبه فقال: ألا تتقي الله؟ تنتزع مني رزقاً ساقه الله لي؟ فقال: يا عجبى. ذئب يكلمني كلام الإنس. فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمد بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق. فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة. ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره. فقال ﷺ للصحابة: صدق.[1]

ثم عجب آخر أن يدعوهم إلى عبادة الله وحده الذي عنده خزائن الرحمة والعزة والهبة وملك السموات والأرض وما بينهما فينكرونه قائلين ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾!

وعجب ثالث أنه قد سبقه أنبياء ورسل دعوا إلى ما دعا إليه من عبادة الله وحده فقالوا ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾!

وعجب رابع أنهم يريدون أن يحكموا على الله تعالى فيمن يختار ليهبه رسالته ورحمته وعزة توحيده والإيمان به والدعوة إليه فقالوا ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾! فأجابهم ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴾.

١- رواه أحمد (٣/ ٨٣-٨٤) وصححه ابن حبان (٦٤٩٤) والحاكم (٤/٤٦٧-٤٦٨) والبيهقي في الدلائل (٦/ ٤١-٤٢) وابن كثير في البداية (٦/١٤١) والألباني في الصحيحة (١٢٢).

وعجب خامس أنهم علموا عقوبة من سبقهم من الأمم المكذبة لرسلها ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾. فعلموا حينئذ أنهم إن كذبوا رسول الله محمداً ﷺ فستكون عقوبتهم عظيمة عاجلة قريبة كحال من سبقهم. أما عظمتها فإن الصيحة إذا جاءتهم فلا صيحة تفوقها وتضاهيها في عظمتها ﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾، وأما قربها فهي كالفترة الزمنية ما بين الحلبتين للناقة والتي تسمى فواق ناقة ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾. ثم هم بالرغم من ذلك يكذبون رسول الله ﷺ! فهذا أعجب العجب.

وبعد كل هذه الأعاجيب يتواصون بالصبر على شركهم وكفرهم ﴿ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾، بل يتحدّون قائلين ﴿ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ أي نصيبنا من العذاب ﴿ قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾! فأنت يا رسول الله أولى بالصبر على دين الله وعبادته ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ لتنال العزة الحقيقية والإمامة، فبالصبر تنال الإمامة، فتذرع بجميع أنواع الصبر.

المحور الثالث: الصبر على أذى الكفار

وصى الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بجميع أنواع الصبر المحمود لنيل أعلى الدرجات. أوله الصبر على أذى الكفار والخصوم وتكذيبهم. إذ وصفوا النبي ﷺ بأوصاف يجل عنها مقامه الشريف ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾، وقالوا عن القرآن الذي جاء به: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾، واستخفّوا بدعوته قائلين: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾، وكذا أظهروا ازدراءه والتكبر عليه فقالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾؟ ثم الاستهزاء والسخرية والاستخفاف بالعقوبة التي أنذرهم بها ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾. فوصى الله سبحانه نبيه ﷺ بالصبر على قولهم ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، مستعيناً بالله تعالى ثم بالتسبيح بالعشي والإشراق كتسبيح داود عليه السلام، فهذا النوع الأول من الصبر.

لقد سخر الله تعالى لداود عليه السلام أشد الأشياء صلابة وقوة وهي الجبال، فجعلها منقادة له في الذكر، تسبِّح معه بالعشي وبعد الشروق حين تضيء الشمس ويصفو شعاعها وهو وقت الضحى ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾. وكذا سخر له ما يضادها وهي أخفها وأكثرها لعباً وتقلباً وطيشاً، وأقلها وقاراً وثباتاً ومطاوعة، وأشدها نفرة وهذا مما يصعب تسخيره وهي الطيور ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ حال اجتماعها، بل سخرها له مع الجبال تسبح معه بصوت واحد ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

فالقادر على تسخير المتضادين أصلبها وأخفها قادر على أن يسخر لك قلوب الكفار التي هي دون صلابة الجبال وأوقر من الطير ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، ولكن اصبر مستعيناً بالتسبيح والإكثار منه كحال داود عليه السلام. لذا وصّى النبي ﷺ بالاقتداء بداود عليه السلام فقال: «أحب الصلاة إلى الله

صلاة داود عليه السلام، وأحب الصيام إلى الله صيام داود عليه السلام»[1].

ووصّى بالمحافظة على تسبيحة الضحى فقال ﷺ «صلاة الأوابين حين تَرْمَض الفصال»[2] أي إذا اشتدت حرارة الرمل بالشمس فتحترق أخفاف صغار أولاد الإبل.

بل أبشر يا رسول الله بالملك العظيم المدّخر، المقدر لك بصبرك على هذا الاستخفاف والاستهزاء، وأبشر بإعانة الله لك على تدبير شؤون هذا الملك والحكم في الدولة الموعود بها وإعانتك بالحكمة وحسن القضاء فيها كما أكرمنا دواد عليه السلام بذلك ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ ﴾. ثم أبشر بإلهامك الحكمة وجوامع الكلم والبلاغة والفصاحة والبيان في خطابك للأمة ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾ كما أكرمنا نبينا داود عليه السلام. وكذا أبشر بأعظمها وهو الفوز بمحبة الله تعالى ومودته كما أكرمنا نبينا داود عليه السلام ﴿ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ﴾ أي ذا وُدّ، وأبشر بإلقاء محبتك في قلوب الخلق أعظم مما ألقى الله سبحانه محبة داود عليه السلام في قلوب بني إسرائيل. ثم أبشر بالفوز بتأييده سبحانه ﴿ ٱلْأَيْدِ ﴾ ليجعل لك قوة عظيمة في الملك وغيره أعظم من قوة ﴿ دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ﴾، فاصبر على أذاهم.

١- رواه البخاري (١٣١١).

٢- رواه مسلم (٧٤٨).

المحور الرابع: الصبر على التراجع عن الخطأ وعاقبته

لقد تسوّر خصمان ليلاً على نبي الله داود عليه السلام وهو في صلاته دون إذنه ففاجأه، وأخبراه بأن بينهما خصومة، فاستمع داود عليه السلام لهما بصبر. ادعى أحدهما أن له نعجة واحدة ولأخيه تسعاً وتسعين نعجة قائلاً: عرض علي أخي أن يكفيني مشقة رعي نعجتي الوحيدة ليجعلها في كفالته بين نعاجه، وأنني متى ما طلبتها منه فإنها ستكون بين يدي. سُرِرْتُ بذلك فجعلتها في كفالته، فلمّا طلبتها منه أبى أن يردها علي، وزعم أنه لا دليل يدل على أن لي نعجة في كفالته، ثم هي في قبضته ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ فغلبني. أما الخصم فلم ينف كلام المُدّعي ولم يكذِّبه بل التزم الصمت. فقضى داود عليه السلام بالنعجة للمدعي دون أن يطلب سماع كلام الخصم، حينئذ تبادل الخصمان الابتسامة.

علم داود عليه السلام حينئذٍ أن هذين ملكان، وأنه أخطأ في سرعة القضاء لأحدهما دون أن يستمع للخصم الآخر مع عدم وجود بينة للمدعي، وقد كان هذا دأبه إذا رأى الخصم صامتاً إزاء صحيفة الاتهام. فتراجع نبي الله داود عليه السلام عن هذا القضاء لساعته، وصبّر نفسه على الاعتراف بخطئه في القضاء دون أي تردد ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾، فأكرمه الله تعالى بخلافة الأرض. وهذا النوع الثاني من الصبر وهو الصبر على التراجع عن الخطأ.

لقد التزم نبينا محمد ﷺ بهذه القاعدة في القضاء. إذ أتاه أحد الصحابة يشكو إليه يهودياً غصبه بئره، والبئر في قبضة اليهودي، فطالب النبي ﷺ الصحابي بالبينة ولم تكن له بينة، فأخبره بأنه سيجعل اليهودي يحلف. فقال الصحابي: «إنه يهودي»، أي يحلف على الكذب. فلم يحكم النبي ﷺ للصحابي وإنما قال: «من اقتطع شبراً من الأرض ظلماً طوقه الله إياه يوم القيامة من سبع أرضين».[1]

١- رواه مسلم (١٦١٠).

تعليق: إذا وجب وجود القاضي ليعرّف أصحاب الحقوق بحقوقهم ويحكم لهم به ولا يتركهم يظلم بعضهم بعضاً ولو في نعجة، فكيف يجوز أن يترك الله تعالى الخلق دون أن يعرّفهم بواجباتهم وعلى رأسها توحيده؟ ودون أن يعرّفهم بحقوقه وحقوقهم؟ ويقتص للمظلوم من الظالم ويفرّق بين المحسن والمفسد؟ ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ﴾، ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾. فأنزل الله سبحانه كتابه المملوء بالفوائد والخيرات المرصع بالتحف والجواهر ﴿ مُبَٰرَكٌ ﴾ ليعرفوا حِكَمَه، ويعرفوا حقوق مولاهم وحقوقهم وواجباتهم ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

المحور الخامس: الصبر على بذل المحاب لوجه الله

من أرفع أنواع الصبر التخلي عن المحاب والجود بألصق الأموال بالقلب لوجه الله تعالى. نبي الله سليمان عليه السلام شديد الحب للخيول، لا سيما الخيول العربية الخالصة التي لا تعتمد على الأرض بجميع قوائمها لاختيالها، وتكاد تطير لِلَطافَتها وهمتها ورشاقتها وقوتها وخفتها، ثم تجود بجريها بأعظم ما تقدر عليه ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾. لمّا انشغل بها سليمان عليه السلام عن صلاة العصر - نسياناً - إلى أن غابت الشمس وتوارت بحجابها جاد بها لله تعالى، فنحرها وضرب أعناقها وسيقانها بسيفه أمام الشهود تقرباً إلى الله تعالى ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝٣١ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝٣٢ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾.

ذلك بالرغم من ابتلائنا له لمّا أراد أن يجود بأبنائه – فلذة كبده - لله تعالى فقال: «لأطوفن الليلة على تسعين امرأة، كل تلد غلاماً يقاتل في سبيل الله».[1] ولكنه لم يقل إن شاء الله، فقدّرنا أن لا يولد له على فراشه وسريره إلاّ نصف غلام لنرى صبره، فلما رأى ذلك استغفر الله تعالى من كل ما سبق، ودعاه قائلاً ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٣٥ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾، فأكرمه الله تعالى بأضعاف مضاعفة عمّا تقرب به إلينا من الصافنات الجياد، وعمّا أراد أن يتقرب به من أبنائه إلينا، لقد كان جواداً. فمن ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، وهذا النوع الثالث من الصبر.

وفيه إشارة إلى النبي ﷺ لتصبير النفس على ترك أحب البلاد إلى الله تعالى وإلى قلب النبي ﷺ وهي مكة إذا لم يستجب أهلها، والهجرة إلى بلد آخر للدعوة إلى الله

١- رواه البخاري (٦٧٢٠).

تعالى، وكذا بذل المهج والنفوس للجهاد في سبيل الله تعالى، وبذل الغالي والنفيس من الأموال وغيرها من أجل الدعوة إلى الله تعالى، وهكذا فعل رسول الله ﷺ.

المحور السادس: إطالة مدة الصبر

لما أصيب نبي الله أيوب عليه السلام بالمرض «ثماني عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد». [1] صبر محتسباً ولم يجزع، ودعا الله تعالى بعدها ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴾، فشفاه الله تعالى، بل ازداد نشاطه أعظم من حاله السابق ﴿ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ ﴾، وازداد طهارة وبركة وتنعماً ورفاهية ﴿ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴾. واجتمع حوله أهله وآله، وتضاعف عددهم، وكذا محبوه ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ ﴾. فمننا عليه بزوجة صدق، ووهبنا له من أقاربه من يدافع عنه، وجعلنا له بطانة صدق، فضربنا بصبره المثل في هذا القرآن ﴿ وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾.

وكان قد أقسم يميناً أن يضرب زوجته عدة ضربات إذا شفاه الله تعالى لما بدا منها في حقه حال مرضه، فوضعنا عنه من الإصر الذي كان عليه بيمينه، فخففنا عنه الأحكام ويسرنا له أموره لصبره ﴿ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ ﴾، فأوحينا إليه أن اجمع مجموعة من جريد النخل بعدد الضربات التي حلفت عليها واضربها مرة واحدة. فجعلنا له ذكراً عظيماً كما جاء في أول السورة ﴿ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴾ لطول مدة صبره، وهذا النوع الرابع من الصبر.

١- رواه ابن جرير وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧).

المحور السابع: نخبة من الصابرين

ولكم في نخبة من الرسل والأنبياء والأشراف أسوة في الصبر. منهم إبراهيم ﷺ الذي كان أمة وحده، فصبر على دعوة التوحيد، ثم عند إلقائه في النار، ثم في هجرته إلى الله، ثم الإقدام على ذبح وحيده، فكان مُقدّماً في الذكر. وكذا لكم أسوة في الصبر بإسحاق، ثم يعقوب الذي صبر على فقد ابنه سنين حتى أصيب بالكفاف في بصره لا في بصيرته فإنهم ﴿ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾، فكان صبرهم عن قوة وبصيرة. فقد كان هذا النوع من الصبر مصاحباً لهما، إذ تميزوا بقوة في العبادة والقيام بأعباء النبوة والدعوة إلى الله تعالى والعمل، وبصيرة في الدين والعلم بأمر الله تعالى.(1)

وكذا إسماعيل الذي كان حليماً فصبّر نفسه على قبول حكم الله في نفسه وهو ذبحه من قبل أبيه إبراهيم ﷺ، فكان مقدماً في الذكر على مجموعته التي ذُكِرَ فيها ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾. وكذا اليسع ذو سعة القلب ورحابة الصدر، فكان صابراً إلى أن اجتمع عليه بنو إسرائيل فعظّموه وأطاعوه. وذو الكفل الذي تكفل بعهده وميثاقه، فتكفل بحفظ التوراة وصبر على ما لاقاه لذلك، ثم صبر على صوم النهار وقيام الليل وكظم الغيظ وعدم الغضب ﴿ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾. فجعل الله لهم ذكراً عالياً خالداً بصبرهم، وجعل في صبرهم ذكرى لمن يأتي بعدهم كما ورد في أول السورة ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ذِي ٱلذِّكْرِ ﴾.

١- انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٩/ ١٧٠).

المحور الثامن: العاقبة الأخروية للصبر

ما سبق من الذكر هو الذكر الدنيوي للصابر ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ﴾، وأما الذكر الأخروي فإن ﴿لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴾، لا جهد ولا نصب في دخولها بعد صبرهم، فأبوابها مفتحة لهم، ولهم غاية الترحيب والنعيم. ثم لها أبواب عدة يدخلون منها، قال رسول الله ﷺ: «في الجنة ثمانية أبواب». [1] وقال: «من أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنة: يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الريان، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة». [2] لا كلفة في الدخول ولا في البحث عن المدخل، بل قد يدعى أحدهم من جميع أبوابها، قال أبو بكر رضي الله عنه للنبي ﷺ: «هل يُدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال نعم. وأرجو أن تكون منهم». [3] ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا ﴾ ينظرون إلى الله تعالى وقد أحلّ عليهم رضوانه وتنعموا بسائر النعم ﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾، هذا هو الشرف الذي يتنافس عليه.

أما من لم يستجب لدعوة التوحيد ولم يصبر عليها واستهزأ بها فله أسوأ الأحوال، فراشه جمر جهنم، وأمّا مهاده فهو أشد من ذلك ﴿ فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾. وشرابه أقبح أنواع الشراب، غسالة بطون أهل النار، قد اسود بلون الغسق ﴿ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾. قد اشتد زحامهم عند دفعهم وقذفهم من أبوابها، يقولون في أنفسهم عن الفوج المزاحم ﴿ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ﴾ فسمعوهم فردوا عليهم ﴿ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ﴾،

١- رواه البخاري (٣٢٥٧) ومسلم (١١٥٢).

٢- رواه البخاري (١٨٩٧) ومسلم (١٠٢٧).

٣- رواه البخاري (١٨٩٧) ومسلم (١٠٢٧).

كل منهم يذكر خليله بأسوأ أنواع الذكر، سب وشتم ولعن ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴾، فهم في شقاق دائم ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾. هذه هي العزة المزعومة والشقاق المذكور في أول السورة ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾.

ومما يزيد من الحسرة أنهم لم يروا من ازدروهم وسخروا منهم في الدنيا وتعالوا عليهم ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴾، فأولئك في الدرجات العلى لا تصل إليهم الأبصار. فتبين حينئذ من هو أولى بالعزة ومن هو أولى بالسخرية والإهانة، فليتجرعوا مرارة ذلك وليصبروا حينئذ.

المحور التاسع: أمر عظيم يستحق الصبر

إفراد الله بالعبادة والمحبة والتعظيم أمر يستحق الصبر عليه من جميع الأوجه، فمن أجله خلق الخلق، وبه قامت السماوات والأرض، ثم أنتم في إعراض عنه؟ فهو ﴿ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾.

دعوة التوحيد وإفراد الله بالعبادة قوّمت خط سير البشرية، وحولته إلى مساره الصحيح، وأثرت في مستقبل البشرية في جميع الأعصار والأقطار. لقد أنشأ الله بها القيم، وأرسى بها القواعد والنظم في هذه الأرض وفي أجيال البشرية جميعها. فهي دعوة تحفظ وجه الأرض وقوانينها ونظامها، فمن لم يستجب لها فإنه لا يستحق أن يسكنها ولا يتمتع بزينتها وطيباتها.

فمن أجل هذه الدعوة يوالي المرء ويعادي. كيف لا وقد تحول خط سير إبليس لمّا خالف دعوة التوحيد، إذ طرده الله من السماء وعاداه لما تكبّر على عبوديته لله تعالى وعلى الأوامر الإلهية ولم يخضع لها، وما كان للنبي ﷺ من علم بذلك لولا تعليم الله إياه. وكذا ما كان النبي ﷺ حاضراً لما دار في الملأ الأعلى من اختبار الله لهم في عبوديتهم له تعالى منذ بدء خلق آدم، ولا ما أورده الملائكة من تساؤلات لما أخبرهم الله تعالى، ولا كان حاضراً لما أورده إبليس من اعتراضات لمّا أظهر الله تعالى كرامة آدم عليه السلام، إنما أخبره الله تعالى به ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾. حيث أمر الله سبحانه الملائكة في الملأ الأعلى بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس استكبر، فحدث من الخصام ما لم تعلمه لولا أن علّمك الله إياه.

وفيه إشارة إلى أن الله تعالى سيذكرك في الملأ الأعلى كما ذكر آدم عليه السلام بل أعظم من ذلك إذا صبرت على هذه الدعوة بشتى أنواع الصبر، فأنت سيد البشر. وكذا من تابعك وسار على نهجك وطريقك في التوحيد سيكون له نصيب من هذا الذكر العالي

وذاك الاختصام الجميل.

ومناسبة أخرى لذكر قصة آدم عليه السلام أنه كما فضل الله تعالى آدم بخلقه بيديه الكريمتين ورفع قدره بذلك فإن الله تعالى سيفضلك ويرفع قدرك على جميع البشر إذا التزمت بجميع أنواع الصبر المذكورة في الدعوة إلى الله تعالى. وربما هذا من الحِكَم في تخصيص هذه السورة بذكر خلق آدم بيديه الكريمتين. وكذا من لوازم صفة اليدين القوة والكرم والقربى والحب والتمام والكمال والنصرة والمواساة التي ستنالها من الله تعالى إذا التزمت بالصبر.

المحور العاشر: صبر السيادة

من اجتمعت فيه أنواع الصبر المذكورة فإن الله تعالى سيرفعه إلى مرتبة السيادة في الدنيا، وهذا يقتضي صبراً خاصاً وهو من أرفع أنواع الصبر كما قال أحدهم: ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر. إذ السيادة غالباً ما يلازمها شعور في النفس البشرية بالفخر، والظلم والطغيان، والحسد ومعاداة ذوي النعمة، واستعمال القياسات الفاسدة المنابذة للشرع كما قال تعالى ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ إلا من أكرمه الله تعالى فهداه.

فالسيادة تقتضي الصبر على الالتزام بالأوامر الإلهية، والتواضع للمخلوقين، وعدم التكلف لمراءاة الخلق، وكذا تقتضي الصبر على تغليب الشرع على حظوظ النفس وإلا فإن السيادة ستسلب منه.

إن أنسب مثل لمن طغى في سيادته قصة إبليس مع آدم عليه السلام. لما أكرم الله تعالى إبليس وجعله في مرتبة عالية بأن جعله في صفوف الملائكة أمرهم الله تعالى أن إذا خلقت آدم بيدي وفضلته و﴿ سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾. فلم يصبر إبليس على الالتزام بالأوامر الإلهية، بل تعالى عليها، وحسد آدم عليه السلام لما رأى من تفضيل الله له، وطغى وتكبر وقاس قياساً فاسداً وقال ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾، فأنت خلقتني من أصل أفضل من أصل آدم عليه السلام، إذ أكرمتني وخلقتني من نار، والنار أفضل من الطين، فطرده الله تعالى ولعنه وأخرجه من رتبة السيادة. **فاحذروا أن تقعوا فيما وقع فيه إبليس لعنه الله، واصبروا على الالتزام بالأوامر الإلهية.**

وهنا مناسبة رابعة لذكر قصة آدم في سورة الصبر حيث خلقه الله تعالى من طين، والطين أقرب إلى التأني والحلم والصبر والتواضع من وهج النار الطائش الذي منه خلق الجن.

إنّ تكبر إبليس وفخره بنفسه وازدراءه لآدم هو أصل فخر قريش بأنفسهم وازدرائهم للنبي ﷺ لمّا قالوا ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾. فناسبت قصة إبليس الواردة في آخر السورة مع قول الكفار الوارد في أول السورة، وهذه مناسبة خامسة لذكر قصة آدم.

المحور الحادي عشر: الصبر عن التكلف

وكذا من ساد فليصبِّر نفسه على ترك التكلف في جميع أموره حتى في التواضع، وليتجنب التنطع في العبادات والمراءاة في الزهد في العيش الدنيوي لكسب قلوب الخلق. فمن ساد فليصبر لله، ولْيسعَ في مرضاته، ولا يطلب الأجر من الخلق سواء أجر المكانة أو المنصب أو الأجر المادي، إذ غالباً ما يسعى أهل السيادة إلى العمل لإرضاء الأتباع لتدوم سيادتهم ولو كان بسخط الله تعالى. وإنما عليه أن يسأل أجره من الله تعالى ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾، فهذا النوع السادس من الصبر.

المحور الثاني عشر: صبر الله تعالى

إنّ أمثل مثال للصبر هو صبر الله تعالى على إبليس الذي ﴿ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فأمهله الله تعالى إلى يوم القيامة ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾. فلم يوقر الله تعالى فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. وبالرغم من ذلك صبر الله عليه مع قدرته على أن يهلكه ويذيقه أسوأ أنواع العذاب بكلمة واحدة، فلله المثل الأعلى.

المحور الثالث عشر: الخاتمة

لقد أوضح الله تعالى في هذا القرآن الطريق لتحقيق جميع المصالح التي تقوم بها أمور العباد، وبيّن سبيل الحفاظ عليها والارتقاء ونيل الإمامة فيها. والتي على رأسها توحيد الله تعالى بالعبادة، فبه يذكرون في الدنيا والآخرة ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾. ومن أهم القواعد لنيل الإمامة فيه هو الصبر عليه ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾، كالصبر على المصائب المتعلقة بالالتزام والتمسك به، والصبر على التراجع عن الخطأ، والصبر على بذل المحاب لأجله، ولو طالت مدته، ثم الصبر على السيادة بعد نوالها، والصبر عن التكلف. وقد ضربت فيه الأمثال لكل نوع من أنواع الصبر ليكون ذكرى للعالمين ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾. وسترى عاقبة التمسك بأنواع الصبر بعد حين ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾. فتطابقت آخرها ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ مع أولها ﴿ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴾.

ولله الحمد والمنة أولاً وآخراً والله أعلم.

سورة الزمر

مقصد السورة

المحبة الخالصة لله تعالى: علاماتها وصورها ولوازمها ومحظوراتها.

الأدلة على مقصدها

١- المناسبة بين استهلالها وخاتمتها

استهلت السورة بالأمر بإخلاص المحبة لله تعالى وإخلاص العبادة له ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾. وانتهت بثواب المخلصين وأنفاسهم تلهج بالإخلاص والتسبيح والحمد، وكذا ألسنتهم ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ۝٧٤ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

٢- تكرار كلمة العبادة وتصاريفها

العبادة هي كمال الحب مع كمال الذل لله تعالى. لذا تكررت في هذه السورة كلمة العبادة وتصاريفها، من ذلك قول الله تعالى ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ﴾، ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾، ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ﴾، ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ﴾، ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾، ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾، ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾، ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ﴾، ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ﴾.

٣- تكرار لفظ الإخلاص والصدق ومرادفهما في العبادة

وتكرر في هذه السورة ذكر الأوصاف التي هي من لوازم المحبة كلفظ الإخلاص والصدق والإنابة وغيرها من الألفاظ والأساليب. من ذلك قوله تعالى: ﴿ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾، ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾، ﴿ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴾، ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴾. ومنها الإنابة كما في قول الله تعالى ﴿ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ ﴿ وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ ﴾ ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ ﴾. ومنها الاستسلام لله تعالى ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾، ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾. ومنها القنوت وهو دوام الطاعة ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا ﴾، ولفظ الصدق ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾. ومنها أسلوب القصر بتقديم لفظ الجلالة: ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ ﴾، ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴾ .كلها تدل على الصدق والإخلاص في محبة الله تعالى وعبادته.

٤- التحذير من عدم الإخلاص في العبادة

ورد فيها التشنيع على ما يضاد الإخلاص في محبة الله تعالى وعبادته مما يقتضي التحذير منه وبيان شناعته. من ذلك عبادة غيره والشرك به كما في قوله تعالى في أول السورة: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا ﴾، ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾، ﴿ رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾، وفي آخرها ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾.

ومنها الكذب في ادعاء المحبة كما في قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾، ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ ﴾، ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ ﴾.

٥- ما تميزت به السورة

أ- ورد في السورة لفظ ﴿ عِبَادِ ﴾ في مواضع، وورد فيها لفظ ﴿ عِبَادِىَ ﴾ في مواضع أخرى، لما في ذلك من إشارات بلاغية جميلة. ففي مواضع ذكر المؤمنين والمحسنين جاء لفظ ﴿ عِبَادِ ﴾ كما قال الله تعالى ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ﴾ وفي قوله تعالى ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾. ذلك لشدة قربهم من الله تعالى، فتكفيهم الإشارة في معرفة ما يحبه الله ويرضاه ليسارعوا فيه، ومعرفة ما يبغضه الله تعالى ليكونوا أبعد الخلق عنه. ولأنهم معروفون بأنهم أهل الله تعالى وخاصته، إذا ما رآهم الخلق تذكروا الله تعالى. فأحوالهم دون أن يتلفظوا تذكر بالله، وهيأتهم مصبوغة بالعبودية، ومجالسهم تلهج بذكره، فيعرفهم الناس أنهم أهل الله تعالى بالإشارة والعلامة والسيما، فلا يفتقرون إلى التصريح بأنهم أهل الله وخاصته.

أما في مواضع ذكر المذنبين والمسرفين على أنفسهم بالمعاصي جاء لفظ ﴿ عِبَادِىَ ﴾ كما قال الله تعالى ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ ذلك لتلطخهم بالذنوب وإسرافهم، فيحتاجون إلى مزيد من التأكيد لهم على استمرار الانتساب إلى جلاله، وأنهم ما زالوا قريبين من جلاله، وأنهم معروفون عنده، فأكد بإثبات ياء ﴿ عِبَادِىَ ﴾. بينما النداء بلفظ ﴿ يَٰعِبَادِ ﴾ لا يفهم منه المذنب أنه قريب من جلاله، بل قد يظن أن المخاطب نكرة، فهو إذاً نكرة، لأن المقيم على المعصية يشعر دائماً بوحشة في قلبه وظلمة، بعكس المحسن الذي يفهم من ﴿ يَٰعِبَادِ ﴾ شدة القرب.

فدعاهم إليه ﴿ يَٰعِبَادِىَ ﴾ ليقربهم ويحببهم إلى جلاله،ويدعوهم إلى التوبة من الشرك والمعاصي، فباب التوبة والقبول مفتوح في جميع الأوقات لجميع المراتب ﴿ لَا تَقْنَطُوا۟

مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾، فالمسرف على نفسه الذي يشعر بالذنب يحتاج إلى من يضمه ليخر بين يديه تائباً.

ب- ورد في السورة ذكر أهل الشرك ومصيرهم إلى النار بقوله تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ بحذف الواو ﴿ فُتِحَتْ ﴾، بينما ورد في أهل الجنة أهل الإخلاص ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ بإثبات الواو ﴿ وَفُتِحَتْ ﴾. فميز الله تعالى عباده المخلصين من أهل الجنة في الألفاظ عن أهل الشرك بإشارة بليغة وذلك بإثبات الواو. ذلك أن أهل الشرك إذا سيق بهم إلى النار وهي مغلقة الأبواب وقد سمعوا من وراء أبوابها العظيمة الموصدة أصوات مهولة تخرج من جوفها تصك الآذان كأنما يحطم بعضها بعضاً نتيجة تغيظها في زفيرها وشهيقها،مما يزيد رعب المنتظر ويزيد من خوفه، فتفتح الأبواب فجأة في وجوههم بلا مقدمة فيتقاذف في وجوههم شررها ولهيبها وحممها. فحذفت الواو ﴿ فُتِحَتْ ﴾ لبيان حالهم قبل فتحها وبيان المفاجأة عند فتح أبوابها وما يليه من أهوال. ولما كانوا قد أغلقوا قلوبهم عن هذه الدعوة المباركة، أتوا النار وقد أغلقت أبوابها ليفاجأوا بنيرانها ولهيبها.

بينما أهل الجنة، فإن أبوابها تفتح وتهيأ قبل وصولهم ضيافة لهم، والملائكة في انتظارهم في طرقاتها وعلى أبوابها، مرحبين بهم مهنئين لهم، قد فرشت طرقاتها بما يناسب الضيافة الإلهية، ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ أي وقد فتحت أبوابها قبل وصولهم، كرامة لعباد الله. كما استقبلوا دعوة التوحيد والإخلاص بقلوب مفتوحة مرحبة بها فكذا جازاهم الله تعالى من جنس عملهم.

٦- الآيات الأخيرة في السورة التي قبلها

انتهت سورة صٓ التي سبقت سورة الزمر بما ورد فيها من قول إبليس لله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ مبينة أن أهل الإخلاص

في محبة الله تعالى وعبادته هم أهل الله وخاصته، وهم الذين سيحفظهم الله تعالى من إغواء الشياطين.

ثم أردفت بأمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بأن يؤكد الإخلاص حال دعوته بقوله ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ وإنما أرجو وجه الله تعالى. حينئذ ينبغي معرفة علامات الإخلاص في المحبة وصوره ولوازمه ومحظوراته، فتلتها سورة الزمر لبيان المطلوب.

محاور سورة الزمر

المحور الأول: براعة الاستهلال في إخلاص المحبة لله تعالى.

المحور الثاني: الله تعالى يحكم ولا يحكم عليه.

المحور الثالث: الله الواحد لا ولد له ولا شريك.

المحور الرابع: لوازم المحبة الخالصة، صورها وعلاماتها.

المحور الخامس: خوارم المحبة الخالصة.

المحور السادس: عقوبة عدم الإخلاص في المحبة.

المحور السابع: ثواب المحبة الخالصة.

المحور الثامن: الخاتمة.

محاورها

المحور الأول: براعة الاستهلال

لقد أنزلنا إليك الكتاب على مراحل ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ للإشارة إلى تكرار نزوله، ولم يقل سبحانه (إنزال) التي لا تدل على التكرار. فلم ينزل جملة واحدة، وإنما تكرر نزول الوحي على قلبك لتوطيد العلاقة مع الله تعالى، ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾. فتزداد المحبة، ويزداد الإخلاص اعتقاداً وعملاً ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾. أين هذه المحبة الخالصة من محبة المشركين الكاذبة؟ إذ يتذرع المشركون كاذبين بزعمهم أن اتخاذهم للشركاء وزعمهم الولد لله تعالى وعبادتهم إياهم ببذل الحب التام والذل التام لهم ما هو إلا وسيلة للتقرب إلى الله تعالى تفرضها الضرورة، فهم وسطاء بينهم وبين الله تعالى ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، كذا زعموا وسيحكم الله حكمه الحق في زعمهم الكاذب.

المحور الثاني: الله تعالى يَحكم ولا يُحكم عليه

لو أراد الله أن يتخذ ولداً شريكاً له ليكون واسطة لهم -كما زعموا- لكان هو الذي يختاره ويصطفيه، لا كحالكم ليس لكم خيار في تعيين المولود وتعيين صفاته وأخلاقه، وكذا الحال لو أراد أن يتخذ الشريك الذي ليس بالولد. فإن كان هو الذي يختار لكم أولادكم ويحدد أوصافهم الدقيقة وأخلاقهم - وهذا الأمر مما يعجز عنه البشر لأنفسهم - فمن باب أولى أن يكون هو الذي يختار الشريك لنفسه، ومن باب أولى أن يكون هو الذي يصطفيه لنفسه، فالأمر لا يرجع إليكم في تعيينه ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾. فليسوا هم الذين يختارون له سبحانه، فالله جل جلاله لا يُجبر ولا يُقهر على اختيارهم، بل هو ﴿ ٱلْوَٰحِدُ ﴾ لا شريك له ولا ولد ولا واسطة بينه وبين خلقه، وهو ﴿ ٱلْقَهَّارُ ﴾ الذي يقهر عباده على ما يريد ولا يُقهر، هذا أولاً.

كيف وهو الذي له كمال القوة والقهر، إذ خلق نظاماً كونياً عظيماً بديعاً، ولم يستشر فيه أحداً لكمال علمه وحكمته وقهره. يسيّر هذا النظام على قوانين منتظمة ثابتة ضابطة متكاملة تدل على وحدانيته، وهذا النظام الكوني لا يحيد عن تلك القوانين قيد أنملة، فهو مؤتمر بأمر الله تعالى ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ ﴾ الآية. فهو الذي يقهر الليل على النهار، ويقهر النهار على الليل، فكيف يُقهر على اختيارهم الولد له سبحانه؟ هذا ثانياً.

وخلق فيه الإنسان وهو آدم ولم يخيره في وجوده، وتجري عليه تلك القوانين الموحدة، ثم خلق له زوجه حواء بلا اختيار ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾، وأنزل له ثمانية أصناف من الأنعام وسخرها له ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾، ولم يكن للإنسان فيها يد ولا قدرة، وإنما لكمال علمه وكمال حكمته وكمال تفرده بالقهر ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾، هذا ثالثاً.

وكذا فيما يتعلق بالولد. فالذي قضى بخلق الولد لآدم وزوجه هو الله تعالى، والذي يتصرف في الولد ويحكم في وجوده وعدمه وفي صفاته هو الله تعالى، بل ويحكم بيئته في جميع مراحل تطوره الجنيني إلى أن يولد بالصورة التي يقدرها الله تعالى، هذا رابعاً.

فالله هو الذي يحكم في جميع شئونكم، ثم تتعدون أنتم طوركم ومقامكم فتحكمون على الله؟ وتحكمون له بالولد؟ ثم أنتم الذين تختارونه له؟! ثم تعبدونه ليكون لكم زلفى إلى الله تعالى دون إذن من الله؟! فلا إله إلا الله، كيف انصرفت عقولكم؟! ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾.

المحور الثالث: الله الواحد لا ولد له ولا شريك

أنتم الذين تحتاجون إلى الزوجة وليس الله تعالى، فخلق لكم الزوجة ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾. وحال ذكور الأنعام كحالكم تحتاج إلى الإناث فخلقها لها،فهي من حاجات المخلوق لنقصه وفقره.

ومن نقص المخلوق وفقره احتياجه للولد فخلق له الولد،والله تعالى غني عن المخلوقات، ومنزه عن الفقر والاحتياج والنقص.

كل ذات لها نظير، فالسماوات تقابلها الأرض، والليل يقابله النهار، والشمس يقابلها القمر، والذكر تقابله الأنثى ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾. بينما الله سبحانه واحد لا نظير له ولا مثل ولا كفء،ولا فرع ولد، له تمام الملك والعزة والغنى والسؤدد والإنعام،لذا لا يستحق العبادة إلا هو ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾. ولكنهم قابلوه بالجحود والكفر، فالموعد يوم القيامة.

لقد أنعم الله على الإنسان بأن خلقه، وعلم حاجته إلى الزوجة والولد، فأتمها له بخلق زوجه لتتم سعادته بها، وكذا خلق الأنعام الأربعة بأزواجها للتجمل والطعام والركوب، وأتم لكم الحياة الزوجية بالتناسل. ثم تمم السعادة لكم فعرفكم طريق محبته للفوز بقربه، فجعل جميع ما سبق آيات يتوصل بها إلى عبادة الله تعالى وحده وإلى إخلاص المحبة له والتي هي غاية سعادة القلب.

فالإخلاص في محبته سبحانه وعبادته هو الزلفى والوسيلة للوصول إلى الله تعالى، لا اتخاذ الشريك وادعاء الزوجة والولد لله تعالى وعبادتهم ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ

ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾. واعلموا بأن رحمتي واسعة، «وأن رحمتي غلبت غضبي» [1] ، فإن رجعتم إليّ قبل يوم القيامة غفرت لكم ما سلف منكم ﴿ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾.

مما يدل على كذبهم في ادعائهم أنه لا بد من وجود الواسطة والشريك الشفيع أنهم إذا مس أحدهم الضر لجأ إلى الله تعالى وحده فأكرمه بنعمته، ورفع عنه ما يشتكي، وأسعده بذلك. ولكن العبد بعدها ينسى ربه فيشرك بالله تعالى ويقبل على آلهته ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾، فنفس الإنسان موقنة بوحدانية الله تعالى، ولكنها تجحد ذلك.

أيها المؤمن أقبل على الله تعالى مخلصاً له بالمحبة والعبودية، لا سيما حال الخلوة وغفلة الناس، واقترب منه بالسجود، وتضرع إليه مفضياً بحبك وولهك له راهباً راغباً، وليكن هذا دأبك دائماً ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾. وإليك البيان لتعرف كيف تتقرب إلى الله زلفى.

١- رواه البخاري (٣١٩٤).

المحور الرابع: لوازم المحبة الخالصة، صورها وعلاماتها

للمحبة الخالصة لوازم وعلامات تدل على صدق محبة العبد لله تعالى. من علامات صدق محبة الله تعالى والإخلاص له انشغال القلب واللسان والجوارح بذكره في جميع الأوقات، لا سيما في الليل حيث يهيج وجد القلب لذكر الحبيب وينفرد فيه المحب بحبيبه. فترى المخلص قائماً عند باب رحمة الله متهجداً، سائلاً راجياً ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾.

ومن علامات صدق المحبة أنه لا يرضى أن يقف عند حدٍّ في التعرف على الحبيب ومعرفة ما يحبه، بل دائماً يطلب الاستزادة في معرفة وتعلم كل ما يتعلق بالمحبوب من خلال العلم الشرعي ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. فهو في جميع أحواله تجده مستمراً في طلب العلم الشرعي، مع المحبرة إلى المقبرة.وكلما تعرف عليه ازداد هيبة منه، لذا من علامات صدق المحبة الفرار إليه متقياً غضبه وهيبة له ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ﴾،لا سيما حين يلقي بجسده وقلبه وروحه على عتبة بابه ساجداً وقائماً قيام العبد بين يدي سيده.

﴿ يَٰعِبَادِ ﴾ بحذف ياء (عبادي) والإبقاء على إشارة الخفض ﴿ عِبَادِ ﴾، أما حذف الياء فهي للدلالة على شدة قربهم والتصاقهم بجنابه، فلا يوجد عائق ولا حاجز يبعدهم عنه، ثم لشدة حبهم لله تعالى وتعلقهم به ونظرهم إلى ما يحبه ويرضاه تجدهم تكفيهم الإشارة عند النداء، فاكتفى لهم بإشارة الخفض بدلاً من الياء. وكذلك تدل إشارة الخفض بدلاً من الياء على خضوعهم عند عتبة بابه وقد التصقوا بها.

وهذا يرقيهم إلى درجة الإخلاص التي تعلوها وهي المسارعة إلى كل ما يحبه ويرضاه من واجبات ومندوبات، واجتناب كل ما يبغضه ويكرهه من المحرمات والمكروهات وهي درجة الإحسان ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾. وهذه تقود إلى المرتبة

التي تليها وتعلوها في الإخلاص.من صورها وعلاماتهاالهجرة إليه. فيهجر الأرض التي استشرت فيها المعاصي وعم فيها الفجور إلى الأرض التي تكثر فيها الطاعة وعبادة الله وحده،والصبر عليها وعلى أقدار الله تعالى فيها ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وتلك تقود إلى مرتبة أعلى في صدق محبتي لله تعالى، تلك المرتبة التي تنبئ فيها أحوالي وهيأتي أن محبة الله تعالى قد ملكت رق قلبي، فقلبي وروحي وأعضائي وأحشائي هي التي تأمرني سجية بإخلاص المحبة لله تعالى كما تأمرني آياته ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾،لأرتقي إلى المرتبة التي تعلوها.

من علامات هذه المرتبة الجديدة الحرص على الفوز بالمراتب الأولى في صحيفة المحبة والإخلاص، والمسابقة إليها ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. ومنها الخوف من إعراض الله عني ساعة أو لحظة وإلا تعذب القلب حينئذ - لإعراضه عني- وتبعه عذاب الجوارح، لا سيما يوم القيامة ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. فلا أحب إلا إياه ولو لم يأمرني، حبه قد ملأ علي حياتي ودنياي وآخرتي، فلا أشعر بالوحشة ولو لم يصحبني أحد من الخلق، ولو فارقت جميع الخلق ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾. فمن لم يخلص في محبته لله تعالى فقد خسر أعظم خسارة في الدارين، لا سيما يوم القيامة حيث يخسر جميع أصحابه وخلانه بل يخسر أهله وأقرب الناس إليه، بل يخسر نفسه حين يحتجب الله عنه ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، فيهوي في النار، فيعلق بكلاليبها في منتصفها، ويعلق بسلاسلها، حينئذٍ يظلل بظلل من النار من فوقه، وظلل من النار من تحته حيث الهاوية. فتزداد الحجب بينه وبين الله تعالى لأنه أحاط نفسه في دنياه وظللها بمحبة غير الله تعالى وتشبع بهم فاحتجب عنه فجوزي بذلك يوم القيامة ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾.

ومن علامات صدق المحبة لتلك الدرجات العلى أن المخلص لله تعالى لديه حاسة إضافية تجاه الشرك وذرائعه، فتجده بعيداً عنه، بينه وبينه مفاوز، حذراً منه، مجتنباً كل ذريعة ووسيلة تؤدي إليه ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾. ومنها أن أذني وقلبي مقبلان بكُلِّيتهما لسماع كلامه والاستجابة له للوصول إلى الدرجةِ الفضلى التي يحبها ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾.

ومنها أن لساني أقومه بكمال الأدب مع جلاله، من ذلك أن لا أتقدم إليه بالشفاعة لمن أشرك به،بل أُبغِضُ من أَبْغَضَهُ الله تعالى ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾، فلا أحب إلا من يحبه الله تعالى ولا أبغض إلا من يبغضه الله تعالى،ولا أسمع إلا ما يحبه الله تعالى، ولا أرى إلا ما يحبه،قال الله تعالى في الحديث القدسي «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحببته فكنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته». [١]

وذلك هو المرتقى الذي يرتقي بصاحِبه إلى المقام الأعلى في الغرف ﴿ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾، فالغرفة هي البناء العالي. لذا أرطب لساني وقلبي بذكره دوماً ليتجدد حبي وتتجدد عبوديتي له، فتزهر رياض حبي بألوانها، مخصبة بأقواتها المختلفة، وإلا أصابها القحط والجدب بالغفلة عن ذكره، وتهشمت أفنان القلب فأصبحت حطاماً، وأمسى القلب قاسياً ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ﴾.وهذا من الله تعالى، فمن أكرمه الله تعالى بمقام العبودية

١- رواه البخاري (٦٥٠٢).

وأخلصه له أكرمه بالرياض اليانعة من المحبة الإلهية، فإن أعرض العبد عنها سلبه تلك الكرامات. لذا قال سبحانه في هذه السورة ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ﴾ فنسب الجزاء إلى نفسه الكريمة ﴿ يَجْعَلُهُۥ ﴾، بينما في سورة الحديد ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ﴾.

حينئذٍ يرتقي القلب إلى مرتبة أعلى في الإخلاص والمحبة الصادقة. من علاماتها انشراح الصدر واستنارة الوجه وظهور البهجة عند سماع كلامه وعند عبادته ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾، فألتذ بسماع كلامه ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ ﴾، فيسترخي جلدي وقلبي حينئذ ويلينان مستسلمين لحبه، هائمين في وجده بعدما اقشعرا من روعة ذكره ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾.

وقارنه بمن يُدعى إلى كلام الله تعالى وإلى توحيده ويصبّح به فيقبض وجهه ويكفهر عند سماعه، فعوقب يوم القيامة بمواجهة النار له، حينئذ يعمل جاهداً ليتقيها بوجهه بدلاً من يده التي غلت وكبلت بالسلاسل وصفدت. فكيف يكون حاله؟ انظر إلى وجهه مكفهراً حال انقباض عضلاته ليتقي النار، فالجزاء من جنس العمل ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾، أعاذنا الله منها. ذلك لأن أحواله في الدنيا كانت تتقلب ما بين تكذيب ﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾، وخزي ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾، وقلب مضطرب متنازع فيه ﴿ رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ ﴾ فيكره سماع التوحيد.

أما المحب المخلص العابد لله تعالى فقد ارتقى بعدها إلى درجة أعلى في الإخلاص وصدق المحبة. من علاماتها الشعور بالسعادة والراحة بإسلام قلبي إلى محبوب واحد وقد تبعه جسدي، فلا يلتفت إلى غيره. وشقاؤه بتسليمه لمجموعة من المختلفين المتنازعين العسرين المتشاكسين، فهو قلب مضطرب ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ

﴿ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾.

ثم أرتقي إلى درجة أعلى، ومن علاماتها أن يكون القلب دائماً في شوق إلى الله وإلى لقائه، قال ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه». [1]، يحدوني قرب لقائه وقِصَر العمر لتسرح روحي بعد الموت إلى السماء السابعة فتحلّق حول العرش، وتأوي إلى القناديل المعلقة بالعرش، وتأكل من شجر الجنة. وفي أشد الشوق إلى يوم القيامة لأقوم بين يدي جلاله، ملقياً بروحي وجسدي بين يديه، أشكو إليه خصومة الأعداء لما دعوتهم إلى الإخلاص في محبته ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾، فأنا في أشد الشوق إلى ذاك اللقاء كما قال النبي ﷺ لحظة احتضاره: «اللهم الرفيق الأعلى». [2]

لذا تجدني في هذه الدرجة أتلهف لكل ما جاء من الله تعالى، وأتلقاه بالتصديق قولاً وعملاً، فأنشره وأدعو الخلق إليه مستبشراً به، لا أهاب غيره، فهو حسبي ومولاي ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾.

ومن علامات صدق المحبة في هذه الدرجة أني دوماً أملأ المجالس بذكره، وذكر نعمه وجميله وآلائه السابغة علي وبديع صنعه، فأشغلها بالحوار والجدل لدعوة الناس إلى الإخلاص له في المحبة ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ الآية.

١- رواه البخاري (٦٥٠٨).

٢- رواه البخاري (٤٤٦٣).

ومنها أنه وإن أعرض جميع الخلق عن دعوة التوحيد فإني لن أتخلى عنها ولو انفردت سالفتي، فإن حسبي وكفايتي وغناي هو الله وحده ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾. قال ﷺ لما طلب منه الكفار أن يترك دعوة التوحيد: «أترون هذه الشمس؟ فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة». أي من الشمس.[1]

ومنها أن يكون إخلاصي لله هو شرفي ومنصبي ومناي وغايتي وحَسَبي ونسبي ﴿ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ﴾، فإن كان كل منكم مُصراً على أن يعمل للحفاظ على حسبه ونسبه فليعمل وليرتق فيهما، فأنا هذا حسبي ونسبي، سأعمل جاهداً له. فشرف الإنسان ومكانته على قدر إخلاصه في محبة الله تعالى، والجزاء من جنس العمل، فسيجازيه الله تعالى بالإكرام والخيرات السابغة تنهال عليه من فوق العرش. لذا قال الله تعالى بعدها ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾، فقال سبحانه ﴿ عَلَيْكَ ﴾ تشريفاً من جهة العلو، من جهة العرش، ولم يقل (إليك) تكليفاً!! فالانتساب إلى القرآن وإلى عبادة الله تعالى شرف المؤمن.

إذا استبطأ المؤمن الوفاة أو استصعب عليه ذلك مع شدة شوقه إلى الله تعالى فقد زفت البشرى إليه بأنه عند نومه يكون في ضيافة الله تعالى، فإنه سبحانه يتوفى الأرواح. لذا يجد المرء في النوم راحة بالرغم من أنه سبحانه لم يمسكها، فكيف لو أمسكها ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾. لذا كان النبي ﷺ يتوضأ قبل النوم لتكتمل طهارة الروح وكان يقول: «اللهم أنت خلقت نفسي، وأنت تتوفاها،

١- رواه البيهقي في الدلائل (١٨٧/٢) وذكره البخاري في تاريخه (٥١/٧) وحسنه الألباني في الصحيحة (٩٢).

لك مماتها ومحياها» الحديث. [1] وكان يقول عند النوم: «اللهم أسلمت نفسي إليك، وفوضت أمري إليك، ووجهت وجهي إليك، وألجأت ظهري إليك». [2]

وقارنه بآلهتهم، فأين سعادة الروح حين تحلق حول العرش بشقائها حين تحوم حول القبور والأصنام ،وهل تستطيع هذه الآلهة أن تفعل شيئاً من ذلك،من الخلق والوفاة والإماتة والإحياء؟ بل أرواح الأشخاص المعبودين بين يدي الله تعالى يتصرف فيها كيف يشاء وكذا باقي الآلهة،وهو الذي يملكها،فكيف تُعبد وهي لا تملك شيئاً؟ بل ولا تملك نفسها؟ وكيف تشفع ولم يأذن لها الله تعالى بالشفاعة؟ وكيف تشفع وهي لا تملك شيئاً من الشفاعة؟ وكيف تشفع وهي لا تعقل؟ وكيف يطلب منها الشفاعة وهي لا تفهم مخاطبة عابديها؟ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾.

ومن علامات صدق المحبة في هذه الدرجة الاستبشار عند ذكر الله وحده، والتي يقابلها الاشمئزاز عند الكافر ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾. فأين قولهم المزعوم الكاذب أنهم يحبون الله تعالى؟ وأنهم ما يعبدونها إلا لتقربهم إلى الله زلفى؟

ومن علامات محبة الله الصادقة بث الشكوى إلى الله تعالى لا إلى الخلق.بث همومك وأحزانك إلى الله تعالى،لا سيما الهموم الدعوية. وهذه مرتبة عالية من الصديقية ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾. لذا كان النبي ﷺ يبث شكواه إلى الله تعالى حين ينفرد مع الله تعالى

١- رواه مسلم (٢٧١٢).

٢- رواه البخاري (٦٣١٣).

في جوف الليل. فكان ﷺ إذا قام من الليل استفتح الصلاة بقوله: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل،فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون. اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم» [1]

وكذلك هموم المعيشة والرزق، بثها إلى الله تعالى وتذلل له بسؤاله الرزق قليله وكثيره. وتيقّن بأنه لا يبسط الرزق إلا لحكمة، ولا يقدره ويضيقه إلا لحكمة. بل التأمل في بسط الرزق لبعض عباده وتضييقه على بعضهم الآخر وتعاوره في أحوال مختلفة يرى فيه المؤمن آيات عظيمة تبهر القلب ليخر منها ساجداً لعظمة حكمته ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾. وأعظم أنواع الرزق أن ترزق الهداية والإنابة إلى الله تعالى والتوبة والمغفرة والرحمة الإلهية ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾.

بعدما تبين لك الطريق الصحيح للزلفى إلى الله تعالى. احذر الطريق الكاذب للزلفى إلى الله تعالى، وإليك بيانه.

١- رواه مسلم (٧٧٠).

المحور الخامس: خوارم المحبة الخالصة

احذر محظورات المحبة الخالصة وخوارمها، واعلم بأن أعظمها خطراً عدم إفراد الله بالعبادة والمحبة،واتخاذ الشركاء والشفعاء من دون الله تعالى، أولئك الذين لا يملكون شيئاً سواءً الأحياء منهم والأموات والجمادات، بل لا تعقل عبادتهم وسؤالهم واستغاثتهم واستشفاعهم ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾.

بل التوجه إلى الشفعاء والشركاء وطلب الشفاعة والحاجات منهم يؤدي إلى الغفلة عن الله تعالى وعن ترطيب القلب واللسان بذكر الله وحده فضلاً عن الاشتغال به. وينتج عنه الإعراض عن سماع كلامه، وعدم انشراح الصدر واستنارة الوجه وظهور البهجة عند سماعه. بل الاشمئزاز عند ذكره، والاستبشار عند ذكر الشفعاء ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾. فالله تعالى يغار، وغيرة الله تعالى أن يأتي العبد ما حرم الله، وأعظم المحرمات الشرك بالله تعالى فهو أكبر الكبائر. ومن علاماته عدم الاستبشار بذكره وإنما الاستبشار بمن دونه، والله تعالى ليس بغافل عن هذا ولن ينساه، بل يعلم درجة الطرب الذي تعيشه قلوبهم عند ذكر الشركاء، والانقباض الذي يصيبها عند ذكر التوحيد، وسيحكم فيهم جراء ذلك في الدنيا ويوم القيامة ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

فهذا هو الأصل الأكبر الذي يعذب من أجله الكفار يوم القيامة، فليتجرعوا يومئذ مرارة شركهم واستبشارهم بالشركاء ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾، فلا تأس عليهم

لشدة عذابهم ودوامه. هكذا كانوا يتعاملون مع الله تعالى؟ يشمئز أحدهم إذا ما ذكر اسمي؟ ويستبشر إذا ذكر غيري؟ ثم إذا مسه ضر دعانا، فإذا كشفناه عنه أعرض عنا؟ ويدعي أنه كان أهلاً للشفاء وكشف الضر، وأهلاً للنعم؟! ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ﴾، إنه نكّار للجميل.

وبالرغم من ذلك لا يقنط المشرك من توبة الله عليه. لذا من خوارم المحبة الخالصة القنوط من رحمة المحبوب الأعلى، من رحمة الله تعالى، فعالجه بالرجاء، فكن دوماً راغباً فيه راجياً إياه ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾. فالدعوة إلى محبته والتقرب إليه ﴿ يَٰعِبَادِىَ ﴾ وأبواب التوبة من الشرك وطلب المغفرة مفتوحة في جميع الأوقات لجميع المراتب ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ ﴾.

ومن خوارم المحبة الخالصة ضد ذلك وهو الاغترار برحمة الله تعالى مع الإصرار على الذنب والإسراف في المعاصي. فعليك أيها العبد أن تسارع إلى التوبة والإنابة إلى الله تعالى قبل أن تأتيك العقوبة ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾. وسارع إلى الأعمال الصالحة قبل أن يأتيك الأجل وتأتيك الساعة ﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾.

وردت ﴿ يَٰعِبَادِىَ ﴾ بإثبات ياء المتكلم وليست (يا عباد)، ذلك لتلطخهم بالذنوب وإسرافهم، فيحتاجون إلى مزيد من التأكيد لهم على استمرار الانتساب إلى جلاله، وأنهم ما زالوا قريبين من جلاله، وأنهم معروفون عنده، فأكد بإثبات ياء ﴿ عِبَادِى ﴾. بينما النداء بلفظ (يا عباد) لا يفهم منه المذنب أنه قريب من جلاله، بل قد يظن أن المخاطب نكرة، فهو إذاً نكرة، لأن المقيم على المعصية يشعر دائماً بوحشة في قلبه وظلمة، بعكس المحسن الذي يفهم من ﴿ يَٰعِبَادِ ﴾ شدة القرب.

فهي دعوة عامة في الدنيا للارتقاء بالتوبة والإنابة والاستغفار والاستسلام للكافر وللمسلم، وللمؤمن وللمحسن. إذ كل منهم يوم القيامة يود لو ارتقى إلى الدرجة الأعلى. فالكافر يتحسر ويود أن لو كان مسلماً ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾. ويود المسلم المفرط فضلاً عن الكافر أن لو بلغ درجة المؤمنين المتقين ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾. ويود المؤمن فضلاً عن المفرط والكافر أن لو بلغ درجة الإحسان ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾. فاحذر الإصرار على ما أنت عليه، واطلب الارتقاء عن المقام الذي أنت فيه.

من صور الإصرار تأخير التوبة إلى الله تعالى والإنابة إليه والاستسلام له، والتواني في إزالة العوائق والحجب بينه وبين الله تعالى ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾. ومن أعظم صور الإصرار تتبع الحيل في الأحكام الشرعية والشبهات في النصوص الشرعية والمنسوخ للترخص، بدلاً من البحث عن مقاصد الشرع الحقيقية والمحاولة للوصول إلى أحسن المقاصد الشرعية لتحقيقها ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم ﴾. ومن صور الإصرار الخفية التوقف عن الاستزادة في الارتقاء، وترك التنافس للوصول إلى درجة الإحسان ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾.

ومن خوارمها ما هو أشد من الإصرار على المعاصي وهو تحكيم العقل القاصر على النصوص الشرعية بدلاً من تحكيم الشرع المنزل وتقديم نصوصه على العقل ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾. وليعلم العبد أن تبعاتها عظيمة، من ذلك مباغتة العذاب له ثم يلازمه أبد الأبد، ومن ثم الحسرة والندم ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾.

ومن خوارمها ما هو أشد وأبغض إلى الله تعالى وهو معارضة الحبيب وتكذيبه، والترفع عما جاء به، وإخفاء جمائله والكفر بها ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

ومنها ما هو أشد وأبغض وهو الكذب على الله تعالى بزعمهم أنه هو الذي شرع الشركاء وأذن في اتخاذ الشفعاء ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾، فمن تبعاته اسوداد الوجه لما يرى من العقوبات التي تنتظره.

ومنها ما هو أشد من الكفر الصريح وهو النفاق والكذب في ادعاء المحبة والإخلاص والتشبع به أمام الناس والمراءاة به وهو خلي عنه، وكذا الكذب في ادعاء محبة الله تعالى باتخاذ الشركاء زاعمين أنهم ما يعبدونهم إلا ليقربوهم إلى الله زلفى. فالجزاء من جنس العمل ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾، فإنه سيفضح أمام العالمين، وسيرى الناس كذبه باسوداد وجهه، كما قال النبي ﷺ: «من سمّع سمّع الله به، ومن راءى راءى الله به »[1].

١- رواه مسلم (٢٩٨٦).

المحور السادس: عقوبة عدم الإخلاص في المحبة

من اقتحم خوارم المحبة الخالصة فليتجرع العقوبة المرة التي تنتظره. من ذلك أن تصفد أطرافه ليتقي النار بوجهه بدلاً من يديه ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾. ومنها أنه لا يقبل منه الفداء من العذاب ولو افتدى بضعف ما في الأرض ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾، فكيف وهو لا يملك مثقال ذرة؟. ومنها أن يأتيه العذاب بغتة ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾.

ومنها الحسرة التي تلازمه أبد الأبد ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾. ومنها تكالب الأحزان عليه من كل جهة ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾، فلما نفى الأحزان عن المتقين اقتضى ثبوت الأحزان على الكافرين.

من لم يجتنب خوارم المحبة الخالصة فقد خسر الله تعالى، ومن خسر الله تعالى فقد خسر كل شيء ﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾. وتتحقق الخسارة التامة بارتكاب أعظم محظور في الكون وهو الشرك بالله تعالى والذي يجمع جميع المحظورات السابقة وجميع خوارم المحبة، لا سيما مع معرفة الحق ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾. لكن عموم الخلق ودهماءهم لم يقيموا هذا الأمر حق التقييم، فلم يعظموا الله حق تعظيمه، ولم يقدروه حق قدره ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

فبدأ محور خوارم المحبة الخالصة بذكر أعظم المحظورات الموجب لجميع العقوبات

وهو اتخاذ الشفعاء من دون الله تعالى المنافي للمحبة الخالصة مع الإدعاء الكاذب أنهم يقربونهم إلى الله زلفى، وانتهى محور عقوبة عدم الإخلاص في المحبة بذكره مرة أخرى على صورة الشركاء مع فضح هذا الكذب المزعوم باسوداد الوجه، والمآل الذي يصيرون إليه من الخسران والخزي والندامة.

إنهم سيعاينون الأمر بأعينهم، ولم يبق إلا أن ينفخ في الصور نفخة يصعق منها الخلائق تعقبها نفخة أخرى ليروا الأهوال والعقوبات على حقيقتها، محدقين فيها، قد هالهم ما رأوه، ومن شدة الرعب الذي أصابهم لم تطرف لهم عين ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾.

حينئذٍ يساقون إلى القضاء الإلهي ليحاسبهم حساباً دقيقاً ليوفيهم ما توعدهم من سوء العقوبة على قدر أعمالهم، لا يَظلمون ولا يُظلمون ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾. ثم يساقون إلى مثواهم الأخير وهو جهنم سوق المجرمين جماعات على قدر كفرهم وشركهم وعتوهم، كل زمرة يتماثل أفرادها في جرائمهم ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾.

سيق بهم إلى النار وهي مغلقة الأبواب وقد سمعوا من وراء أبوابها العظيمة الموصدة أصوات مهولة تخرج من جوفها تصك الآذان كأنما يحطم بعضها بعضاً نتيجة تغيظها في زفيرها وشهيقها، مما يزيد رعب المنتظر ويزيد من خوفه. ثم تفتح الأبواب فجأة في وجوههم **بلا مقدمة فيتقاذف في وجوههم شررها ولهيبها وحممها، فحذفت الواو ﴿ فُتِحَتْ ﴾ لبيان حالهم قبل فتحها وبيان المفاجأة عند فتح أبوابها وما يليه** من أهوال.

حينئذ يبكتون، وتخاطبهم ملائكة العذاب ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ

كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾. هذا مثوى من كذب على الله بادعاء الشريك والولد، وكذب بالصدق لما جاءه بالدلائل البينة مستكبراً عنه.

المحور السابع: ثواب المحبة الخالصة

أما إذا أخلص العبد محبته لله تعالى وسار في طريقها وظهرت عليه علاماتها، واجتنب محظوراتها، وقَبِلَ المسرف العرض الإلهي السخي فتاب إلى الله تعالى وأناب وأسلم له فإنه سيفوز برحمة الله ومغفرته ﴿ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾، وينجو من العقوبة الإلهية والغضب الإلهي فيجعل الله تعالى بينه وبينها مفاوز، وبينه وبين الأحزان والأكدار مساحات شاسعة ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾. ثم الفوز بأعظم ثواب وأعلاه وأجله وهو الفوز بالله تعالى وبمحبة الله تعالى له، ولكن كثيراً من الخلق زاهدون فيها ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾، ذاك الله سبحانه ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾.

ومن ثواب المحبة الخالصة الفوز والتمتع بالنظر إليه نظر إكرام ومحبة ورحمة في أرض المحشر ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾، ومن ثم إشراق الوجه ونضارته به، ثم مرافقة الأنبياء والشهداء ﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾. ومنها الوفاء للمؤمن في أرض المحشر بما وعده الله في الدنيا ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾، وشفاء الصدر من المشرك بعقوبته أشد أنواع العقوبات بعد استيفاء عمله وما لَه وما عليه ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾.

ثم يستقبل المخلصون استقبال الضيوف الكرام ويساقون سوق إكرام مع المحبين والخلان إلى دار الكرامة ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾، وقد فتحت لهم أبوابها قبل وصولهم احتفاءً بهم وإكراماً لهم ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾. فلما وصلوا إليها استُقبلوا استقبالاً حافلاً أعظم استقبال وحدثت لهم حينئذ أمور عظام، وشعروا بشعور من السعادة والفرح ما لا تتحمل العقولِ وصفه، وظهرت منهم أمور لا يعلمها

إلا الله تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾، فلم يذكر الله تعالى جواب الشرط. حينئذ رحبت بهم ملائكة الجنة من كل ناحية عند الأبواب وفي الطرقات ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾، وملّكهم الله تعالى أرض الجنة،وأورثهم من أرض الجنة الأمكنة التي كانت معدة للمخلدين في النار لو كانوا من أهل الجنة، فأضافوها إلى ملكهم، قال النبي ﷺ: «ما منكم من أحد إلا له منزلان، منزل في الجنة ومنزل في النار. فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله فذلك قوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾».[1] ثم تنقلوا فيها حيث شاؤوا قائلين ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ﴾.

ثم أكرمهم وأكمل لذتهم بأن أخلصهم لما أخلصوا، وقرّبهم واقترب منهم لما اقتربوا، فأصبحوا حافين من حول العرش، والملائكة تحفهم، قد اجتمعوا عند الله تعالى مخاطباً إياهم يسمعون كلامه، وينظرون إليه ولسانهم يلهج بالتسبيح بحمده ويخاطبونه ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾، حينئذ نطق الكون أجمعه - ناطقه وبهيمه - بصوت واحد: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

١- رواه ابن ماجه (٤٣٤١) وابن أبي حاتم (تفسير ابن كثير، المؤمنون آية: ١١) وصححه البوصيري وابن حجر والألباني انظر السلسلة الصحيحة (٢٢٧٩).

المحور الثامن: الخاتمة

لقد تطابقت آخر السورة مع ما ورد في أولها ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾. فمن أخلص لله تعالى في الدنيا أخلصه الله في الآخرة ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾، ومن صدق مع الله تعالى صدق الله معه ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ﴾. من نازع في ذلك في دنياه فإن الله تعالى سيحكم فيه كما ورد في أول السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾، وقد ظهر حكم الله تعالى في الآخرة كما ورد في آخر السورة ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾.

وكما توعد الله تعالى بأنه لن يهدي الكافر الكاذب إلى طريق الجنة كما ورد في أولها ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾، وهكذا سيكون يوم القيامة ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾، فلن يهدى إلى طريق الجنة، وإنما يهدى إلى جهنم أعاذنا الله منها.

وهذا الكذب المزعوم الذي ادعوه في أول السورة أنهم محبون لله تعالى وأنهم ما اتخذوا الشركاء إلا ليقربوهم إلى الله زلفى ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ قد ظهرت آثاره ونتائجه يوم القيامة كما ورد في آخر السورة ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾. فتطابق آخرها مع أولها.

ولله الحمد والمنة أولاً وآخراً والله أعلم.

سورة غافر

مقصد السورة

تجنب الخصومات والجدال بالباطل ليصفو القلب ويسلم لله تعالى.

الأدلة على مقصدها

١- المناسبة بين مستهلها وخاتمتها

ارتبط أول السورة بآخرها بالإشارة إلى شدة عقوبة من رد آيات الله تعالى وبيناته بالجدال. حيث ورد في أولها ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴾، وفي آخرها ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ ﴾ أي ردوا البينات بالجدال مستندين بما عندهم من العلم.

٢- كلمات مكررة

تكررت كلمة الجدال في السورة: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾، ﴿ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ ﴾، ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ ﴾، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ ﴾، ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴾.

أو بذكر كلمات مرادفة ﴿ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ ﴾.

٣- تميزها

أ- تميزت هذه السورة بعدم ذكر المضغة في مراحل التطور الجنيني لما ذكر الله تعالى خلق الإنسان في هذه السورة، وإنما ذكر النطفة والعلقة ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُۖ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

ذلك أن المقصود بيان ضعف الإنسان وضعف خلقه، وليس بيان مراحل خلقه. والضعف في المراتب الأربعة الأولى بَيِّن فالتراب يزهد الناس فيه. وكذا النطفة التي تُنْطَف فتلقى للدلالة على هوانها ومهانتها. ثم علقة وهي التي تعلق، فهي من اسمها عالة على غيرها تستجدي غيرها. ثم الطفولة التي لا يحق له فيها التصرف في أمواله، لا سيما ما قبل التمييز حيث يفتقر إلى غيره وتحوطه الأقذار، وكذا من لم يبلغ مرحلة النضج العقلي وهي الحلم، وهو عالة على غيره في احتياجه إلى الرعاية الدائمة.

أما مرحلة بلوغ الأشد وإن كان ظاهرها القوة ولكن ما يصحبها من منغصات مذكورة في هذه الآية تسقطها إلى مرتبة الضعف. من ذلك أنها لا تبقى ولا تدوم وإنما تتربص بها مرحلة الشيخوخة، فتجده خائفاً وجلاً من بلوغ تلك المرحلة ﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا﴾، وقد يفاجأ بالوفاة ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ ولا يستطيع حينئذ أن يتقدم ساعة ولا يتأخر فله أجل مسمى ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾. وينغصها احتمال قيام الساعة في شبابه ﴿وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾. وينغصها ذهاب العقل بالسفاهة وسوء التصرف في هذه المرحلة، وذهاب المروءة والإفتضاح، أو الإصابة بعاهة عقلية وهو في ذروة الشباب ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

وأما مرحلة الشيخوخة فالضعف فيها بيِّن. فإذا كان الأمر كذلك أن الإنسان يتقلب

في مراحل الضعف فكيف به يرفع عقيرته وأنفه مستكبراً مجادلاً في آيات الله تعالى. ولم تذكر المضغة لعدم دلالتها على المقصود.

ب- ومما تميزت به السورة تكرار الفعل ﴿ كَانَ ﴾ في آية واحدة أربع مرات في قوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾. ذلك لبيان أن العبد لن يدوم بقاؤه، وأنه سيصبح في خبر كان، مهما بلغ من القوة يوماً ما إلا أنها ستذهب أدراج الرياح وسيذهب معها، وتتهاوى معه جميع أسباب الكبر الذي كان به يجادل في آيات الله تعالى، فلم تمنعه مجادلته من العقوبة الإلهية كما لم تمنع الأمم الهالكة التي سبقته ﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْ ﴾. وكذلك أسباب الكبر التي كان يتخيلها في نفسه لم تنفعه ولم ترد عنه العقوبة كما لم تردها عن الأمم الهالكة التي كانت أعظم استكباراً ﴿ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا ﴾، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾.

٤- اسمها

من أسماء السورة (المؤمن) إشارة إلى قصة مؤمن آل فرعون الذي كان جداله من أفضل صور الجدال ويضرب به المثل، فتفوّق في جداله، وأحسن في مقابلة من جادل بالباطل كفرعون ومن تابعه.

وكذا اسمها (غافر) لأن الله تعالى فتح أبواب التوبة والمغفرة لمن وقع في هذا الكبر والجدال بالباطل.

ومن أسمائها (حم السجدة). أما (حم) فهو الإشارة إلى القرآن العربي المؤلف من الحروف العربية والذي ينبغي أن يقابل بالتسليم له بدلاً من المجادلة فيه. وبدلاً من الاستكبار

عن الإيمان به عليه أن يقابله بالخضوع له والسجود لعظمته فوردت (السجدة).

٥- أواخر السورة السابقة لها

انتهت سورة الزمر السابقة لها بذكر مصير الاستكبار والتكبر الذي هو أكبر أسباب الجدال بالباطل إذ قال الله تعالى ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾. ثم انتهت بذكر مصيره وسوقه إلى جهنم لتكبره عن الحق في قوله تعالى ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

٦- تعدد صور الجدال

ذكر في السورة عدة صور للجدال، منها ما ورد في بداية السورة جدال الكفار، ثم جدال فرعون لموسى عليه السلام، ثم مجادلة مؤمن آل فرعون لقومه بالحسنى، ثم جدال أهل النار فيما بينهم.

محاور سورة غافر

المحـور الأول: براعة الاستهلال بأن الحجة البالغة لله تعالى.

المحـور الثاني: تبعات الجدال بالباطل.

المحـور الثالث: أسلوب المؤمن في الجدال.

المحـور الـرابـع: كيف يمكن تجنب الجدال بالباطل ومفاسده.

المحور الخامس: الخاتمه.

محاورها

المحور الأول: براعة الاستهلال بأن الحجة البالغة لله تعالى

هذه السورة في هذا القرآن العربي الفصيح المؤلف من الحروف العربية (حم) استهلت مبينة أن الحجة لله سبحانه مع كمال حلمه وعلمه. إذ هو سبحانه ذو العلم التام ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾، ومن كمل علمه كملت حجته، فهو ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا يغلب في المحاجة، ذو الحجة البالغة ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، لتتهاوى دونه جميع الحجج الباطلة ويتهاوى معها أصحابها. فمن تاب من جداله الباطل غفر ذنبه وتاب عليه، ومن استمرأ الجدال بالباطل أمهله ثم عاقبه بأشد أنواع العقوبات ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾، وتوبة الله على عبده ومغفرته تسبق عقوبته كما في الكتاب الإلهي الذي كتبه الله على نفسه فهو عنده فوق العرش «إن رحمتي غلبت غضبي».[1] فقدمت التوبة على شدة العقاب ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾. ولئلا يؤدي هذا الاعتقاد إلى تفريط العبد والانغماس في المعاصي وتأجيل التوبة حذفت الواو بين قبول التوبة وشدة العقوبة ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾، للإشارة إلى التصاق شدة العقوبة بالتهاون بالتوبة. ولكن لا تحل العقوبة إلا بعد الإمهال، فالإمهال شرط من شروطها لا ينفك عنها لذا حذفت الواو في قوله سبحانه ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ لارتباطهما.

١- رواه البخاري (٣١٩٤)

المحور الثاني: تبعات الجدال الباطل

الجدال بالباطل له آفات كثيرة، إذ غالباً ما يؤدي إلى الكفر، وهو تغليف القلب بالحجب عن طلب الحق وعن الاستسلام له ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾، مما يؤدي إلى تكذيب الرسل والدعاة إلى الحق، ورد الحق الذي جاؤوا به، ومن ثم السعي إلى التخلص منهم وسفك دمائهم ونشر الفساد في الأرض ﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ ﴾. لقد استأثر الجدال بالباطل بأخنع آفات الكبر وهي «بطر الحق وغمط الناس».[1] بطر الحق: رده وعدم قبوله، وغمط الناس: احتقارهم والإزراء بهم. فهو أسوأ صور الكبر ﴿ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ ﴾، لذا كانت نهايته العقوبة الماحقة في الدنيا ﴿ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴾، وأما يوم القيامة فالنار مصاحبة لهم أينما حلّوا وكيفما كانوا ﴿ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾.

لقد أدى هذا إلى فوات الخير الكثير المدخر لهم في الدنيا والآخرة. من ذلك فوات استغفار الملائكة لهم ودعوتهم العظيمة لهم ولوالديهم وأهليهم التي ينتفع بها من اتبع الحق ولم يجادل لدحضه ﴿ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾، فهذا من آفات الجدال بالباطل.

في هذه الآيات من الاحتباك حيث ذكرت آفات الجدال بالباطل الذي يؤدي إلى تغليف القلب بالحجب ومن ثم إلى قسوته، والتكذيب وسفك الدماء، والعقوبة الدنيوية ثم الأخروية في نار جهنم، مما يشير إلى أن الاستسلام لآيات الله تعالى وعدم مجادلتها

١- رواه مسلم (٢٦٥/٩١).

يؤدي إلى خشوع القلب ورقته وسلامته، ثم اليقين ونصرة الرسل والدعاة والإذعان للحق، والنصر في الدنيا ثم الفوز بالجنة يوم القيامة. ثم ذكر استغفار الملائكة للمؤمنين والدعاء لهم بالجنة وصلاح الآباء والأزواج والذرية، مما يشير بالمقابل إلى لعنة الملائكة للمجادلين بالباطل والدعاء عليهم بفساد أمورهم في الدنيا والآخرة وفساد أحوالهم مع آبائهم وأزواجهم وذرياتهم.

لذا قادهم ذلك إلى الآفة التي تليها وهي التردي في بغض الله الشديد لهم، ومن أبغضه الله تعالى ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وفسدت أحواله مع والديه وزوجه وذريته ومع من حوله مما أدى إلى ضيقهم ذرعاً بأنفسهم ومقتهم لها لا سيما يوم القيامة، ويفضحون بذلك أمام جميع الأمم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، لينتهي بهم الأمر إلى أن تتهاوى جميع دواعي الجدال من الكبر وغيره، ومن ثم الخضوع والاعتراف بالذنب أمام العالمين لما يرون من شدة مقت الله لهم ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾، ولكن حيث لا ينفع الندم ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾.

ولكن متى يحصل ذلك؟ ذلك حين تتجلى الحقائق وتتهاوى الأوهام، فيرون أن كمال العلو والكبر من خصوصيات الألوهية، وأن الحكم النهائي يرجع إلى الذي جادلوا فيه بالباطل ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾، وأن كمال الرفعة والعظمة له وحده ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾. فيعلمون حينئذ أن روح الحياة الحقيقية وإكسيرها هو الإقبال بكمال الحب والخضوع لهذا العلو والكبرياء الإلهي الذي جاء به أنبياؤه مؤيدين بالوحي وقوة الحجج وبالآيات الدالة عليه ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، فكيف يفرطون به ويردونهم ويكذبونهم ويجادلونهم بالباطل؟

ها هم الآن مصطفُّون معروضون مفضوحون أمام القضاء الإلهي، لا يستطيعون التخفي ولا إخفاء الحق الذي علموه وتيقنوه ولكنهم جحدوه بألسنتهم وزعموا أنه لم يتضح

لهم ﴿ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ﴾. معترفون بأن الملك الحقيقي لله تعالى، وأن النفع والضر والغوث والشفاعة جميعها ملك لله تعالى لا يشاركه فيها أحد ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾، قد بلغ بهم الخوف ذروته ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾. حينئذ يتخلى عنهم الشركاء والشفعاء وكذا الأتباع والخلاّن الذين كانوا يظاهرون بهم على ربهم وهم الآن أحوج ما يكونون إليهم ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾، أما المقام الرفيع الذي كان للمجادل في الحياة الدنيا بين خلانه وأتباعه والذي كان يسعى له بجداله فإنه يصبح في خبر كان، هذا في الآخرة.

أما في الدنيا فلا بقاء لذكرهم في مجالس الشرف بإهلاكنا إياهم وجعلهم مثلاً للعقوبة ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾، فأصبحوا في خبر كان، لذا تكررت ﴿ كَانَ ﴾ أربعاً في آية واحدة. بل إذا ذكروا ذكروا بالعقوبة الإلهية الماحقة وذكروا باللعنة. لقد تهاوى الكبر بعقوبتهم، وتهاوى معه الجدال بالباطل.

المحور الثالث: أسلوب المؤمن في الجدال

ليتفوق المرء في جداله ويفوز برضا الله تعالى لا بد وأن يلتزم بمجموعة من القواعد. منها أن يكون الأمر الذي يحاور من أجله حقاً في نفسه، ثم يتسلح المجادل بالحجج الصحيحة الواضحة قبل حضوره مجلس الحوار ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴾. ومنها النظر في أدلة الخصم والتأني وعدم المسارعة في الحكم على الخصم واتهامه كحال فرعون وهامان وقارون الذين لم يتأنوا في الاطلاع على ما جاء به موسى عليه السلام، فسارعوا إلى اتهامه ﴿ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾. ومنها الجرأة والقوة في عرض الحجج والأدلة بوضوح ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا ﴾، لم يقل سبحانه (فلما أتاهم)، فالمجيء فيه قوة ووضوح.

ومنها عدم المسارعة إلى استخدام التهديد عند ظهور حجج الخصم وأدلته، كحال فرعون الذي لم يذكر حجة واحدة له في الحوار، وإنما سارع إلى التهديد بقتل موسى عليه السلام وقتل ذريته واسترقاق أهله لما ظهرت حجته ﴿ قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ﴾، ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾.

وإنما عليه أن يتحلى بمحاسن الأخلاق لا سيما عند عرضه للحق الذي معه وعند سماعه لحجج الطرف الآخر، ليقدم الحق على طبق من ذهب، وهذا يقابل سوء أخلاق المجادل بالباطل ﴿ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ﴾. في هذه الآية وصف الله فرعون وهامان وقارون بسوء الخلق في الحوار منكراً عليهم ليدل على حسن أخلاق موسى عليه السلام في حواره معهم، وهذه قاعدة أخرى للحوار.

ومنها الاستعانة بالله تعالى في الحوار، وعدم الاتكال على النفس، وإنما التوكل على الله الذي هو رأس الأمر ﴿ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم ﴾. والاستعانة بالله تعالى تؤدي إلى

التواضع وتجنب الكبر، لذا من قواعد الحوار تجنب التكبر على الحق ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾. في هذه الآية وصف فرعون بالتكبر في الحوار، وإنكار موسى عليه السلام لذلك إشارة إلى تواضع موسى عليه السلام في قبول الحق إذا تبين له من الطرف الآخر واعترافه بالخطأ إن أخطأ. فيجب على المحاور إظهار التواضع فيه لا سيما إذا تبين له أنه مخطئ، فيتواضع ويرجع عن خطئه، ويعترف بالحق إذا ظهر له على يد الخصم، ليعلم الخصم أنك لم تأتِ من أجل الجدال، وإنما غايتك البحث عن الحق واتِّباعه، فهذا موسى عليه السلام لما قال فرعون في سورة أخرى ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ إشارة إلى قتل الفرعوني قال موسى عليه السلام ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾.

ومن صور الكبر الشقشقة والتشدق في الكلام، لذا من قواعد التفوق في الحوار الحرص على سهولة العرض، ليتضح الحق لجميع الناس، لعله يصل إلى بيت الكفر ليصيب منهم كما أصاب من آل فرعون ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾. ولتجلبه إلى صفك إياك أن تُخطِّىء الخصم أثناء الحوار، وإنما قل: إن أخطأت فعلي خطئي، أما إذا أصبت فأخشى أن تصيبك عقوبة إعراضك عنه ﴿وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾، وهذا من صور التواضع في الحوار. والكبر الزائف غالباً ما يصاحبه الكذب. لذا يجب تجنب الكذب في الاستدلال لرد الحق، وكفى به فساداً وإفساداً ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

وينبغي أن يتخلل الحوار الوعظ، وبيان عاقبة من أعرض عن الحق في الدنيا، وأنه لن يحصل على التوفيق الإلهي ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾، وهذا من قواعد التفوق في الحوار. ومنها التخويف من تقلبات الدهر بذهاب الملك والنعمة، وغياب المؤيد والناصر ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا﴾. ومنها التذكير بالعقوبة الكبرى يوم القيامة ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾. فالوعظ والتخويف يكسران الكبر

الزائف المحفز للجدال بالباطل.

ومنها عدم مقاطعة الخصم أثناء حديثه، حيث لم يقاطع موسى عليه السلام فرعون، وكذا فعل مؤمن آل فرعون. بينما استمرأ فرعون المقاطعة في الحوار إذ قاطع موسى عليه السلام أثناء حديثه ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾، وكذا قاطع مؤمن آل فرعون ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾.

ومنها تجنب إظهار العجب بالنفس أثناء الحوار لئلا يكون سبباً لإعراض الخصم ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾، ففي هذه الآية تحذير مما وقع فيه فرعون من العجب. بل من قواعد التفوق في الحوار مدح الخصم والثناء عليه بصدق بدلاً من العجب بالنفس والثناء عليها ﴿لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وقد صدق مؤمن آل فرعون في ثنائه هذا. وكذا إظهار المحبة للخصم والحرص عليه والشفقة والرحمة والصدق معه كقول المؤمن: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ﴾، ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم﴾.

ومنها التذكير بضرب الأمثلة ليتصور الطرف الآخر الأمر كما هو على حقيقته ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ﴾، ولم يكن الله تعالى ظالماً لهم في عقوبتهم. لذا من قواعد التفوق في الحوار تجنب الظلم فيه، إذ غالباً ما يظلم أحد المتخاصمين خصمه، فأشار إليه بتنزيه الله تعالى عن الظلم بقوله ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾.

ومن قواعد التفوق استدراجه إلى موافقتك واستنطاقه بقول (نعم) بأكبر عدد ممكن منها، ليتبرمج العقل على الموافقة، ومن ثم موافقته لك في الحوار على الحق الذي جئت به. لذا استدرجهم المؤمن لذلك بقوله: أما علمتم مصير ﴿قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾؟ أما كان أجدادكم وشعب مصر يثنون على يوسف عليه السلام لصدقه وإحسانه، ووثق به شعبكم؟ أما جاء يوسف برسالة مشابهة ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ

بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾؟ أما قلتم بعد يوسف ﴿ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾؟ فكلها أمور لا يستطيع قوم فرعون إنكارها، وسيجني وراءها الموافقة بـ (نعم) مرات عديدة، ومن ثم موافقته على الحق.

ومن قواعد التفوق في الحوار لصحة رأيه الاحتجاج بالعظماء الموافقين له في الرأي ممن هو معلوم لدى الخصم ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾. ومنها العلم بأن الشعور النفسي للمجادل فيما يدعيه هو خليط من الشك والخوف والاضطراب ويسمى بالارتياب ﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾، ليأخذ المؤمن ذلك بعين الاعتبار عندما يعرض حججه بثقة تامة. ومنها الحلم عند ظهور حماقات الخصم وتيهه وكبره، وعدم مقابلة سفاهته بالمثل كقول فرعون ﴿ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾، فلم يقابله موسى عليه السلام بالمثل.

ومنها استخدام الرفق واللطف في الحوار، والاستمرار في إظهار الشفقة والرحمة بالخصم ولو طال الحوار ﴿ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾. ومنها تغليب جانب الرجاء والترغيب ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

وفي نهاية الحوار على المؤمن المحاور أن يدع بعد ذلك الطرف الآخر يختار ويتوصل بنفسه إلى القرار بعد عرض الإيجابيات والسلبيات والمصالح والمفاسد، ويفوض الأمر إلى الله تعالى ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾. فالله تعالى سيتكفل أمره وأمر خصمه ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾، وسيعاقب خصمه على خصومته لتكون عليه حسرة في جهنم وتتحول إلى خصومة بينه

وبين خلانه ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ ﴾.

لذا على المؤمن في حواره أن يحسن ظنه بالله تعالى ويتوقع النصر، فالله تعالى هو كفيله ووكيله ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾، ثم عليه أن يتذرع بالصبر، ولا يستعجل النتيجة ولا يستعجل قطف ثمرة الحوار ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾. وعلى المحاور المؤمن أن يكثر من الاستغفار والتسبيح والحمد قبل الجدال وأثناءه وبعده ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ ليبارك له في حواره ويعان. فهذه جملة من القواعد الحسان في الحوار.

المحور الرابع: كيف يمكن تجنب الجدال بالباطل ومفاسده

من أكبر أسباب الجدال بالباطل الكبر، كما قال النبي ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس».[1] بل الجدال بالباطل أقبح صور الكبر. فبعلاج الكبر يتم علاج الجدال بالباطل بإذن الله تعالى. ويمكن علاج الكبر والوقاية منه بالوسائل التالية:

أولها التمسك بالوصايا الواردة في الكتاب والسنة والاهتداء بها، والسير على هدي النبيين والصديقين والصالحين، فبه تنال الإرث الموعود ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

ومنها تصبير النفس على أذى الناس وإعراضهم سواءً المعارضين منهم والأتباع، وعدم الاستعجال بالانتقام منهم ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾، إذ المتكبر من الخَلْق لا يستطيع الصبر على الأذى وانتقاص غيره له.

ثم الإكثار من ذكر الله تعالى بالاستغفار والتسبيح والحمد لأنه يعين على الصبر والحلم والأناة ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾، هذا أولاً. ولأن الجدال وإن صدر من مخلص إلا أن كثرته والمراء فيه يورث قسوةً في القلب، ومن ثم رد الحق، والغوص في الجدال بالباطل. فبكثرة الذكر كالاستغفار والتسبيح والحمد يرق القلب ويتخلص من زغل العلم وآفات الجدال وآفات النفس فيتخلص من الكبر، وهذا ثانياً.

ثم يجب أن يعرف العبد مقامه وأنه ناقص غير كامل، فقد يقع فيما لا يحسن، مما يتطلب الاستغفار ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾، فعلام يتكبر؟ فعلى العبد أن يلتفت إلى ما سبق من ذنوبه وخطاياه ليعرف مقامه. وإنما المنزه عن النقص هو الله وحده فله جميع صفات الكمال والحمد ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾، فالكبر لا يليق إلا بالله وحده. ثم ما من

١- رواه مسلم (٢٦٥/٩١).

صفة تحمد في العبد إلا وهي منحة إلهية تستحق الحمد، لا عن استحقاق من العبد، فعلام يتكبر؟! ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾. واعلم بأن جماع الذكر في كثرة الصلاة التي تتضمن أفضل أنواع التسبيح والحمد ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾، لذا «كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى».[1]

من وسائل علاج الكبر العلم بأن العبد لن يبلغ العظمة التي زورها لنفسه ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ ﴾، لذا عليك بالتواضع وعدم التعالي عن الاستماع إلى الطرف الآخر في الحوار، إذ من أسباب الجدال بالباطل أن يضع العبد لنفسه مقاماً لم يبلغه فيرد الحق الذي يأتيه من غيره. لذا من وسائل علاج الكبر الاستعاذة بالله تعالى من ذلك ومن نزغات النفس ونزغات شياطين الإنس والجن، والحذر من تسويلهم لرد الحق والجدال بالباطل، وإيهامهم العبد أن الاستجابة للحق ضرب من ضعف الشخصية ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾.

ومن طرق علاج الكبر المقارنة بين التكوين الخَلْقي للإنسان وعظمة السماوات والأرض، فأنّى لك أيها العبد أن تتكبر على ضعفك ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾. فإن استعصت النفس فعظها وذكّرها بيوم القيامة والبعث والحساب وقربه ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾.

وكذا عليك الإكثار من الدعاء والتذلل بين يدي عظمة الله تعالى ليعينك على نفسك ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾. ثم إرجاع النعم التي تتمتع بها إلى خالقك وإلى ربك وشكره لذلك، وعدم نسبتها إلى نفسك، فإن نسيان الرب وجحود نعمه وكذا نكران جميل الخلق يورث الكبر ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾، ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ

١- رواه أبو داود (١٣١٩) وحسنه الألباني.

قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

ومن طرق علاج الكبر عدم الأمن من مكر الله تعالى وعقوبته، وإلا تولد لديه الشعور بالفخر واستمراء الباطل الذي هو غارق فيه والدفاع عنه. فعليه ملازمة الشعور بالخوف من تغير الأحوال وتقلب الأمور بعد القرار والاستقرار والصورة الحسنة والرزق الحسن ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾، فالإفك قلب الشيء وصرفه. فالله تعالى قادر على أن يقلّب تلك الأحوال بعد القرار، فعلام يتكبر العبد؟

ومنها الاستجابة السريعة للحق والدلالات البيّنة ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى ﴾. فتدريب النفس على ذلك ولو في الأمور الصغيرة يورث التواضع ويقضي على الكبر.

ومن طرق علاج الكبر التفكر في أصل خلقك لتعرف قدرك وأنك خلقت من ضعف ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ﴾. فإن غفلت عنها لانشغالك في مرحلة الشباب وبلوغ الأشد تذكر حينئذ المنغصات التي تصاحب مراحل الكمال. وأنت في مرحلة الشباب تذكر مرحلة الشيخوخة التي تتربص بك وتترصدك وضعفها جلي واضح ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ﴾. واعلم بأن الموت قد يفاجئك وأنت في مرحلة الشباب ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ﴾، وربما تفاجأ بقيام الساعة عليك في شبابك ﴿ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى ﴾، أو ذهاب العقل في هذه المرحلة، أو فقدان المروءة والإقدام على تصرفات تستقبحها العقول والفطر وأنت في عز الشباب ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾. قال تعالى: ﴿ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾. فعلام تتكبر؟

فإن استعصت النفس فذكِّرها بأن أمورها وشؤونها كلها بيد خالقها، يتصرف فيها كيف يشاء من نعم ونقم ومصائب وحياة وموت، وأنه لا قوة لك ولا اختيار في المجيء إلى الدنيا وفراقها ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾، ثم أنت لا تستطيع دفع المصائب وأنت في كامل قوتك وشبابك ﴿ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾، فعلام تتكبر؟!

فإن استعصت النفس وأصرت على الكبر وانتهت إلى الجدال بالباطل فانظر إلى المتكبر المجادل بالباطل ومصيره في الآخرة ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾، حيث يتقلب في ألوان من العذاب المهين ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾، هكذا كانوا يتعاملون مع الضعفاء ليثنوهم عن عبادة الله تعالى وحده. ثم تتبرأ معبوداتهم منهم ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا ﴾، حينئذ تتهاوى الخيالات والفقاعات التي كانوا يعيشون فيها ﴿ بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ﴾. فتذرع بالصبر وأنت تسلك طريق التواضع ومجانبة الكبر حتى يتحقق موعود الله تعالى ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾، فابتدأت الآيات بالصبر وانتهت بالصبر.

ومن أفضل الأسباب المعينة على علاج الكبر المؤدي إلى الجدال بالباطل التعرف على المصير الدنيوي للتكبر عن طريق معاينة عقوبة أصحابه ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ ﴾، وكذا الاعتبار بقصص المتكبرين الغابرين المجادلين لأنبيائهم وتأمل عقوباتهم ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾. ويتحقق الاعتبار كذلك باستخدام وسائل النقل من الأنعام والفلك وغيرها للسير في الأرض وعلى الماء للمرور على أطلال المتكبرين المجادلين ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.

المحور الخامس: الخاتمة

الله تعالى ذو الطَوْل يمد لعباده ويمهلهم مع كفرهم، ويهيء لهم جميع الوسائل التي تدعوهم إلى طاعته والاستجابة له، ويقيم الآيات والدلائل على وحدانيته والوسائل التي تعينهم عليها ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، ويذكرهم بالعقوبات ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ويغدق عليهم النعم ﴿كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ويرسل إليهم الرسل، ويؤيدهم بالبينات والدلائل الأخرى ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، ويمهل أعداءهم لعلهم يتوبون فتقبل توبتهم وتغفر ذنوبهم. فإذا استمر جدالهم بالباطل معجبين بأنفسهم متكبرين ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾، وألحقوه بالاستهزاء بالرسل والآيات والدعاة ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، بعد الإمهال تحق عليهم العقوبة الماحقة التي لا نجاة بعدها ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، فلا يغررك تقلبهم في البلاد.

فتعانقت هذه الآيات الواردة في آخر السورة بما ورد في أولها من طَوْله وإمهاله لعباده قبل عقوبتهم. وكذا ما ورد في أولها من التحذير من الجدال بالباطل ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾، وما ورد في أولها من بيان مصير من سلك هذا الطريق ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

ولله الحمد والمنة أولاً وآخراً والله أعلم.

سورة فصلت

مقصد السورة

آيات القرآن فصلت أصول العلم الجامعة لمتطلبات الاستقرار والسعادة والفوز في الدارين، وفصلتها بإحكام وفصاحة بالغة.

الأدلة على مقصدها

١- المناسبة بين أولها وآخرها

ورد في أول السورة قول الله تعالى ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي بينت معانيه وأحكمت أحكامه. فقد نزل على أحسن الوجوه وأجملها وأعلاها وأبينها وأكملها من التفصيل والوضوح والبيان لأصول العلوم، جامعاً لأصناف الخير وطرقه والبشارة به للدارين، ومنذراً ومحذراً من جميع أنواع الشر وطرقه في الدارين ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

وورد في آخرها ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ أي لو أنزلناه بلسان أعجمي - حيث كفار العرب المتعنتون ليسوا كفؤاً لأن ينزل القرآن بلغتهم - لقالوا: هلاّ كانت آياته الجامعة لطرق الخير المحذرة من طرق الشر قد فصلت وبينت بالعربية ليكون هدى، وكذا آياته الجامعة لأصول العلوم هلاّ فصلت بالعربية ليكون شفاء من أمراض الصدور وتساؤلات القلب وشكوكه! والحق أنه كذلك، إذ فيه هدى وشفاء، ولكنهم صدوا عنه فعموا عن طريق النجاة في الدارين ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾. وقال ﴿وَشِفَآءٌ﴾ ولم يقل (دواء) لأن الدواء ينفع أحياناً وأحياناً أخرى لا ينفع. أما القرآن فقد جاء في وصفه النتيجة المتحققة ولا بد وهي الشفاء.

٢- تكرار ذكر علم الله تعالى ومرادفاته

تكرر فيها الإشارة إلى علم الله تعالى الشامل المفصل، إذ ورد فيها قول الله تعالى ﴿ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾، ﴿ ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا ﴾، ﴿ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾، ﴿ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾. ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾.

وورد فيها قوله تعالى ﴿ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾، ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾، ﴿ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾. فتكررت فيها الإشارة إلى علم الله تعالى المحيط بكل شيء.

٣- تميزها

تميزت هذه السورة بذكر تفاصيل خلق السموات والأرض. وهذا نوع من أنواع العلوم المفصلة في هذه السورة وهو علم نشأة الكون الذي حار فيه علماء الفلك والمختصون بعلوم الأرض.

٤- اسمها

اسمها سورة فصلت. هذا الاسم ينبئ عما في هذه السورة من التفصيل والفصاحة، وإحكام أصول العلم الجامعة لمتطلبات الاستقرار والسعادة في الدارين.

٥- آخر السورة السابقة لها

اختتمت سورة غافر السابقة لهذه السورة بذكر سبب مجادلة الكفار بالباطل، وهو عُجبهم بما عندهم من العلم ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ

ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾. فبين الله تعالى في هذه السورة أن هذا العلم الذي ادعوه والذي أعجبوا به وكان سبباً في قولهم: ﴿ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ هذا العلم لا يساوي شيئاً مع هذه الأصول الجامعة للعلوم التي بيّنها الله تعالى في كتابه العزيز وفي هذه السورة بالذات.

٦- المعنى العام

ورد فيها أوصاف عدة للقرآن الكريم، ومجموع هذه الأوصاف يدل على أن القرآن جمع أصول العلم وفصّلها حيث جاء فيها ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾، ﴿ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾، ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾، ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾، ﴿ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾. ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾. وهذه الأوصاف تنتظم مع موضوع السورة وهو وصف القرآن بأنه فصل الأصول الجامعة.

محاور سورة فصلت

المحور الأول: براعة الاستهلال في تضمن القرآن لأصول العلم الجامعة للسعادة البشرية.

المحور الثاني: تضمن القرآن جميع الأصول الجامعة للإشباع النفسي.

المحور الثالث: تفصيل العذاب البدني والنفسي لمن أعرض عنه.

المحور الرابع: القرآن هدى وشفاء ورحمة لأكبر المشكلات، وأعظم المِلمّات، والمسائل الكبار التي تحار فيها عقول الأذكياء.

المحور الخامس: علم الله تعالى بأدق أحوال النفس البشرية وتقلباتها فهو أعلم بطرق علاجها.

المحور السادس: الخاتمة.

محاورها

المحور الأول: براعة الاستهلال

إن الله تعالى المنزل لهذا القرآن رحمان أي متصف بكمال الرحمة في نفسه ولو لم يوجد خلق، رحيم بخلقه. إذ لم يتركهم هملاً يخوضون في أوحال الشقاء ليغرقوا في ظلمات الضلال لا يهتدون إلى طريق السعادة في الدنيا والآخرة. بل جمع لهم صنوف الخير والرحمة، وأرشدهم إلى الطريق الذي يسعدهم في الدارين الدنيا والآخرة.

فمن رحمته بهم أن أكرمهم بهذا الكتاب المنزل بالحكمة والرحمة، وقد حفظ فيه بيان وتفصيل الأصول الجامعة لجميع صنوف العلم ومقومات السيادة والسعادة والقيادة. ويشهد لذلك ما توصل إليه كبار العلماء ذوو الاختصاص الذين ما فتئوا يبحثون ويتجدد لهم العلم فيه ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾، وما جهلوه أكثر مما علموه مما هو متضمن في جواهر القرآن ودرره.

وكذا جمع فيه الأصول الجامعة للشفاء، حيث يشفي المرء غليله بالتعرف على جوامع الخير وطرقه التي يستبشر بها. وفيه الأصول الجامعة التي تشبع احتياجاته النفسية والفطرية والروحية والبدنية. وكذا أنذر فيه وحذر من الأصول الجامعة لأنواع الشر وطرقه، والأصول الجامعة للأمراض الحسية والمعنوية ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾، ليحقق للعبد تمام الاستقرار والفوز في الدارين.

ولكن الكفار قابلوا ذلك بالإعراض عن الاستماع والفهم والاستجابة لما في هذا القرآن من الكنوز والأصول الجامعة، حالهم كحال من شُلّ سمعه ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾. وادعوا بأنهم يتقلبون في الاستقرار سواء القلبي أو السمعي، فقلوبهم مستقرة محفوظة مكنونة في أوعية، ومغلفة بالعلم المزعوم الذي عندهم مما ورثوه وعهدوه، فلا تقبل شيئاً من القرآن، وقد استقر في آذانهم ثقل فأصمّها عن سماعه، واستقر

حجاب عريض كثيف هم بدأوا به من عندهم وانتهوا به عند النبي ﷺ، فلا فهم ولا سمع ولا بصر، شلل تام، مستغنون -كما زعموا- عن القرآن بما عندهم ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾، بتكرار حرف الاستقرار.

وتفصيل ما سبق في المحاور الآتية.

المحور الثاني: تضمن القرآن جميع الأصول الجامعة للإشباع النفسي

لقد تضمن القرآن الأصول الجامعة لجميع مواد الإشباع النفسي للإنسان سواء في مجال التفوق في التعامل مع الناس وتحقيق النجاح والسعادة العامة في الحياة فيروي غليله ويشفي عليله، وكذا في تحقيق الإشباع المعرفي لا سيما في معرفة الغوامض والأسرار والعجائب. فمن أقبل على القرآن نهل من معينه مواد الإشباع النفسي وهي ما يلي:

أولاً: لقد فصل القرآن أساس الحياة وأصل السعادة الذي عليه قامت السموات والأرض، وبه انتظم الكون، واستقرت الخليقة، واستقامت القلوب والأفئدة واطمأنت، وهو توحيد الله تعالى. ولا يتحقق ذلك ولا يستقيم إلا بمتابعة النبي ﷺ والاستقامة على منهجه، لتكون تزكية النفس ثمرة ذلك وجناها ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾.

فهذه الأصول الثلاثة: التوحيد والاتباع والتزكية هي التي قامت عليها دعوة النبي ﷺ، كما قال النبي ﷺ «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة». [١] فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فهي تزكي النفس، وكذا الزكاة تطهر القلب من الشح والبخل وتطهر المال من الشوائب، فجميعها تزكي النفس والجوارح. فزكاة النفس ثمرة التوحيد والاتباع، لذا قال النبي ﷺ «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق». [٢] وجمعها النبي ﷺ بقوله: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» [٣].

١- رواه البخاري (٢٥).

٢- رواه البخاري في الأدب (٢٧٣) وصححه الألباني.

٣- رواه البخاري في الأدب (٢٧٣) وصححه الألباني.

ثانياً: أما التفوق في التعامل مع الناس فله صور عدة، من صوره التفوق في الحوار مع الآخرين. فذكرت في هذه السورة بعض القواعد في أسلوب الحوار مع الناس على سبيل التنبيه، وذكر فيها كيف يمكنك التفوق فيه حتى تخرج منه وقد وافقك الطرف الآخر. فمن فاز بهذه الملكة كان سيداً بين الناس، لأن من استمال الخصم واستطاع تغيير رأيه ليوافق رأيه فقد حاز قصب السبق في معرفة مفاتيح قلوب الناس وقيادتها ليجد القبول والترحاب حيثما حل ورحل، وحسبك بها نعمة.

من ذلك تعلم البيان والفصاحة، وحسبك بالقرآن معلماً، فهو سيد الفصاحة والبيان ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾. ثم التأني والحلم وعدم الانفعال، ذلك أن النبي ﷺ لما جاءهم بهذه الكرامة الإلهية رد عليه الكفار بالإعراض والجهالات ﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾، فكانت إجابة النبي ﷺ بكمال الحلم والتأني وعدم الانفعال فقال ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾.

ومن وسائل التفوق في الحوار التواضع وعدم التعالي عند طرح الحجج وبيان الأدلة، ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾. ومنها الوضوح وعدم الغموض وتجنب المداهنة ﴿ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾، والتركيز على الهدف ﴿ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾، كل ذلك تجده في قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾.

ومن طرق التفوق في الحوار البيان للطرف الآخر المفاسد المتحصلة من الرأي الخطأ، والتحذير من عواقبها ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾، وفي المقابل بيان حسنات الرأي الصحيح والمصالح الكثيرة المتحصلة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾.

وعلى رأس ذلك الإخلاص لله تعالى في النصح ﴿ ءَامَنُواْ ﴾، والتودد إلى الناس ببذل الخير لهم ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ سواء قبل الحوار وأثناءه وبعده، والتعامل بأخلاق زاكية ﴿ يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾. وقد تم تفصيل ذلك في السورة التي قبلها، سورة غافر.

ثالثاً: أما الأصل الجامع لطرق الفوز بالسعادة والنجاح في الحياة فإنه يتحقق بأمور أربعة:

أولها حسن التعامل مع من كان في الأزل وهو الله سبحانه وتعالى ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾.

وثانيها حسن التعامل مع من حولك من المخلوقات ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، لا سيما الناس بأصنافهم المتعددة. فتعامل معهم بزكاء، بالإحسان إليهم باليد واللسان، وطهارة القلب واللسان، فإن موجبات الشقاء ضد ذلك ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾.

ثالثها حسن التعامل مع المستقبل القريب والبعيد بالتخطيط له لا سيما اليوم الآخر، وإلا فليبشر بالمعيشة الضنك ﴿ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾، والقبر أول منازل الآخرة.

ورابعها توقع بعض العوائق والمصائب في طريق السعادة، لا سيما نكران الناس لجميلك وكفرانه، فهم لم يتورعوا من كفران النعم الإلهية والكفر بكلام الله تعالى المخبر عن اليوم الآخر ﴿ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾، هذا على سبيل المثال.

وإذا حققت هذه الأمور الأربعة حينئذ تفوز بسعادة الدارين والأجر العظيم فيهما﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾. فمن صور الأجر الراحة والسعادة والمتعة التي يتقلب فيها، والقدرة على إيجاد الحلول للمشاكل والمصائب بلا انقطاع. وهذه السعادة القلبية تجدها مباشرة ولن تتأخر عنك بإذن الله تعالى إذ قال سبحانه ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ ﴾

بلا فاصل من الأحرف، فلم يقل سبحانه (فلهم أجر). هذا في الدنيا، أما في الآخرة فالسعادة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. أجر دائم، ونعيم لا يزول ولا يخاف انقطاعه ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾.

رابعاً: يتضمن القرآن أصل الإشباع السمعي، الذي يملأ الآذان، فيسعد القلب بميزانه الصوتي وفصاحته وبلاغته ليشبع الروح والقلب وكذا الآذان بالتغني به، لذا قال النبي ﷺ: «ليس منّا من لم يتغن بالقرآن»[1]. وقال ﷺ: «ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن، يجهر به»[2]. ولكنهم أعرضوا عن هذا الأصل العظيم﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾.

لذا لمّا اجتمعت قريش يوماً فقالوا: «انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأت هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا فليكلمه ولننظر ما يرد عليه». فبعثوا عتبة بن ربيعة إلى رسول الله ﷺ، فجاء إلى النبي ﷺ وحاوره وعرض عليه المغريات لترك دعوة التوحيد، فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن قرأ عليه بصوته الجميل الشجي أول سورة فصلت حتى بلغ ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾. فقال عتبة: حسبك. وأمسك عتبة على في النبي ﷺ وناشده بالرحم، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش. فلما أتوا إلى بيته يسألون عنه قال عتبة: «والله، لقد أتيته وقصصت عليه فأجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر»[3]. ونحو هذا حصل لأبي سفيان وأبي جهل والوليد بن المغيرة وغيرهم من سادات قريش، وكذا حصل لسادات الأنصار لما سمعوا شيئاً من القرآن.

١- رواه البخاري (٧٥٢٧).

٢- رواه مسلم (٧٩٢).

٣- رواه عبد بن حميد والبغوي، انظر تفسير ابن كثير (٧/١٥٠-١٥١).

خامساً: ثم الإشباع المعرفي العلمي المتعلق بمعرفة الغوامض والأسرار والعجائب العلمية عند سماع القرآن. فعلى سبيل التنبيه ذكر قصة بدء الكون ونشأته وتسلسل الأحداث وتفصيلها ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾. فالأرض والسماوات كانتا شيئاً واحداً في بداية الأمر ففتقهما الله تعالى، ثم خلق الأرض في يومين، ثم خلق السماوات من دخان في يومين وأوحى في كل سماء أمرها، ثم جعل في الأرض رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في يومين، فمجموع الأيام التي خلقت فيها الأرض وانتظمت أربعة أيام، والسماوات في يومين، فمجموع ذلك ستة أيام. هذا مثال للتنبيه على ما وراءه من العلوم الغامضة والأسرار والعجائب.

فالقرآن يحوي أصولاً كثيرة تتعلق بجميع أنواع العلوم، فيشير القرآن إلى أصولها الجامعة وقواعدها وإلى الغوامض منها بدلالات التنبيه، كعلوم الطب والأحياء والفلك وعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرها من جوامع العلوم.

المحور الثالث: تفصيل العذاب البدني والنفسي لمن أعرض عنه

القرآن وهو رسالة الله تعالى قد فصل الله تعالى فيه الأصول الجامعة لأنواع الشقاء النفسي والبدني في الدارين لمن أعرض عنه ولم ينتفع بما جاء به. مهما بلغ من السمو في دنياه فإنه يتقلب في الشقاء، شقاء من قبل بيئته الدنيوية، ومن قبل أعضائه الجسدية، ومن قبل أصحابه وخلانه، ومن قبل الملائكة. وإليك بعض الأمثلة التي تتضمن هذه الأصول تنبيهاً لما وراءها:

أولاً: أما الشقاء من قبل بيئته، فها هي عاد لما أعرضت عن رسالة الله تعالى وكانت قد بلغت من القوة أن قال عتاتها: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾، عذبت وهلكت بأحوال بيئية. إذ أرسلت عليهم ريح باردة تجمد الأبدان والجلود، وصوت صرصر يقطع القلب ويقهر الشجاعة المزعومة في قولهم: ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾، ويصك الأسماع ويصمها ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾، جزاءً وفاقاً. إذ لسان حالهم يحكي أصل مقولة قريش في ادعاء الصمم ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ ﴾، ادعوا الصمم فعوقبوا بالصمم. وصاحبتها صاعقة تحرق الأجساد المتجبرة ﴿ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ في أيام قلائل، ولكنها نحسة ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾، بجمع المؤنث السالم ﴿ نَّحِسَاتٍ ﴾ الدال على قلة عدد أيام الإبادة وسرعة الهلاك.

ومثال آخر قوم ثمود وهم بقية عاد، هلكت بصاعقة أعمت أعينهم وأبصارهم ببرقها بعد أن عميت بصائرهم عن آية الناقة التي رأوها بأم أعينهم ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾، فالجزاء من جنس العمل وهو العمى، إذ لسان حالهم يحكي أصل مقولة قريش في عدم الرؤية: ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾. وكذا أذاقتهم أشد ألوان الإهانة ﴿ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾.

فلا سمع ولا بصر ولا تمتع بالجلود والأبدان ولا بالأيام، إذ لم ينتفعوا بأعضاء الجسد

في التعرف على الله تعالى وعبادته وحده، وعطلوا العمل بها، فلم يبق للجسد قدر ولا حرمة، فاستحق الإحراق ليتحول إلى رماد، فأحرقت عاد وبقيتها ثمود بالصاعقة ﴿ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾. فذكرت الأسباب البيئية البعيدة التي عذبوا بها، إذ الريح تأتي من مكان بعيد، والصاعقة سماوية من علو شاهق، ففيها تنبيه على التعذيب بالأسباب البيئية القريبة منهم بدلالة الأولى، هذا في دنياهم.

ثانياً: وأما من قبل أعضائه في الآخرة فالشقاء فيها أشد، والإهانة فيها أعظم. حيث تدفعهم الملائكة دفعاً بغاية القوة إلى النار أمام العالمين ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا ﴾. زيدت ﴿ مَا ﴾ تنبيهاً على قوة الدفع الذي لا ينتهي إلا عند شفيرها، ووردت ﴿ جَآءُوهَا ﴾ بدلاً من (أتوها) للدلالة على قوة الاندفاع وعظم الهول عند وصولهم شفير جهنم أعاذنا الله منها.

فالأسماع عندئذ والأبصار والجلود -التي لم تقشعر في الدنيا- شاهدة ناطقة بشقائهم ﴿ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾، فازدادوا حسرة وعذاباً وخيبة أمل، حيث شهدت عليهم أعضاؤهم التي هي أخص الأشياء بهم. بل زادهم توبيخاً وألماً حين تكلم لسان حالها قائلاً: لم تكن أيها الكافر تستتر عن المعصية والكفر، ولم تكن تأخذ حذرك من أن نشهد عليك حين عصيت ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾، فها نحن نشهد عليك الآن أمام هذا الجمع العظيم، ونفضحك بإنطاق الله تعالى لنا ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾. قال النبي ﷺ عن مخاطبة العبد ربه يوم القيامة: «يا رب! ألم تُجرني من الظلم؟ يقول: بلى. فيقول: فإني لا أجيز إلا شاهداً مني. فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً. فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول: بعداً لَكُنّ وسحقاً.

فَعَنْكُنّ كنت أناضل»[١].

هذا جزاء من أشبع عينه وبصره وجلده بالمعاصي، ولم يشبعها بمواعظ القرآن ولطائفة، فعذب بشهادتها عليه، فشقي بسبب ما قالوه في دنياهم عن هذه الأعضاء التي خاضوا بها في الملذات: ﴿ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾. فلا صبر إلا في النار، ولا عتبى حينئذٍ، ولا تقال عثراتهم، ولا يؤذن لهم بالتنفيس والإفضاء عما يجول في صدورهم، ولا ينفعهم حينئذ الاعتراف بذنوبهم. ليسوا كحال الحبيب الذي يعاتب فيعترف بذنبه فيعفي عنه فتزداد العلاقة صفاءً. وإنما عذاب نفسي بالغ مكبوت غير مسموع ﴿ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾.

ثالثاً: وأما الشقاء من قبل أخص الناس به على سبيل المثال خلّانه وهم أصحابه من الإنس والجن الذين استمتع بخلتهم، وأشبع نفسه بطاعتهم فإنه بهم يعذب. فلم يكونوا أصدقاء حيث لم يصدقوا معه، وإنما هم مجرد قرناء اقترن بهم، وجمعتهم الشهوات المحرمة والشبهات لمّا دعوه إليها ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾. فقدمهم على مصاحبة القرآن وندائه ومواعظه، واستجاب لدعوتهم القائلة: ﴿ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾. فها هم يوم القيامة لما رأوا مصيرهم النار ﴿ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ﴾ صاحوا قائلين: ﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾، هكذا تحولت الخلّة إلى عداء وشقاء. ولكن الله تعالى لم يلتفت إلى استغاثتهم، بل أعرض عنهم، وضرب عنهم صفحاً، وأقبل على المؤمنين مستمعاً لهم مستجيباً ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾.

١- رواه مسلم (٢٩٦٩) وابن حبان (٣٩٧٧).

رابعاً: وأما شقاؤه المتحصل من قبل الملائكة - وهم أخص الموكلين به من قبل الله تعالى- ففي الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فقد ذاقوا الويل من الملائكة في جميع مراحل الشقاء التي سبق ذكرها في الهلاك البيئي. وأما في الآخرة فتدفعهم إلى النار دفعاً وتسوقهم إليها سوقاً.

وكذا في مرحلة البرزخ بين الدنيا والآخرة، وأولها ساعة الاحتضار عند مفارقة الدنيا. فلا تثبّته الملائكة، بل تبشره بالأهوال والعذاب الأليم الذي ينتظره، وتواجهه بالرعب الذي يكاد يذهب باللب، ليغوص في بحر الحسرة على ما فات، ولتتكالب عليه الأحزان قائلة له: «أيتها النفس الخبيثة! أخرجي إلى سخط من الله وغضب»[1]. بل كما قال جبريل عليه السلام للنبي ﷺ: «لو رأيتني وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في في فرعون مخافة أن تدركه الرحمة»[2]. وقد أشارت الآيات إليها بالاحتباك المذكور في حق المؤمنين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، والكافر بضد ذلك.

١- رواه أحمد (٤/ ٢٨٧-٢٨٨، ٢٩٥-٢٩٦) وصححه الحاكم (١/ ٣٧-٤٠) وابن القيم في الزاد (١/ ٢١٤) والألباني في الجنائز (١٥٩).

٢- رواه الطيالسي (٢٧٤٠) وصححه الترمذي (٣١٠٨).

المحور الرابع: القرآن هدى وشفاء ورحمة لأكبر المشكلات، وأعظم المِلمّات، و المسائل الكبار التي تحار فيها عقول الأذكياء

أولاً: مصيبة الموت

من أعصى الأمور على العبد هي ساعة الاحتضار التي يسعى قدر جهده لتأخيرها بإطالة عمره بشتى الوسائل، ويتجنب تذكرها أو التذكير بها، ويهابها ويخافها حيث لا حيلة له على الروح ولا قوة، ولا لغيره فيعينه عليها.

فصاحب القرآن لحظة احتضاره تتنزل عليه الملائكة بالرحمة، فتثبته، وتبشره بالجنة والمغفرة والرحمة، وتشبع نفسه بما يتمناه لتقر عينه ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾.

وكذا تكون معه وتستقبله بالترحاب في الحياة البرزخية، وعند البعث يوم القيامة، وفي أرض المحشر، وعلى الصراط. فلكم كل ما تشتهي أنفسكم بلا استثناء، وكل ما تدعيه ألسنتكم، إشباع كلي في ضيافة ﴿غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾. ﴿غَفُورٍ﴾ الذي استغفرتموه في دنياكم استجابة لدعوة نبيكم القائل في أول السورة: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾، و ﴿رَّحِيمٍ﴾ حيث استجبتم للرحمة القرآنية التي دعيتم إليها في أول السورة: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فاستجبتم لتنزيله، فتنزلت عليكم الملائكة بالرحمة العظيمة في جميع المراحل. فكما استجاب لدعوتنا وترك شهوته في دنياه استجبنا حينئذ لشهوته ودعوته في أعصى المِلمّات.

ويرتقي في هذه المنازل على قدر حرصه على دعوة الناس إلى القرآن وأصوله الجامعة، وتحقيق مقاصده، والعمل به، وتشرفه بالانتساب إليه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ

﴿ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾. وكذا على قدر حرصه في انتقائه لأفضل طرق الدعوة إلى الله تعالى لا سيما في حق الأعداء ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾، فالدفع بالتي هي أحسن مفتاح قلوب الناس ومنهم الخصوم والأعداء.

وأما حال الكافر في هذه المصائب فعلى الضد من ذلك كما سبق ذكره.

ثانياً: الخصومات

قد يعيش الإنسان في الدنيا في غاية الرفاهية المادية والشهوات الحسية، ولكن قلبه متفطر لما يجد من معاداة أحب الناس إليه، فلا يلتذ بعيش، ولا يهنأ بأكل ولا مشرب، نومه عذاب وحسرة، ويقظته عذاب وألم. وقد تشتد الخصومات وتتقطع الروابط فيشعر بالاضطراب وعدم الاستقرار لكثرة منازعاته وخصوماته مع الآخرين، فيحار في علاجها. ذلك لعدم معرفته مفتاح قلوب الناس، والذي يتلخص بحسن استقبالهم وبرِّهم ولو بالقليل ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾، والإحسان إليهم لا سيما عند الخصومة واشتدادها، والصبر عليهم ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾.

وكما أن الحسنة لا تستوي مع السيئة فكذا التعامل مع الخصوم بالحسنى درجات، فليست أدناها كأعلاها ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ ﴾، فتجني الولاية الحميمة من الخصم على قدر الحسنة التي دفعت بها. وكذا التعامل معهم بالسوء درجات، فلا تستوي السيئة ﴿ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴾، فتجني العداوة الشديدة على قدر السوء الذي دفعت به.

هذه قاعدة نافعة حتى مع كثير من شياطين الإنس، فمن عمل بها حظي بالشيء العظيم من محبة الناس له وإقبالهم عليه ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾، ومشاكل كثيرة وعوائق عظام بين الأفراد وكذا بين القبائل تتهاوى

باستخدام هذه القاعدة النافعة.

ثالثاً: سلطان الشهوة

أعظم أسباب المشاكل والمصائب والبلايا التي تواجه الفرد والأمة غلبة الشهوات على القلوب، وتمكنها منها، فبها فسدت القلوب والجوارح والألسنة، وبها انتهكت الأعراض والأموال وسفكت الدماء ووقعت المظالم، وبها قامت العداوات والحروب.

بيّن القرآن علاج ذلك بالتمسك بالأصول الثلاثة وهي: توحيد الله تعالى ومتابعة النبي ﷺ ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، والتمسك بتوابع هذين الأصلين والدعوة إليهما بأفضل الوسائل وأصلحها، والتشرف بالانتساب إليهما ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. فبتوحيد الله تعالى بالمحبة تتهاوى جميع المحاب، فلا يبقى موضع لمحبة غيره أو محبة ما يبغضه من الشهوات والمحرمات، وبمحبة النبي ﷺ ومتابعته تتهاوى جميع الدعوات من الخلّان ومن شياطين الجن والإنس لمتابعتهم في الانغماس في الشهوات.

وكذا الدعوة إلى الطريق الصافي الذي تسير عليه ليجتمع معك أصحاب يعينونك، لئلا تشعر بالوحشة، ولئلا يغلبك سلطان الشهوة. فتجد من يأمرك بالمعروف وينهاك عن المنكر قبل أن تزل القدم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾. ثم الاستمرار على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليكون رادعاً نفسياً عن الاستجابة لمنكرات الشهوات، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

أما الأصل الثالث فهو زكاة النفس بالتخلق بالأخلاق السامية للحفاظ على المروءات التي تتنافى مع سيء الشهوات ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾. فإن كانت شهوة غضبية أو منازعة على مال أو منصب أو تعدّ عليك فتخلّق بالعفو والإحسان ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾، ثم تذرع بالصبر على ذلك

وعلى جميع ما سبق من الأصول الثلاثة وتوابعها وعن الشهوات ﴿ وَمَا يُلَقَّـٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾، ثم الاستعاذة الدائمة بالله تعالى من تسلط الشيطان على القلب الذي يغريه بالشهوات ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

رابعاً: تسلط الجن

ومن عظائم الأمور والتي لا يشعر بها إلا من ابتلي بها هو تسلط شياطين الجن عليه بالوساوس، والتخييل، والإغواء، وإثارة النفوس بشتى أنواع الإثارات، وسوء الظن بالقريب والبعيد، بل وبنفسه، وكذا بسرعة الغضب، وغير ذلك، والتي تكفي واحدة منها لتحطيم نفسه وشل قدراته والقضاء على حياته.

وأما التغلب على شياطين الجن التي يعجز العبد ويحار أمام تسلطها عليه فباللجوء إلى الله تعالى، ثم الاهتداء بالعمل بالنصوص الشرعية والتمسك بها وعدم الزيادة عليها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ فلا يزيد في الغسل في وضوئه على ثلاث مرات، ولا يزيد من الركعات في صلاته بسبب الوسوسة وهكذا، وإنما يقتصر على ما ورد. ثم الاستعاذة بالله تعالى. فهو وحده القادر على دفع وساوس الشياطين، وتزيينهم، وإغوائهم، وتسلطهم عليه، وإثارة النفوس بالغضب وغيره ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾، وهذه دلالة تنبيه. لذا قال النبي ﷺ في حق الغاضب: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»[1]. فكم من صرعى للشياطين وموسوسين وغضاب وغيرهم ضاقت عليهم الدنيا بما رحبت، فلم يخلصهم إلا الاستعاذة بالله تعالى بصورها المتعددة.

خامساً: الشكوك والشبهات

١- رواه البخاري (٦١١٥).

من أعظم البلايا التي تواجه كثيراً من النظار وعلماء المنطق والمتكلمين وأذكياء العالم تلك الشبهات والشكوك في المسائل الكبار التي وقفوا فيها حيارى، ولم يعرفوا كيف التخلص والخروج منها، كما صرحوا هم بأنفسهم، فأفضى بهم إلى الشك والحيرة، وبعضهم إلى الإلحاد، أعاذنا الله منه. فتوقفوا حتى في أدلة إثبات وجود الله تعالى، وفي ربوبيته وألوهيته وصفاته، وفي إثبات النبوة وإثبات البعث والمعاد. حيث تركوا هدي القرآن في إثباتها، وسلكوا الطرق العقلية الظنية المعقدة المتعارضة والتي يبطل بعضها بعضاً، المبعدة عن الله تعالى، والتي تفتح لهم أبواب الحيرة والشك والشبهة التي انتهوا بها.

بينما بيّن القرآن أجمل الطرق وأفضلها في إثبات توحيد الربوبية والألوهية والصفات والبعث والنبوة أحسن البيان، وأفصحه، وأوضحه، وأكمله، وأيسره، وأقربها إلى العقل والنظر والتصور والفهم. وتميزت تلك الطرق بعدم التعقيد، وتليق بجمهور المسلمين «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب» [1]. يصدق بعضها بعضاً، غير متعارضة ولا متناقضة، ولا تعارض الأدلة الواردة في أي علم من العلوم القطعية. ثم هذه الطرق القرآنية تجعل العبد متعلقاً بربه تعالى، وتغلق عليه أبواب الشبه والشك والحيرة مع كمال التعظيم لربه. فهي تجمع مجاميع البراهين التي يرجع إليها غاية النظار، بل ما هو فوق استنباط النظار [2].

سادساً: حيرة أذكياء العالم

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: أكثر فضلاء العارفين بالكلام والفلسفة والتصوف الذين لم يحققوا ما جاء به الرسول ﷺ تجدهم فيه حيارى [3]. وإليك بعضاً ممن سلك ذاك الطريق:

هذا ابن رشد الحفيد وهو من أعلم الناس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم يقول في كتابه

١- رواه البخاري (١٩١٣) ومسلم (١٠٨٠).

٢- انظر درء التعارض (٣/٣٠٨-٣٠٩).

٣- الدرء (١/١٥٩).

(تهافت التهافت): ومن الذي قال في الإلهيات شيئاً يُعتدّ به؟

أما الآمدي وكان من أفضلهم في أهل زمانه، فقد وقف في المسائل الكبار حائراً وقال: أمعنت النظر في الكلام وما استفدت شيئاً إلا ما عليه القوم.

وقال الخونجي عند موته: أموت وما علمت شيئاً مما حصلته سوى أن الممكن يفتقر إلى الواجب، ثم قال: والافتقار وصف عدمي، أموت وما علمت شيئاً.

واجتمع الأصبهاني بالشيخ إبراهيم الجعبري يوماً فقال: بت البارحة أفكر إلى الصباح في دليل على التوحيد سالم عن المعارض فما وجدته.

بينما الشهرستاني لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم، حيث قال:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها وسيرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقنٍ أو قارعاً سن نادم

أما الغزالي رحمه الله فقد انتهى آخر أمره إلى التوقف والحيرة في المسائل الكلامية، ثم أعرض عن تلك الطرق وأقبل على أحاديث الرسول ﷺ، فمات وصحيح البخاري على صدره.

كذا الفخر الرازي قال في كتابه الذي صنفه في (أقسام اللذات) لمّا ذكر علم التوحيد وأنه أشرف العلوم، وأنه ثلاث مقامات: العلم بالذات والصفات والأفعال. قال: وعلى كل مقام عقدة:

١- فعلم الذات عليه عقدة: هل الوجود هو الماهية؟ أو زائد على الماهية؟

٢- وعلم الصفات عليه عقدة: هل الصفات زائدة على الذات أم لا؟

٣- وعلم الأفعال عليه عقدة: هل الفعل مقارن للذات؟ أو متأخر عنها؟

ثم قال: ومن الذي وصل إلى هذا الباب، أو ذاق من هذا الشراب؟!

ثم أنشد:

نهاية إقدام العقول عقال
وغاية سعي العالمين ضلالُ
وأرواحنا في وحشة من جسومنا
وحاصل دنيانا أذىً ووبالُ
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
فكم قد رأينا من رجال ودولة
فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبالٍ قد علت شرفاتها
رجال، فزالوا والجبال جبالُ

لقد تأملت الطرق الكلامية والمذاهب الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ (١)، ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ (٢)، واقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ

١- طه (٥).

٢- فاطر (١٠).

شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾[1]، ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا ﴾[2]، ﴿ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ﴾[3] ثم قال: «من جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي». وله كلام جميل يزيد على هذا[4].

وقال أبو المعالي الجويني: يا أصحابنا! لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به. وقال عند موته: لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي، -أو قال- على عقيدة عجائز نيسابور.

أما شمس الدين الخسروشاهي وكان من أجلّ تلامذة الفخرالرازي، فقد قال بعض الفضلاء وقد دخل عليه يوماً.

قال الخسروشاهي: ما تعتقده؟

أجاب الفاضل: ما يعتقده المسلمون.

الخسروشاهي: وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به؟ أو كما قال.

الفاضل: نعم.

الخسروشاهي: اشكر الله على هذه النعمة، لكني والله لا أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد. وبكى حتى اخضلت لحيته.

١- الشورى (١١).

٢- طه (١١٠).

٣- مريم (٦٥).

٤- راجع المفسرون للمغراوي (٢/٥١-٥١).

هكذا انتهى هؤلاء إلى الحيرة «بينما القرآن ذكر من ذلك ما هو خلاصة ما ذكره الناس، وفيه من بيان توحيد الإلهية ما لم يهتد إليه كثير من النظار ولا العبّاد، بل هدى الله به رسله، وأنزل به كتبه» (١).

«فمن أعظم المصائب أن يصاب الإنسان فيما لا سعادة له ولا نجاة له إلا به، ويصاب في الطريق الذي يقول إنه به يعرف ربه، ويرد عليه فيه إشكال لا ينحل له، مع أنه من أكبر رؤوس طوائف أهل الكلام والفلسفة» (٢). ومن يصل إلى مثل هذه الحال إن لم يتداركه الله برحمته وإلا تزندق، كما قال أبو يوسف: من طلب الدين بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء فقد أفلس، ومن طلب غريب الحديث كذب.

وقال الشافعي رحمه الله: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأقبل على علم الكلام. وقال: لقد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننت مسلماً يقوله، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه -ما خلا الشرك بالله- خيرٌ له من أن يبتلى بالكلام.

وتجد أحد هؤلاء عند الموت يرجع إلى مذهب العجائز، فيقر بما أقروا به، ويعرض عن تلك الدقائق المخالفة لذلك التي كان يقطع بها ثم تبين له فسادها أو لم يتبين له صحتها، فيكونون في نهاياتهم -إذا سلموا من العذاب- بمنزلة أتباع أهل العلم من الصبيان والنساء والأعراب.

والدواء النافع لمثل هذا المرض، ما كان طبيب القلوب صلوات الله وسلامه عليه يقوله إذا قام من الليل يفتتح الصلاة: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني

١- انظر الدرء (٣/٢٦٤).

٢- الدرء (٣/١٨٦-١٨٧).

لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[١] توجه ﷺ إلى ربه بربوبية جبرائيل وميكائيل وإسرافيل أن يهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه، إذ حياة القلب بالهداية، وقد وكلَ الله سبحانه هؤلاء الثلاثة بالحياة: فجبرائيل موكل بالوحي الذي هو سبب حياة القلوب، وميكائيل بالقطر الذي هو سبب حياة الأبدان وسائر الحيوان، وإسرافيل بالنفخ في الصور الذي هو سبب حياة العالم وعود الأرواح إلى أجسادها. فالتوسل إلى الله سبحانه بربوبية هذه الأرواح العظيمة الموكلة بالحياة له تأثير عظيم في حصول المطلوب. والله المستعان[٢].

وقال ابن واصل الحموي: أبيت بالليل وأضطجع على فراشي وأضع الملحفة على وجهي، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء وبالعكس حتى يطلع الفجر وما يترجح عندي منها شيء. ثم ترك علم التوحيد وتوجه إلى الهيئة والفلك[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ولهذا تجد كثيراً من هؤلاء لما لم يتبين له الهدى في طريقه نكص على عقبيه، فاشتغل في اتباع شهوات الغي في بطنه وفرجه، أو رياسته وماله ونحو ذلك لعدم العلم واليقين الذي يطمئن إليه قلبه، وينشرح له صدره. وهؤلاء المعرضون عن الطريقة النبوية السلفية يجتمع فيهم اتباع شهوات الغي ومضلات الفتن، فيكون فيهم من الضلال والغي بقدر ما خرجوا عن الطريق الذي بعث الله تعالى به رسوله ﷺ[٤].

سابعاً: طرق علاج الشكوك والحيرة

أول مرحلة من مراحل العلاج ذكرها القرآن لدفع شبه شياطين الجن وتشكيكهم عند

١- رواه مسلم (١٨١١/٧٧٠).

٢- شرح العقيدة الطحاوية (٢٠٩-٢١٠).

٣- راجع درء التعارض (١/١٦٥)، (٣/٢٦٢-٢٦٤).

٤- الدرء (١/١٦٥-١٦٦).

الولوج في المسائل الكبار هو الاستعاذة بالله تعالى بأنواع الاستعاذات ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾، فهو وحده سبحانه لا غيره قادر على دفعها. لذا قال النبي ﷺ: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا وكذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته» (١). وهذه المرحلة الثانية من العلاج وهي الانتهاء وعدم التسلسل والاسترسال مع الخواطر والتشكيكات الشيطانية. وفي رواية «فليقل آمنت بالله» (٢) استنادا إلى قول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ ﴾. وهذه المرحلة الثالثة وهي التلفظ بالإيمان بالله تعالى والاستعانة بكثرة الأذكار والتسبيح.

ثم النظر في الطرق القرآنية والتسلح بها في إثبات الربوبية والألوهية والأسماء والصفات والبعث والقدر والنبوة. أما إثبات توحيد الربوبية فبالنظر في الكون المشاهد ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾، فلا بد وأن يكون لها خالق هو ربها، وهو ربٌ واحدٌ لعدم اضطراب هذا الكون وسيره في نظام واحد متكامل، سواء من ليله ونهاره، وشمسه وقمره وما يتبعها. فإذا كان هو ربها وخالقها فهو الأولى بعبادته لا غيره. فمن توحيد الربوبية قرر توحيد الألوهية ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾.

ومن الطرق القرآنية في إثبات البعث قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

ومن الطرق القرآنية وفي إثبلت القدر ومسائله ذكر فيه إثبات علم الله تعالى المفصل الذي

١- رواه مسلم (١٣٤/ ٣٤٥- ٣٤٦).

٢- رواه مسلم (١٣٤/٣٤٣).

ملئت به السورة ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾. وإثبات إرادة الله الشرعية وهو ما يحبه الله تعالى ويرضاه في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ ﴾ ﴿ مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ﴾ ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ﴾. وفي إثبات إرادة الله تعالى القدرية وهو أن يقول الله للشيء كن فيكون: ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾. وفي إثبات خلق الله تعالى للعباد ولأفعالهم حسنها وسيئها ﴿ ٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ ﴾ ﴿ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾. وفي تقرير أن على العبد أن يبذل الأسباب ﴿ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ ﴾ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ﴾ ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ ﴾، هذا في نسبة الأسباب إلى العبد. وفي إثبات قدرة الله تعالى التامة المطلقة على كل شيء ممكن الوجود وأنه لا يعجزه شيء، وأنه قادر على هداية الكافر ومنعه من الكفر، وكذا الفاجر والعاصي قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾، ولكنهم هم الذين اختاروا لأنفسهم الكفر والعصيان وعاندوا بعد أن هيأ الله لهم أسباب الهداية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ﴾. وأنه لا يقدّر إلا ما فيه حكمة بالغة يستحق بها الحمد قال تعالى ﴿ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾.

ومن الطرق القرآنية في إثبات النبوة عظمة ما جاء به النبي ﷺ من القرآن المعجز الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾. كل ذلك على سبيل التمثيل والتنبيه، وإلا ففي القرآن طرق أخرى وأدلة كبرى في إثباتها.

ثامناً:

من ترك طريقة القرآن وهديه في إثبات المسائل الكبار وسلك الطرق العقلية الواردة من اليونان والهند وغيرها تجرع حينئذ مفاسدها. منها الاضطراب عند الموت، فلا تتنزل

عليه الملائكة حينئذ لتثبيته. ومنها تسلط الشياطين عليه في دنياه ليجني منها الحيرة والشك ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ ﴾ بعكس صاحب القرآن، ثم الإلحاد في آيات الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾، حيث يصرف الآيات عن دلالاتها الواضحة وعلى غير وجهها، ويتأولها التأويلات الفاسدة كما حصل لعلماء الكلام والفلاسفة ومن سلك طريقتهم.

وقد يفضي ببعضهم إلى الكفر والقول بأقوال المشركين كما قال بعضهم بخلق القرآن كالمعتزلة، وبعض الفرق الذين قالوا بأن المعنى من الله بينما صياغة الأسلوب القرآني مخلوق، إما من جبريل أو من غيره، ويدخل في ذلك النبي ﷺ. وإذا قيل بهذا وعلمنا أن المخلوق لم يصل إلى الكمال التام المطلق لأنه من خصوصيات الألوهية حينئذ يعتري الأسلوب القرآني النقص بوجه من الوجوه لأنه من صياغة مخلوق لا من الخالق، وأصبح قوله كقول المشركين ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾. فقال الله تعالى رداً على ذلك: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾، بعكس الطرق الأخرى الباطلة والتي يبطل بعضها بعضاً.

ومن نتائج تلك الطرق الفاسدة ما انتهى إليه بعض فلاسفة المسلمين من القول بعدم البعث وكفروا بالبعث، وآخرون ممن أنكر جل صفات الله تعالى ولم يثبت منها إلا سبعاً.

حججهم باطلة يبطل بعضها بعضاً، بينما طرق القرآن المفصلة بلغتهم العربية فيها الشفاء والهدى ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾.

فإذا علمت بأن القرآن رحمة وهدى وشفاء لأكبر المشكلات وأعظم الأمور الملِمّات لا سيما المسائل الكبار التي تحار فيها عقول الأذكياء فلا تحزن ولا تتشكك لعدم إيمان الكفار بالقرآن وما دعى إليه، فعدم إيمانهم لا لعدم وضوح القرآن، بل هو هدى وشفاء لمن طلب الشفاء فيه.

تاسعاً: كيف يكون مفصلاً وهدى وشفاء وقد ضل أناس ولم يهتدوا به؟

من أعرض عن الانتفاع بالطرق القرآنية، وعارضه بالوساوس والتشكيكات الشيطانية ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ ﴾، وكذا عارضه بالمظنونات العقلية والتأويلات الفاسدة لآياته ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾، ثم تسلسل مع الواردات الذهنية التي يشوبها الباطل من كل جانب، وسخر من الطرق الشرعية العقلية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾، ولم ينتفع بالطرق الشرعية في الاستدلال، بل ردها وسلك طريقة نُظّار الأعاجم من اليونان والهنود حينئذ لن يكون القرآن لهم هدى ولا شفاء، وإنما هو ﴿عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾.

هذا بالرغم من كونه بلغته العربية، فكيف لو نزل بلغة أعجمية؟ لقالوا: كيف ينزل قرآن أعجمي على العرب ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ﴾، هلا نزل بالعربية لنهتدي به وننتفع؟ فأصبحوا كحال كفار العرب ﴿ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ وكحال الذين قالوا: ﴿ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾. حالهم كحال المعرض الذي ذهب بعيداً فنودي من مكان بعيد، فلا يسمع مناديه ولا يراه ولا يهتدي إليه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾، فالحق بعيد عن قلوبهم.

عاشراً:

فلا تحزن من تشككهم وعدم إيمانهم وتشكيكهم في رسالتك وتطاولهم، فهم أهل عنت

وعناد، فإنه ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾. ومن هؤلاء الرسل موسى عليه السلام، حيث عارض بنو إسرائيل نبيهم موسى عليه السلام في عهده وبعد وفاته، عارضوا ما جاء به من القطعيات بالوساوس والتشكيكات الشيطانية والمظنونات العقلية، فاختلفوا وانقسموا إلى فرق ضالة تفوق السبعين ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ﴾. فتأصلت الشُبَهُ والإشكالات والمعارضات العقلية، فأزالت اليقين وحوّلته إلى شك الذي صاحَبَه قلق واضطراب وتهمة وخوف، فتحول إلى ريب ﴿ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾.

فلا تحزن لعدم إيمانهم وتشكيكهم، فالعبد هو الذي جنى على نفسه، لم يظلمه الله تعالى ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾. وإلا فكيف يرد الفيض النافع المتعلق بإثبات مسائل الدين الذي أتاه من عالم الخفيات الذي اختص وحده بعلم الغيب. لا سيما علم الساعة ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ والعالم بمكنونات النفوس؟ ويعارضه بمثل تلك الترّهات والوساوس الشيطانية؟ فما جهله العبد عن نفسه أكثر مما علمه، فكيف فيما يتعلق بدينه وبربه وخالقه والطرق الموصلة إليه؟

حادي عشر: إحاطة علم الله تعالى بمتولدات المخلوقات ومكنوناتها واحتياجاتها.

انتهى علم كل شيء إلى الله تعالى. من ذلك الساعة التي علم الله تعالى وقتها، وكيفيتها [1]، وأحوالها، وأشراطها، فلم تخف عليه. ومن ذلك علمه سبحانه بمتولدات جميع المخلوقات والكائنات الحية من نبات وحيوان وكل ما يستجد ﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾. فدل ذلك على علمه سبحانه بمكنونات النفس البشرية، ومداخلها ومخارجها، واحتياجاتها، وما يشبعها ويشبع تساؤلاتها، وما يسد فراغها، وطرق ذلك.

١- النظم (٦/٥٨٤).

فكيف تستنجدون وتستهدون بهدى الشياطين، والأمم الضالة، والمظنونات العقلية، وتتركون النصوص القرآنية التي جمعت أصول العلم والهدى والشفاء والسعادة؟ تلك التي ستتبرأ منكم وهي أبعد عن المعرفة بأحوالكم واحتياجاتكم ومكنونات أنفسكم! فما نفعتكم شيئاً، ولا أصلحت أحوالكم، ولا أشبعت عقولكم في طرق الاستدلال وحل الإشكال العقلي. ولا أشبعت قلوبكم، ولا ملأتها بالتأليه وصدق المحبة والذل لله تعالى، وسيأتي اليوم الذي تعترفون بذلك ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ﴾.

هكذا عاشوا على الظن لما أعرضوا عن الأصول الجامعة في القرآن، وهكذا بعثوا يوم القيامة على الظن، فظنوا أن أولئك الشركاء سيشفعون لهم وليس الأمر كذلك، ثم ظنوا أنهم باعترافهم سينجون من العقوبة ويفرون منها ولكن ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾، فلا مهرب لهم ولا ملجأ ولا معدل.

المحور الخامس: علم الله تعالى بأدق أحوال النفس البشرية وتقلباتها

إن الله تعالى يعلم أدق وألطف أحوال النفس البشرية وأجلّ أحوالها في تقلباتها واضطراباتها واحتياجاتها وعلاجها وشفائها. من ذلك على سبيل التنبيه سرعة القنوط والإحباط، إذ لا يملّ الإنسان من السعي في طلب المال والعافية، فإن كان معتاداً على العافية والسعة ثم دعانا فأخرنا تحقيق مطالبه ومسه أقل الشر ببغيه ولم يك يتوقع ذلك اشتد حزنه، وانقطع رجاؤه، وتهاوت آماله، وأحبط، ووصل إلى مرحلة اليأس، فاليأس متعلق بأعمال القلوب. ثم انقطع عن الدعاء والسعي ليصل إلى مرحلة القنوط، فالقنوط متعلق بأعمال الجوارح واللسان ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾، فهذه هي الحالة الأولى. قال سبحانه في هذه الآية: ﴿إِنَّ﴾ وهو في الأمر نادر الوقوع فلم يكن يتوقع الشر، وقال سبحانه: ﴿مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ أي أقل الشر.

بينما الحالة الأخرى لمجموعة أخرى من الناس أن أحدهم إذا أصيب بالمصيبة العظيمة والمحنة الشديدة أو المرض الشديد الذي مر عليه مروراً سريعاً ولم يطل معه ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ ثم أكرمناه بالنعم الكثيرة الوافرة المديدة تعاظم، وكفر النعمة، وأعجب بنفسه، واستبعد الحساب، وأمن العقوبة ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾. هذه سجية للإنسان. حيث طبيعته الكفر والجحود ونكران الجميل، وهذه هي الحالة الثانية للإنسان. قال سبحانه في هذه الحالة الثانية ﴿أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً﴾ من التلذذ بالنعم العظيمة المديدة، وقال سبحانه ﴿ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ أي مصيبة عظيمة ﴿ضَرَّآءَ﴾ ولكنها مرت عليه مروراً يسيراً ولم تطل معه ﴿مَسَّتْهُ﴾.

أما الحالة الثالثة فإنك غالباً ما تجد العبد المنعّم بعيداً عن الله تعالى معرضاً عن كتابه وعن الانتفاع به إلا من رحم الله، ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾. فإذا

مسه الشر المتوقع المترقب انكسر وخضع ورجع إلينا ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾، وهذه هي الحالة الثالثة له والتي تفارق الحالة الأولى. فقال سبحانه في هذه الحالة ﴿إِذَآ﴾ والتي تستعمل للأمر المتوقع.

لذا أنزل الله تعالى كتابه المحكم المفصل لمعالجة هذه النفس المتقلبة في جميع أحوالها ومعالجة اضطراباتها دقيقها وجليلها ليصلحها في جميع تقلباتها، ويشبع جميع رغباتها، وإلاّ فالشقاق والاضطراب مصيرها ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

المحور السابع: الخاتمة

ستبدي لكم الأيام والسنون والدهور أن ما جاء في الكتاب العزيز أنسب ما يكون للإنسان، وأنه الحق من عند الله تعالى، وأنه قد جمع فيه أصول العلوم والقواعد الجامعة لأصناف الخير وطرقه، وعلاج الأمراض بأنواعها، وأصناف العلوم، ومقومات السيادة والسعادة والقيادة. وأنه قد حذر فيه من جميع أنواع الشرور وطرقها، والأمراض بأنواعها الحسية والمعنوية، فكان جامعاً للهدى والشفاء ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾.

فلا عجب في ذلك، فقد علمها قبل وجودها، وعلم ساعة إيجادها، وعلمها بعد وجودها مشاهدة مرئية ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾، ثم هو سبحانه أحاط بجوامعها وقواعدها وأصولها وفروعها إحاطة تامة ﴿ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾.

فقد أحاط القرآن بتلك الأصول الجامعة وفصلها فتعانقت آخر السورة بأولها ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

ولله الحمد والمنة أولاً وآخراً والله أعلم.

سورة الشورى

مقصد السورة

عظمة الشريعة والوحي الإلهي المنزل على النبي ﷺ.

الأدلة على مقصدها

١- المناسبة بين أولها وآخرها

أ- ورد في أولها فيما يتعلق ببيان عظمة الوحي ما كُرِّر في آخرها. فالذي أوحى هذه الشريعة هو الذي له ما في السماوات وما في الأرض، فورد في أولها ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾. وورد في آخرها ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

وفي بيان علوه وحكمته ورد في أولها ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾، ﴿ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾. والذي كرر في آخرها﴿ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾.

ب- بدأت السورة بتعظيم شريعة الوحي التي من أخذ بها عَزَّ، ذلك أنك لا تجد شريعة تضاهيها فضلاً عن أن تتفوق عليها، ولا تجد فيها خللاً في أي جانب من جوانبها، ولا في حكم واحد من أحكامها، فهي عزيزة منيعة تمنح آخذها العزة، محكمة قد ملئت حكمة وعلواً وعظمة، لذا تمنح أتباعها أُمماً وأفراداً الحكمة والعزة ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾. وتمنحهم العظمة وعلو القدر. كيف لا ومصدرها الملك الأعظم ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، الذي اتصف بالعلو المطلق ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾، فتمنح آخذها عظمة وعلواً في القدر والمكانة والمكان لا سيما في الآخرة. فهي من أعظم منن الله على عباده وأعلاها، قد جاءت من الله ﴿ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾. فشريعة الوحي عزيزة حكيمة

علّية عظيمة لأنها أتت ممن كَمُلت له هذه الصفات الجليلة.

وختمت كذلك بأنَّ هذا الوحي علي حكيم، وأنَّه الروح الذي تحيا به القلوب ﴿ فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾، وهو النور الذي تهتدي به البصائر ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾. فتعانق أولها وآخرها في الدلالة على عظمة شريعة الوحي.

جـ- وفي بيان أفضل حامل للشريعة وسيد القادة ورد في أولها ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فقدم ذكر النبي ﷺ على جميع الأنبياء، وخصه عن سائر الأنبياء بهذا القرآن العربي ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾. وكرر في آخرها بقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾.

د- وفيما يتعلق بالنبي ﷺ وأنه غير محاسب على كفرهم بعد البيان وإقامة الحجة عليهم ورد في أولها ﴿ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾. وكرر في آخرها ﴿ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾.

٢- الكلمات المكررة

تكررت في هذه السورة كلمة الوحي وتصاريفها ﴿يُوحِىٓ إِلَيْكَ﴾، ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا﴾، ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾، ﴿إِلَّا وَحْيًا ﴾، ﴿فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ ﴾، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾. مما دل على أن مقصدها عظم الوحي الإلهي الذي نزل على النبي ﷺ.

٣- الكلمات المرادفة للوحي

وردت فيها كلمات مرادفة للوحي والشريعة الإلهية، إذ ورد فيها: الوحي، الشريعة،

الدين، الوصية، القرآن، الكتاب، النور، الروح، الصراط المستقيم. وجميعها إما أسماء لشريعة الوحي أو صفات لها. أما لفظ الشريعة والدين فقد قال الله تعالى ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾. وأما الوصية فقد قال الله سبحانه ﴿وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ﴾. أمّا القرآن ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، أمّا الكتاب ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ ﴿ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ﴾ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ﴾. أمّا النور ﴿وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ﴾، وأمّا الروح ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾، والصراط المستقيم ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾.

٤- تميزها

تميزت سورة الشورى باستهلالها بآيتين من الحروف المقطعة، بينما جميع السور إذا استهلت بالحروف المقطعة لا تتجاوز آية واحدة. ذلك لما في هذه السورة من زيادة في التحدي للإتيان بمثل هذا القرآن، وبمثل هذا الوحي والشريعة العظيمة.

٥- اسم السورة

ممّا تميزت به هذه الشريعة العظيمة هو الأمر بالشورى في جميع الأمور، في شؤون الحكم وجميع شؤون الحياة. فمن أخذ بهذه الوصية استقامت جميع أموره أفراداً وجماعات وأمماً، فسميت سورة الشورى. وفي هذه العصور تيقنت الأمم والدول العظمى أن الشورى من أكبر أسباب الاستقرار في العالم، وأنها الأساس لقيام الدول وشرائعها وقوانينها ودساتيرها. لذا تنادوا بها وفرضوها على الشعوب، ولكنها شورى عوراء شوهاء، فقدت كثيراً من مزاياها وبركتها، فسموها بالديمقراطية التي يتسلط فيها الظالم على المظلوم،

والغني على الفقير، وغوغاء الناس هم الذين يحكمون على أهل الحل والعقد.

٦- آخر السورة السابقة لها

أشارت نهاية السورة السابقة لها وهي فصّلت إلى عظمة القرآن والوحي الذي هو من عند الله تعالى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ ثم قال سبحانه عن القرآن: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾.

محاور سورة الشورى

المحور الأول: براعة الاستهلال في بيان عظمة الموحي المشرع وهو الله تعالى.

المحور الثاني: مميزات شريعة الوحي.

المحور الثالث: المقومات لتفعيل العمل بها.

المحور الرابع: شبهة والجواب عنها.

المحور الخامس: الوصايا الجامعة لبناء قادة شريعة الوحي.

المحور السادس: خسران من أعرض عن شريعة الوحي.

المحور السابع: الخاتمة.

محاورها

المحور الأول: براعة الاستهلال في بيان عظمة الموحي المشرع وهو الله تعالى

تُعرَف عظمة الشريعة بعِظَم المشرِّع، كما تعرف قوة الحكم بقوة الحاكم، وشرف العلم بشرف المعلوم. فالموحي هو الله تعالى، من له صفات العظمة ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾. الله تعالى الذي تهابه الملائكة مجتمعة وكذا جميع العالم العلوي ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾، كلهم وجلون من هيبته، خائفون من حلول غضبه لغفلة أهل الأرض وخطاياهم واضطراب أحوالهم وإعراضهم عن عظمة ربهم، لذا تجدهم ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الذين هم فرق شتى في الضلالة، جلّهم غارقون في الشرك الأكبر ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾. لا توجد فيهم قيادة راشدة تجمعهم على نهج قويم وتقودهم إلى الهدى وتنتشلهم من بحار الظلمات الذين هم غارقون فيه.

لذا أراد الله سبحانه جمعهم تحت قيادة واحدة، في ظل شريعة كريمة. فلكمال عظمته اختار لشريعته أفضل كلام بأفضل لغة وأفضل شريعة، واختار لهم خير البشر وهو النبي محمد ﷺ ليستلم القيادة، وكذا اختار لها أفضل الأمم لينزل الوحي بلسانها، في أعظم مدينة وهي مكة ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾.

لذا فإن العقوبة العظمى لمن عصاه وأعرض عن شريعته العظيمة، والثواب الجزيل لمن أطاعه وأقبل عليها ﴿ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾، مع قدرة الله تعالى على جمعهم على شريعته قهراً بلا استثناء، ولكنه لعظمته يختار من يشاء لطاعته ليُجلّله

رحمته ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾. أما من عصاه وحلّت عليه العقوبات فلا يتجرأ أحد من خلاّنه على نصرته وموالاته ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾، حينئذٍ يتهاوى الأولياء والشركاء أمام ولاية الله تعالى، فهم لا يملكون قدرة لنصرتهم، ولا تقديم شيء من المنفعة لهم، فضلاً عن الإحياء والإماتة. فكيف يعبدونهم ويتخذونهم آلهة، ويتخذونهم أولياء دون إذن من الله تعالى؟ وكيف يشركونهم مع الله تعالى وهو الذي بيده جميع ما سبق مما عجزت عنه آلهتهم بل يتصرف كما يشاء وهو على كل شيء قدير؟ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فاستجيبوا لدعوته وأقبلوا على وحيه العظيم الذي أكرمكم به، واجعلوه هو الحكم الذي يتحاكم إليه، واجعلوا شريعته هي الطريق والمنهج الذي يسار عليه، ووحيه هو النور الذي يهتدى به، كفى به حكماً عدلاً، كفى به مربياً، كفى به وكيلاً، كفى به سنداً وموئلاً ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾. لماذا؟

لأن الله سبحانه هو الذي ابتدأ الخلق ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فهو أعلم به وأعلم بمقاصد إيجاده وطرق استقراره وأحواله، وهو الذي خلق الإنسان فهو أعلم بحاجاته وما يصلحه من خلق وتشريع. لذا خلق من الإنسان نظيره ومن الشيء نظيره لتتم المنفعة بالنظير ويأنس به ويسعد ويكتمل الميزان ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾. ولأنه سبحانه كَمُلَ علماً ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، وكَمُلَ عظمةً وملكاً ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وكمل كرماً ورحمة ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾، وكَمُلَ حكمةً وقدرة ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، فكملت حينئذٍ شريعته.

المحور الثاني: مميزات شريعة الوحي

لعظمة الموحي وهو الله تعالى تميزت شريعة الوحي بمميزات لا نظير لها جعلتها نفيسة عظيمة القدر. من ذلك :

أولاً: أنها قامت على أصول السعادة للبشرية كلها جمعاء. فقد قامت على توحيد الله تعالى في ربوبيته وتوحيده بما يليق به من الأسماء والصفات، وعلى توحيده في العبادة، توحيده في المحبة وكمال الذل له ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾. ليس كمثله شيء في ربوبيته، وليس كمثله شيء في صفاته، وليس كمثله شيء يقصد بالعبادة بكمال الحب مع كمال الذل.

والأصل الثاني الذي قامت عليه الشريعة توحيد النبي ﷺ في المتابعة، وفي تقديم محبته على جميع البشر. فهو الذي نزلت عليه هذه الشريعة العريقة الممتدة من نوح عليه السلام ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾.

أما الأصل الثالث الذي قامت عليه فهو تأليف القلوب عليها وعدم التفرق ﴿ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾، ويتحقق ذلك بالأصلين المذكورين وبالتزكية وحسن الخلق. وقد جمع النبي ﷺ ذلك بقوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله».[1] فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فهي تزكية وتخلق، وإيتاء الزكاة ظاهر في تحقيق التزكية.

ثم بغض كل ما يتعارض مع هذه الشريعة ومقاصدها لبغض الله له ولما يلحقه من العقوبات ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾. وقد

١- رواه البخاري (٢٥).

جمع النبي ﷺ ذلك بقوله: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[1].

ثانياً: ومن مميزاتها الحبك والمتانة والكمال، لا خلل فيها، ولا تضاهيها شريعة أخرى لأنها صدرت ممن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾. مع ما تميزت به من الثبات والعراقة، فهي منهج جميع الأنبياء على مر العصور ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾. قدم ذكر نوح عليه السلام لا لأفضليته على النبي ﷺ، وإنما للبيان بأن الشريعة التي نزلت من السماء بعد وقوع الناس في الشرك ابتدأت من نوح عليه السلام وانتهت إلى النبي ﷺ، فأخذ بها جميع الأنبياء، لا سيما أولو العزم من الرسل إبراهيم ﷺ، وموسى عليه السلام، وعيسى عليه السلام، فهي شريعة عريقة ثابتة.

ثالثاً: ومن مميزاتها أنها تؤلف بين القلوب. ففي إقامة الشريعة والتمسك بها تأتلف القلوب، لأنها جمعت كل سبل الائتلاف ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾. فمن أوائل وصاياها النهي عن التفرق وأسبابه وطرقه لما في الائتلاف من المصالح العظيمة، ولا يُكْرَم به إلا من اتخذ الشريعة الإلهية منهجاً وسعى لإقامتها، فهي دين الله تعالى ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾، فيجلل حينئذ آخذها بالاجتباء والهداية إلى مصالح الدارين ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾.

لذا يجب تجنب أسباب التفرق والحذر منها، وأهمها التحاسد والتظالم، لا سيما في طلب العلم ومعرفة سبيل الحق ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾. فالتحاسد في العلم يؤدي إلى البغي ورد الحق ومن ثم التفرق. وفي التفرق

١- رواه البخاري (١٦).

تبعات وعقوبات عظيمة ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾.

لذا يجب الأخذ بمقومات الائتلاف، وعلى رأسها الدعوة إلى الاجتماع على شريعة الوحي ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ﴾. وثانيها تقويم الحياة بها، والعمل بها ﴿ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾. وثالثها عدم الزيادة عليها، وإنما أخذها كما أتت ﴿ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾. ورابعها عدم الزلل عنها بأي نوع من أنواعه كما زلَّت الأمم السابقة بالمخالفة والابتداع والتبديل والتشبه بالأمم الأخرى ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾.

وخامس ركائز الائتلاف قبول جميع ما جاء في شريعة الوحي وعدم رد شيء منها ﴿ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾. وسادس ركائز الائتلاف العدل ﴿ وأمرت لأعدل بينكم ﴾، فبالظُّلم تتفرق القلوب. وسابعها الاعتراف الدائم بربوبيته وألوهيته وحده الذي هو ذروة سنام العدل ﴿ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾. وثامنها عدم إلزام الطرف الآخر برأي الطرف الأول وحجته ما دام فيها سعة، ثم سماحة النفس عند الاختلاف ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾، وعاشرها دعاء الله تعالى للجمع بين القلوب ﴿ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ﴾.

ومن ثَمَّ لا لوم بعدها على الفئة الملتزمة بالضوابط المذكورة إذا حدثت الفرقة ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾، بل ينبغي البراءة من زيغ الفئة الضالة ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾. ولكن يجب تذكير الفرق الأخرى بالله تعالى ﴿ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾، والتوقف عن المراء ﴿ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ﴾، مع ملازمة التخويف والتهديد بالعقوبة الإلهية ﴿ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾.

رابعاً: ومما تميزت به الشريعة الغراء تلك القواعد التي رست عليها. منها أنَّ الأمور

بمقاصدها، وأنَّ أعلى المقاصد وأسماها هو الله تعالى ﴿ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾، وأنَّ الأعمال بالنيات، والنية الأسمى للعمل هي الإخلاص لله تعالى ﴿ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾. ثُمَّ جعل الله تعالى لكل عمل من الأعمال مقصداً، متى ما تحايل العامل لإبطاله بطل العمل. فعلى العامل والفقيه أن يعرف مقاصد التشريع حلاً وحرمة، ويعرف مقاصد الأعمال والعاملين ﴿ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾، فكل له عمله بقصده، قال النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله»[1]. فهي قائمة على الصدق في النيات والأعمال، وهل هذا العمل صواب موافق لشريعتنا؟ فإن لم يكن كذلك فنحن برءاء منه ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾.

وكذا قامت على اليقين لا على الشك والوهم ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾. والحق هو الثابت، فأنزل الله تعالى الكتاب مصحوباً بالحق واليقين في صغيره وكبيره، فهي قائمة على الحق واليقين، لذا تهاوت أمامها كل حجة مضادة لأنها قامت على الشك والوهم والباطل ﴿ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾، ومنها أخذت القاعدة: اليقين لا يزول بالشك.

وكذا قامت على الحق لا على الباطل، وعلى ميزان العدل لا على الظلم ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾. ثُمَّ على اللطف، ورفع الحرج والمشقة والضرر ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾، ومنها استُنبِطَت قواعد رفع الحرج.

والشريعة بنيت على ميزان جلب المصالح والمنافع، ودرء المفاسد والمضار ﴿أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾، وهذا من لطف الله تعالى بعباده ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾. وهي مجللة بالبركة ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ والقوة ﴿ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ﴾ والنصر

١- رواه البخاري (١، ٥٤).

والمَنَعة والعزة ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾، من عمل بها عز وعلا. لا تضاهيها شريعة أخرى في الاقتصاد والحكم والسياسة والقوة ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾، وعلى هذا قامت الدول. فهو سبحانه الذي يرزق الأفراد والجماعات والأمم، وشرع القواعد الصحيحة الجالبة للرزق والمقوية للاقتصاد، المثبتة له، المباركة له، وأرسى قواعد القوة والعزة والعلو في الحكم والسياسة لِتَسود على جميع الأمم.

المحور الثالث: المقومات لتفعيل العمل بها

مِمَّا يُفعِّل تعظيم شريعة الوحي الإلهية والتمسك بها بيان تفاهة الشرائع الأخرى ومقارنتها بهذه الشريعة العظيمة. تلك التي قامت على الشك والهوى ﴿وَلَا نَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾، وعلى الظلم ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي رفع الظلم الواقع بينكم من جراء الشرائع الأخرى. وقامت على الحجج الواهية الهشة ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، فهي قائمة على الباطل والكذب بضد شريعة الوحي القائمة على الحق والعدل ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾.

ومِمَّا اتصفت به الشرائع الأخرى عدا شريعة الوحي عدم ثباتها، واضطراب القواعد والأحكام فيها، وعدم اتِّزانها، بضد شريعة الوحي ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾، فالحق هو الثابت المحكم غير المضطرب. ومن تفاهتها عدم قيامها على ميزان العدل وميزان جلب المصالح ودرء المفاسد، بضد شريعة الوحي. لذا تنتهي تلك الشرائع بأصحابها إلى الضلال والضياع والحيرة ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾.

وكذا يُفعِّل تعظيم هذه الشريعة والعمل بها التخويف من العقوبة الآجلة وهي الساعة والحساب، فالساعة شديدة الاقتراب ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾. فمن آمن بها خاف وحرص على التمسك بهذه الشريعة وسعى للعمل بها، بينما من لم يؤمن بالساعة ترك العمل بالشريعة. فالمؤمنون علموا ذلك فآمنوا بها وعملوا بمقتضى إيمانهم، فبارك الله لهم في أمورهم ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾، بينما الكفار غافلون عنها غارقون في الاستهزاء بها ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾. ومِمَّا يزيد من غفلتهم عن أمر الساعة والعمل لها هو اللهث خلف متاع الدنيا الزائل ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾.

يا رسول الله ذكرهم بالأحوال التي سيلقونها يوم القيامة وبالخوف الشديد الذي يصيبهم إذا ما رأوا العقوبات وآثار السيئات التي اقترفوها ﴿ تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ ﴾ والتي ستحل عليهم ولا بد ولا مناص منها ﴿ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡ ﴾ لعلهم يتذكرون وينقادون لهذه الشريعة العظيمة.

ومِمَّا يفعل العمل بشريعة الوحي معرفة العقوبة العاجلة عند ترك العمل بها والسير خلف الشرائع الأخرى. ذلك أن الشرائع الأخرى تقوم على اللهث خلف لعاعة الدنيا والمتعة الزائلة ﴿ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا ﴾، ممزوجة بالآلام والاكتئاب والعذاب النفسي والبدني ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾. ذاك اللهث الممزوج بالآلام مبطن بالخوف من المستقبل والخوف مِمَّا هم واقعون فيه، فهم يعلمون خبثه ويخافون من نتائجه السيئة ﴿ تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ ﴾. وقد دلَّ على ذلك المصائب الواقعة عليهم المصاحبة لهم سواء في الاقتصاد أو السياسة أو في الحياة الاجتماعية والتي لا تنفك عنهم ﴿ تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡ ﴾. وهذه غالب أحوال أصحاب المتع الزائلة تجدهم في حالة اضطراب وخوف من المستقبل مع ملازمة الهموم لهم.

ومِمَّا يفعل العمل بشريعة الوحي الترغيب فيها. فترى الآخذ بشريعة الوحي متنعماً، يتقلب في بركاتها في الدنيا والآخرة ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِى حَرۡثِهِۦ ﴾، يتنزه في رياضها وبساتينها ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِ ﴾، قد ادخر لهم ربهم ما يشاؤون من اللَّذائذ ﴿ لهم ما يشاؤون عند ربهم ﴾، وزيادة فضل من الله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾. حتى لو أصابتهم المصائب فإن البشارات تتوالى عليهم لا سيما عند اشتداد الفتن ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾، وهم دوماً في عزة من أمرهم لا يسألون الناس دنياهم ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا ﴾. هذا في الدنيا أما موعودهم الأكبر فهو في الآخرة حيث الجزاء

الأعظم ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾.

ثم الآخذ بشريعة الوحي العامل فيها بجد واجتهاد ومجاهدة ومعالجة يُرْغِم نفسه على فعل ما يحبه الله ويرضاه ولو خالف هواه ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ تلك الحسنة التي يُعاب عليها ويُرمى ويُتهم بها وهو صابر رغَّبه الله تعالى فيها بمضاعفة حسناته عدداً وقدراً ﴿نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾، ووعده بالترقي في مقامات الزلفى أسمى مِمَّا كان فيه، شكراً من الله له مع غفران ذنوبه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾. ففيها الجمع بين السعادة القلبية والروحية من جهة والبدنية من جهة أخرى عاجلاً وآجلاً. فمن تقلب في ربوعها فقد تقلب في ربوع الجنات ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾.

حينئذٍ قد تثور الأحقاد من قبل أصحاب الشرائع والأديان الأخرى لما تميزت به هذه الشريعة، وتنطلق الألسن بالكذب على حملتها، لا سيما القائد وحامل هموم نشرها والعمل بها وهو النبي ﷺ، فيُتهم بالافتراء على الله تعالى وحاشاه ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، وكذا اتهام حَملتها من أتباعه. وهذه الجريمة الشنيعة والبهتان علامة وإيذانٌ بقرب هزيمة الباطل وأهله، وانتصار الحق وأهله، وظهور الأمة العاملة بشريعة الوحي، وسقوط الأمم الأخرى ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾، وكما قيل: الصياح على قدر الألم، فكلَّما عظمت المصيبة قرب انفراجها، قال ﷺ: «وإن الفرَجَ مع الكرب» [1].

١- رواه أحمد (١/٣٠٧).

المحور الرابع: شبهة والجواب عنها

إذا اعترض: بأنه لو كانت الأُمَّة الآخذة بشريعة الوحي على الحق فلماذا تعظم مصائبها وتتسلط عليها الأمم الكافرة ؟

الجواب:

لِيُعلَم يقيناً أنَّ السُّنة الإلهية التي لا تتغير ولا تتبدل أن العاقبة والنصر لأُمَّة الوحي ولا بد، وأن الهزيمة والهلاك عاقبة الأمم الأخرى ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾، هذا **أولاً**.

ثانياً: إنَّ سيئات الأمة لها دور كبير في تأخر النصر، وقد فتح الله لها باب التوبة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾. فإذا استجابوا وتابوا ورجعوا إلى الله تعالى وافتقروا إليه غفر لهم، وزادهم من فضله، ورفع عنهم البلاء ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾، ومكنهم حينئذ من رقاب الكفار ليذيقوهم العقوبات الشديدة على أيديهم، أو تتدخل يد الله سافرة بأشد العقوبات كما أهلك الأمم السابقة ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

ثالثاً: تأخر النصر لحكمة أخرى عظيمة وهي دفع مفسدة عظمى. إذ لو بسط الله تعالى للأمة ووسع عليها وتوالت الانتصارات لها مع تلطخ أفرادها بالذنوب وانغماسهم فيها لحملهم ذلك على الإمعان في البغي والطغيان أشراً وبطراً ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

رابعاً: النصر يأتي على مراحل ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾، إلى أن يجيء الانتصار الباهر ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ

ٱلْحَمِيدُ ﴾. فهذه سنّة الله تعالى، كما خلق السموات والأرض على مراحل، وخلق الإنسان والدواب على مراحل وهم أجنّة في بطون أمهاتهم وعلى مراحل بعد خروجهم إلى الدنيا ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾، فكذا يأتي النصر على مراحل.

خامساً: ثم لِتَتَيقن هذه الأمة أنَّ الله تعالى قادر على كل شيء. فكَما هو قادر على خلق السماوات والأرض ودوابها، وتدبير شؤونها على عظمتها وكثرتها، وكذا قادر يوم القيامة على جمع ما عليها من مخلوقات بعد بثّها وتفرقها وتشتتها، فهو سبحانه قادر على جمع شتات هذه الأمة وتدبير شؤونها ونصرها وجمع كلمتها تحت راية واحدة، تحت شريعة الوحي بعد تفرقها ووهنها وتسلط الأعداء عليها ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾. فالله تعالى لا يعجزه شيء، وكما لا يعجزه جمعهم وبعثهم يوم القيامة فكذا لا يعجزه هزيمة أهل الكفر في هذه الدنيا، ولا يعجزه تمكين أهل شريعة الوحي منهم ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

سادساً: وقاعدة أخرى أنَّ المصائب وتسلط الأعداء يأتي بسبب ما اقترفت يدا المصاب ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾. فلْتُراجع الأمة نفسها، ولتجعل متابعتها والتزامها بشريعة الوحي ميزاناً لها في تفوقها على الأمم، بينما هزيمتها وذلها على الضد من ذلك. فكما أن السيئات سبب في تأخر النصر، فهي سبب في تسلط الأعداء على الأمة.

سابعاً: قد تجتمع كل أسباب القوة والغلبة في مخلوق ما ولكن الله تعالى قد يوقف عمل الأسباب العظيمة ويبطل تأثيرها بأسباب أخرى أعظم منها لا تُرى في العين أو لم تكن في الحسبان، بل قد يجعل سبب قوة المخلوق سبباً لضعفه، فيقلب الأوضاع رأساً على عقب، فتتحول إلى انتكاسة وهزيمة بما كسبت الأيدي. كحال السفن العظيمة التي تمخر

في البحر، فقد يوقف الله تعالى تأثير الأسباب التي تُسِّيرها فتقف ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ﴾، أو تتحول تلك الرياح المحركة لها إلى عواصف فيُقَدِّر عليها الغرق فجأة، أو تغرق بعوائق بحرية لا تراها العين فتنتكس وترتكس في البحر بما كسبت أيدي أصحابها ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ ﴾.

ثامناً: ليعلم أنَّ الظهور والانتصار المؤقت للأمم الكافرة ما هو إلَّا متاع زائف دني، زواله قريب ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾، وأن النصر والنعيم الحقيقي هو ما ادَّخره الله تعالى لأوليائه في الدنيا والآخرة إذا أخذوا بوصاياه الجامعة المجموعة في شريعة الوحي. فاحذروا الاغترار بمتاع الحياة الدنيا الزائل.

المحور الخامس: الوصايا الجامعة لبناء قادة شريعة الوحي

قيادة الأمة وقيادة العالم تتطلب توفر وصايا جامعة:

أولها: الإيمان. فلا بد وأن يسبق الإيمانُ كلَّ الوصايا الأخرى من حيث الأولوية والتقدم، فالإيمان بالله تعالى هو توحيده في الربوبية والعبادة والتعرف على أسمائه وصفاته وتوحيده فيها. ثم التوكل على الله تعالى وما يتعلق به من بذل الأسباب المقدورة وتفويض غير المقدورة، وكذا تفويض تحقق آثارها ونتائجها إلى الله تعالى، وتعلق القلب بالله سبحانه لا بالأسباب، وحسن الظن به في تحقيق المطلوب، والاستسلام لحكمه قبل نزوله، ثمَّ الرضا بما قدره الله تعالى بعد نزول قدره، ومجموع ذلك كله هو التوكل عليه سبحانه. وهذا من أكبر الأمور المعينة على انتصار الأمة وعلوها على جميع الأمم، وقيادتها للعالم ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾.

ثانيها: اجتناب كبائر الإثم، تلك التي تجلب غضب الله تعالى فيفتح الطريق للأعداء ليتسلطوا عليها. وكبائر الإثم تمزق الأمة وتودي بها، لما تسببه من فساد ذات البين كالقتل والسحر والربا وأكل مال اليتيم، قال النبي ﷺ: «إن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول إنها تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»[1].

ثمَّ اجتناب الفواحش، تلك الكبائر التي تتنافى والمروءة كالزنا وفعل قوم لوط وما يتعلق بها من الألفاظ الفاحشة والقذف ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ ﴾. فإذا ذهبت مروءة أفراد الأمَّة وأخلاقهم سقطت الأمَّة وهانت. وفي الأثر «سيكون رجال يركبون على سروج كأمثال الرحال، ينزلون على أبواب المساجد. نساؤهم كاسيات عاريات، لو كانت وراءكم أمة من الأمم خدمهن نساؤكم كما خدمكم نساء الأمم قبلكم»[2]

١- رواه أبوا داود (٤٩١٩) وصححه الألباني في غاية المرام (٤١٤).

٢- رواه ابن حبان (٥٧٥٣) واللفظ له وأحمد (٢/٢٢٣).

وكما قيل:

إنما الأمم بالأخلاق ما بقيت ... فإذا همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ثالثها: توطين نفوس القادة على الحلم والصفح عن الرعية والمغفرة، لا سيما عند اشتداد الغضب ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾، وزيادة ﴿مَا﴾ للدلالة على تمام الغضب وكماله. لذا قيل: «الحلم سيد الأخلاق»، وسئل أحدهم: كيف سدت قومك؟ قال: «كنت أحلم عن جاهلهم، وأعطي سائلهم، وأسعى في حوائجهم».

رابعها: الاستجابة لأوامر الله تعالى ونواهيه بفعل الواجبات والمندوبات واجتناب المحرمات والمكروهات ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾، وعلى رأسها إقامة الصلاة، تلك هي الصلة مع الله تعالى، وهي التي تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾، وكذا الفزع إلى الصلاة عند حدوث الأمور المدلهمة، واستخارة الله تعالى فيها، لا سيما تلك التي تعصف بالأمّة. لذا كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلّى [1].

خامسها: مشاورة أهل الرأي أهل الحل والعقد في الأمة لتأتلف القلوب، وتسترشد العقول، ويتوصل إلى الرأي السديد فيدوم الحكم لهذه الأمة العاملة بشريعة الوحي ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾. وهذا أعظم ما تتنادى به الأمم في الوقت الحاضر، ولكنها شورى زائفة عوراء تسمى بالديموقراطية.

سادسها: هدم الخصومات وجبر القلوب وتأليفها بالإحسان والإنفاق والهدايا، والعطف على ضعفاء الأمة بالإنفاق والإحسان إليهم، وبهذا تقوى الجبهة الداخلية. وكذا الإنفاق للجهاد في سبيل الله تعالى فتقوى الجبهة الخارجية لتقود جميع الأمم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾. ثُمَّ التسلح بالقوة والشجاعة والإباء، وقوة القلب، وعدم العجز مع العدو ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾.

١- رواه أبوداود (١٣١٩) وحسنه الألباني.

سابعها: العدل عند اقتصاص الحق وفي القضاء وفي الحروب مع الأعداء، بلا تعدٍ ولا جور ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾.

ثامنها: الترقي إلى مرتبة الفضل بمصالحة الغريم، والعفو والتنازل له عن بعض الحق ليفوز بخيري الدارين بسماحة النفس ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾. وإن توقف عند حقه مطالباً به بلا ظلم بعد مطل الغريم لا سيما بعد المصالحة فلا لوم عليه ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾. وإن أراد بلوغ المنازل العليا من الفضل فبالمغفرة التامة للغريم، وإظهار الجميل، والصبر عن حقه، وعدم مطالبة الغريم به ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾، ولكن هذه مرتبة المحسنين المقربين أصحاب الدرجات العلى.

المحور السادس: خسران من أعرض عن شريعة الوحي

أمَّا من أعرض عن شريعة الوحي اعتقاداً وعملاً بارتكابه أشنع أنواع الظلم والبغي وذلك باتخاذ الأولياء من دون الله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، وكذا بمحاربة أولياء الله تعالى، والتسلط على دعاة التوحيد وظلمهم، وظلم الناس على وجه العموم فليبشر بالخسران والعذاب الأليم في الدنيا والآخرة ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

ثمَّ خسارة ثانية لم تكن في الحسبان وهي أن الخلان والأولياء والجنود الذين كانوا عدة له في مقارفة الظلم والبغي سيتخلون عنه عند بدء الشدائد، ولا يقدرون على مناصرته عند حلول المصائب والعقوبات الإلهية، بل يضلون عنه. فيرى نفسه فرداً، ويمسي وحيداً ﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾. ولو ناصروه فإنهم لا يستطيعون تخليصه من هذه العقوبات والأزمات سواءً الاقتصادية أو السياسية، لأنهم طلبوا السعادة والاستقرار من تشريعات أخرى خارجة عن تشريع الوحي، والتشريعات الأخرى لا تستطيع انتشالهم من تلك الأزمات لأنها هي أحد أسبابها، فهم منغمسون في حيرة وضياع وضلال لا ينفك عنهم ﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾، حينئذٍ تتوالى عليهم الحسرات. فالظلم هو أن لا تحكِّم شريعة الوحي. لذا تجدهم عند حلول العقوبات ورؤية العذاب يتمنون الرجوع إلى الأمر الأول، ليتداركوا ما فات من تحكيم شريعة الوحي اعتقاداً وعملاً لتعويض ما خسروه واسترداده، هذا في الدنيا.

أما يوم القيامة فالأمر أعظم، إذ يتمنون أن يردوا إلى الدنيا عند رؤية العذاب والأهوال قبل أن يسحبوا إلى النار ليعرضوا عليها ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ﴾. ولكنَّ هذه الأمنية المجردة لا تمنع الملائكة من عرضهم على النار وهم في غاية الذل، كحال الذين يستحقون القتل يعرضون على السيَّاف

لقتلهم واحداً تلو الآخر، كيف تكون أحوالهم؟ ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾.

ومِمَّا يعظم الشعور بالخسران نداء المؤمنين لهم وتَبْكيتُهُم أنهم قد خسروا النعيم الدائم واستبدلوا به العذاب المقيم. وكذا يبكتونهم بأنهم قد خسروا أهليهم فَفُرِّق بينهم. ففقدوا لذة الإجتماع مع أهليهم في النعيم، بل يعاينون تخلي أهليهم عنهم وفرارهم منهم، لينتهوا إلى الإقامة الدائمة الفردية في هذا العذاب الدائم الأبدي ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾، فلا مناص من ذلك.

إن المجرم إذا صدر فيه الحكم النهائي بالعقوبة وحدد لها يوم فإنه يرجو أحد الأمور التالية:

إمَّا مناصرة الأولياء لدفعه، أو يتمنى طرقاً للفرار منها، أو يتمنى عدم مجيء يوم تنفيذها، أو يبحث عن ملجأ يفر إليه، لا يصلون إليه فيه، أو يؤمل نفسه بإنكار الجرائم التي حُكِم عليه بها لإسقاط العقوبة، أو يبحث عمَّن يؤازره في إنكارها، أو من يؤازره نفسياً على أقل الأحوال. ولكن أنىَّ لشيءٍ من ذلك أن يتحقق؟

أمَّا الأولياء والمناصرون فإنهم يتخلون عنهم مرة أخرى عند استحكام العقوبات ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾. وأمَّا طرق الفرار فلا يرى طريقاً واحداً للفرار، بل لا توجد طرق للفرار ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴾. وأمَّا يوم تنفيذ العقوبة العظمى وهو يوم القيامة فلا مردَّ له، وأمَّا الملجأ فلا ملجأ حينئذ يفرون إليه، هذا إن وجدوا طريقاً للفرار ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ ﴾. وأمَّا إنكار الجرائم التي قارفوها فلا يقبل تنكرهم لجرائمهم ليفلتوا من العقاب ﴿ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾. حتى التعاطف فلا يوجد من

يتعاطف معهم ولا من يؤازرهم في إنكار جرائمهم، ولا من يؤازرهم نفسياً ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ لتحل عليهم العقوبة والعذاب الدائم المقيم والخسران المبين.

المحور السابع: الخاتمة

دعوة أخيرة مُلحَّة للاستجابة لشريعة الوحي العظيمة ﴿ ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾. وليعلم من أعرض عنها بأن الرسول ﷺ وأتباعه الدعاة ليسوا مسؤولين عنهم ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾. فأنت يا رسول الله غير محاسب على كفرهم، إنَّما عليك البلاغ والبيان، فلا تُحمِّل نفسك مسؤولية إعراضهم ولا كفرهم، لأننا نعلم أن طبيعة الإنسان الكفر ونكران الجميل إلَّا القليل مِّمن أكرمه الله بالشكر ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ﴾.

إنَّ الله تعالى له القدرة التامة على تدبير شؤون الخلق وهدايتهم مع كمال علمه بهم، فيكرم من يشاء بالهداية بفضله، ويخذل من يشاء بعدله. فكما أنه سبحانه لكمال قدرته يقدّر لمن يشاء الذكور والإناث، فيكرم من يشاء بالذكور لما يتميزون به من القوة، ويكرم آخرين بالإناث لما يتميزن به من الرحمة واللَّطافة، ويجمع لآخرين الذكور والإناث، ويمنع آخرين من أي منهم لكمال علمه بما هو خير لكل منهم، ومن هو أهل لذلك ﴿ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴾، فكذلك الهداية.

فالله سبحانه لكمال علمه وقدرته يكرم من يشاء بالهداية إلى شريعة الوحي ليأخذوها بقوة، وآخرين ليأخذوها برحمة ولطف وحنان، بينما آخرون يجمع لهم الكمال فيها فيجمع لهم القوة والرحمة واللطف والحنان في أخذهم بشريعة الوحي، ذلك إذا فتحوا قلوبهم لمعرفة الحق. بينما يمنع آخرين من هذه الكرامة لكمال علمه بهم وحكمته البالغة لعدم أهليتهم ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴾.

ولكمال علوه سبحانه وحكمته فإنه يختار من بين هؤلاء المصطفين للهداية ليرقيهم ويعليهم إلى التَّمام والكمال فيُسلِّمهم القيادة بالإيحاء إليهم لتبليغ شريعة الوحي وهم الأنبياء سادة البشر. وحتى هؤلاء الأنبياء القادة درجات ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾، كل ذلك لكمال حكمته. فلا يمنح إلاَّ لحكمة بالغة، ولا يمنع إلَّا لحكمة بالغة، فلا يجمع بين مختلفين ولا يفرق بين متماثلين.

وأنت يا رسول الله سيد هؤلاء القادة، وسيد الأنبياء والرسل، صاحب اللواء، قد أكرمناك بأفضل شريعة وأكرمها على الله ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾.

فاقدروا قدر هذه الشريعة العظيمة التي هي روح القلوب والتي تحيا بها ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾، ونور البصائر فيهتدى بها في غياهب الظلام ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾. إنَّها منحة عزيزة شريفة عظيمة من الله تعالى، وهبة كريمة من جلاله. حسبك بها أنَّها طريق مَلَكيٌّ، لا يدخله إلا من صرح له للالتحاق بالموكب، وأنت يا سيد البشر جعلناك قائداً لهذا الموكب ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾. وتَعْظُم الهبة بِعِظَم الواهب، فعضوا عليها بالنواجذ. فعادت آخر السورة على أولها ببيان عظم الموحي، وعظمة الوحي بما تضمن من شريعة، ثم عظمة الموحى إليه ﷺ.

ولله الحمد والمنة أولاً وآخراً والله أعلم.

سورة الزخرف

مقصد السورة

بيان أسباب الضلال عن دين الله.

الأدلة على مقصدها

١- المناسبة بين أولها وآخرها

ورد في أول السورة ذكر بعض أسباب الضلال، من ذلك استقبال دعوة الحق بالاستهزاء والإسراف في ذلك ﴿ أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾، ﴿ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾. وورد في أواخر السورة جملة من تلك الأسباب التي تهاوت يوم القيامة. من ذلك قرناء السوء الذين تبرؤوا من خلانهم وتحولت تلك الخلّة إلى عداوة ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾، ومنها الجدال والمخاصمة التي انقطعت يومئذ ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾. ومنها الكبر والمفاخرة والجاه والملك الذي تهاوى بدخولهم النار ﴿ وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾. ومنها التقول على الله تعالى دون الاستناد إلى الأدلة والبينات وشهادة الحق ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾، والاعتماد على الأوهام والظنون ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ ﴾، ومنها الاستخفاف والسخرية بالنبي ﷺ وبدين الله تعالى ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ﴾، ومعارضة دليل الفطرة ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾، وعدم الاتزان في التفكير وانتكاس العقل ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾، وجميعها أسباب للضلال.

٢- تميزها

لما ذُكِرت قصة فرعون في هذه السورة تميزت بزيادات لا توجد في باقي السور، منها قوله

﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾، فأُعجب بملكه ومنصبه وهو أحد أسباب الضلال، وكذا قوله ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ ﴾ فاستخفافه بموسى عليه السلام، واستهزاؤه به، واستخفافه بعقول قومه سبب آخر للضلال.

٣- اسمها

اسمها سورة الزخرف، وزخرف الدنيا أحد أسباب ضلالهم وزيغهم، فسميت بأحد محاورها.

٤ - آخر الآيات في السورة السابقة لها

وصف الله تعالى وحيه ودينه في السورة السابقة لها وهي سورة الشورى بأنه نور يهدي طالبه، وينقذه من الضلال ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾. ثمَّ بين الله تعالى في هذه السورة أسباب ضلال الكفار والفجار عن الصراط المستقيم، وأسباب عدم هداية الله تعالى لهم، وسبب عدم انتفاعهم بالوحي وعدم انتفاعهم ببيان النبي صلى الله عليه وسلم وإرشاده لهم.

محاور سورة الزخرف

المحور الأول: براعة الاستهلال في التحذير من أسباب الضلال وطرقه.

المحور الثاني: من أسباب الضلال معارضة الفطرة وما استقر في القلوب.

المحور الثالث: من أسباب الضلال نكران الجميل وكفرانه.

المحور الرابع: من أسباب الضلال عدم اتزان العقول.

المحور الخامس: الاعتماد على الظنون والأوهام والشكوك في الاعتقاد.

المحور السادس: التقليد الأعمى.

المحور السابع: الحسد.

المحور الثامن: الكبر والمفاخرة.

المحور التاسع: قرناء السوء.

المحور العاشر: الاستهزاء والسخرية.

المحور الحادي عشر: الحرص على الملك والجاه والمتاع الزائل.

المحور الثاني عشر: حب الجدل والمخاصمة.

المحور الثالث عشر: الخلاف المذموم.

المحور الرابع عشر: ثواب من اجتنب أسباب الضلال.

المحور الخامس عشر: تهاوي أسباب الضلال وأثرها العكسي.

المحور السادس عشر: الخاتمة.

محاورها

المحور الأول: براعة الاستهلال

لقد جعلنا القرآن المعجز عربياً تشريفاً لكم، ومن أجل أن يَذكُرَكم العالم، وتسودوا جميع الأمم، وتعلوا عليها، فهل تعقلون ذلك؟ وهو لعلو قدره عندنا ولما تميز بكمال الحكمة لا نكرم به إلا الأمة الكريمة التي لها قدر عال عندنا، فهل تعقلون ذلك؟ ﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾. فإن أسرفتم بالإعراض عنه وبسلوك طرق الضلال فإننا سنحجب عنكم هذه الكرامة لتصبحوا في طي النسيان ﴿ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ﴾، وسيكون مصيركم مصير الأمم السابقة وهو الإبعاد والإهلاك ﴿ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾. فعليكم أن تعرفوا طرق الضلال وأسبابه لتحذروها.

المحور الثاني: من أسباب الضلال معارضة الفطرة وما استقر في القلوب

أول أسباب الضلال هو مخالفة ما دلَّت عليه الفطر والعقول السليمة التي لم تنتكس ولم تتغير. فمخالفتها تزري بصاحبها، وتجرفه في هاوية الضلال. وإنَّ مما دلت عليه الفطر والعقول السليمة أنَّ خالق السماوات والأرض هو الله سبحانه ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾، والفطر والعقول تقضي بأنه لا يستحق العبادة إلَّا الذي خلقهما. فكيف عبدتم معه غيره؟!

المحور الثالث: من أسباب الضلال نكران الجميل وكفرانه

إنهم يقرون بأن الله تعالى هو المتفرد بخلق السموات والأرض وما فيهما ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾، ذلك ليهتدوا إلى إفراده بالعبادة. وهو صاحب النعم السابغة التي تأتيكم من السموات والأرض. فمن نعمه العظيمة أن جعل لكم الأرض مهداً، ويسّر لكم الطرق فيها، وأنزل الغيث، وأحيا به الأرض، وخلق الأزواج، وسخّر الدواب والفلك، كل ذلك لتهتدوا بها إلى شكره وعبادته وحده ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾. ولكن انتهى بهم الأمر إلى نكران جميله وكرمه وكفران نعمته بأن جعلوا له شريكاً في الشكر والمحبة والذل، وادّعوا أنه جزء منه وأنه ولده، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾.

المحور الرابع: من أسباب الضلال عدم اتزان العقول

إنهم يرون من العار الادِّعاء بأن هذا العبد المملوك ابنٌ لذلك الملك الحر، هكذا تقول عقول الأحرار، فكيف يدَّعون أن بعض العباد أولاد لله تعالى؟ ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾. ثُمَّ إنَّ أحدهم لا يقبل أن يشاركه عبده في شيء من ملكه، فكيف يدَّعون مشاركة العباد لله تعالى في ملكه؟ أين عقولهم؟ ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾. فكيف إذا جمعوا الشرور كلها فادّعوا أنَّ هؤلاء العباد أولاد لله تعالى، يشاركونه في تدبير الكون، ودفع الضر، وجَلْب النفع كمشاركة الابن لأبيه في تدبير شئون المنزل؟ لقد انتكست عقولهم ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾.

ومما يدل بوضوح على عدم اتزان عقولهم أنَّ أحدهم يخجل ويشعر بالذل ويسودّ وجهه أو يكاد يتضجر من شدة الغضب إذا ما بشر بمولود أنثى، ثمَّ هذه الإناث -التي يغلب عليها الإنشغال بالزينة فتشغلها عن أمور عظيمة، وتشغلها عن إتمام الحجة والبيان وإفحام الخصم- ينسبونها إلى الله تعالى؟ بينما هم يتمتعون بالأولاد الذكور؟ ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾، لقد اختلَّت عقولهم. فهذا سبب ثالث لضلالهم وهو عدم اتزان العقول.

المحور الخامس: الاعتماد على الظنون والأوهام والشكوك في الاعتقاد

عندما نسبوا البنات إلى الله تعالى ادَّعوا بأنها هي الملائكة، فهل حضروا خلقهم حين زعموا أنها إناث وبنات لله تعالى؟ هل رأوا خلقهم فرأوا فيها صفات الأنوثة؟ ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾، ما هي إلا شكوك وأوهام جعلوها أصلاً لاعتقادهم الفاسد.

ومن الأوهام التي اعتمدوا عليها في اعتقادهم في الله تعالى زعمهم أنَّ الله تعالى يحب عبادة المشركين للملائكة، إذ لو أحب أن لا يعبدوها لمنعهم من عبادتها ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾.

إنَّ من جهلهم عدم تفريقهم بين أوامر الله تعالى وما يحبه وهي إرادته الشرعية من جهة وبين تقدير الله تعالى وهي إرادته القدرية من جهة أخرى. هذا الجَهْل سبَّب لهم هذا الضلال، فظنُّوا أنَّ كل ما علم الله تعالى أنه سيحدث ويقع في الكون فكتبه بعلمه وقدَّره فهو إذاً يحب وقوعه من العبد، ويحب أن يفعله العبد، فظنوا أنَّ كل ما أراده إرادة قدرية فقد أراده إرادة شرعية. فإن كان الأمر كما زعموا فإنه يحصل تناقض، وهو أنَّ هناك من لا يعبد إلا الله، وهناك من أشرك بالله تعالى، ويوجد من يزعم في نفسه أنه الرب الأعلى كفرعون لعنه الله تعالى، فهل معنى ذلك أنَّ الله يحب ألا يعبد إلاَّ هو؟ ويحب الشرك؟ ويحب من ينفي ربوبية الله وألوهيته كفرعون؟ فما هو إذاً المحبوب عند الله تعالى؟ عبادته وحده، أم الإشراك به سبحانه، أم نفي وجوده؟ إذ كلهم واقع وحادث في ملكه سبحانه. هذه الاعتقادات بنوها على الأوهام والظنون الكاذبة.

ثمَّ كلامهم يفيد أنَّ الاستمرار في عبادتهم للملائكة إلى أن يفارقوا دنياهم أمر كتبه الله تعالى عليهم وشاءه، فكيف علموا المستقبل؟ كيف علموا أنَّ الله تعالى كتب عليهم في المستقبل الاستمرار في عبادة الملائكة؟ إنَّما هي الشكوك والأوهام والتخرصات أصَّلوها

في حكمهم على الله تعالى واعتقادهم فيه ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾.

ثم هل اعتمدوا على كتاب من عند الله تعالى يأمرهم فيه باعتقادهم الشركي ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾؟ فهذا سبب رابع لضلالهم وهو اعتمادهم على الظنون والأوهام والشكوك في اعتقادهم في الله تعالى.

المحور السادس: التقليد الأعمى

الدليل الوحيد الذي احتج به المشركون لشركهم هو تقليدهم الأعمى لما ورثوه من آبائهم، وإن تضمن سباً وشتماً لله تعالى؟ ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ وهي حجة من سبقهم من الأمم الكافرة حيث قالوا: ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾. إن كان التقليد هو طريق الهداية فلِم لا تقلدون جدكم الذي تفخرون به دوماً وهو إبراهيم الخليل ﷺ الذي وحّد الله تعالى وتبرأ من عبادة أبيه وقومه؟ لماذا تخليتم عن هذا الإرث العظيم الزاهر ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾. وهذا هو السبب الخامس لضلالهم وهو تقليدهم الأعمى لبعض آبائهم.

المحور السابع: الحسد

الحسد أحد أسباب الضلال الذي ضلت به الأمم السابقة، ومنهم اليهود. وها هم العرب لا سيما قريش وثقيف يتابعونهم في هذا المرض القلبي، فقد حسدوا النبي ﷺ لما نزلت عليه النبوة وخصه الله بها دون عظمائهم فقالوا ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾. فلم يقبلوا أن يكرم الله تعالى نبيه محمداً ﷺ برحمة النبوة فيخصه بها ويقسمها له ويصرفها عن عظماء قريش وثقيف، فحسدوه لذلك ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾.

هم لا يملكون القسمة الدنيوية في معيشتهم الخاصة بهم، فالله تعالى هو الذي قدَّر الجاه لمن شاء منهم، وقدَّر المنصب والشرف لمن شاء، وقدَّر المال لمن شاء، وقدَّر لكل مخلوق معيشته الخاصة به، فقسم لكل مخلوق ما شاء بحكمته وعلمه. فكيف بقسمة النبوة والرسالة؟ أليست هي من اختصاص الله تعالى؟

وليعلم العبد أنه مهما حاول أن يغير شيئاً مِّما قدره الله له فلن يستطيع، إنما عليه بذل الأسباب الشرعية، فالعبد محاسب على بذله للأسباب فقط، غير محاسب على النتائج، والأمر بعد ذلك يعود إلى الله تعالى، فيرزق من يشاء. فلا يمدن العبد عينيه إلى ما متّع الله به غيره من النعم حاسداً إياه، لا سيما نعمة الاصطفاء والاجتباء والهداية. فهذا سبب سادس للضلال وهو الحسد.

المحور الثامن: الكبر والمفاخرة

قيل: «أسباب الكفر ثلاثة: الكبر والحسد والملك». فالكبر أحد أسباب الكفر، والكبر هو إزدراء الناس والشعور بالعظمة والكمال في نفسه، وعدم قبول الحق من غيره. قال النبي ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»[1]. والكبر قد يكون بسبب الشرف، وقد يكون بسبب كثرة المال ولذا قالوا ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، إذ يرون في أنفسهم أنهم أولى بالنبوة من النبي ﷺ لما لهم من الكمال والعظمة والشرف.

وكذا مفاخرة العبد بما عنده من المال وزخارف الدنيا من أسباب الزيغ والضلال ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. والمفاخرة والكبر متآخيان وهما السببان السابع والثامن للضلال.

١- رواه مسلم (٩١).

المحور التاسع: قرناء السوء

إنَّ قرين السوء من شياطين الإنس أو الجن يزيّن المعصية، ويؤزُّ قرينه ويوسوس له للإصرار على الإعراض والصد عن الحق ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾، ولكنه سينقلب عليه يوم القيامة ويتبرأ منه. إذ كيف يستبدل صحبة الأدنى بأفضل صحبة ورفقة في الدنيا والآخرة، وهي صحبتك أنت يا رسول الله، صحبتك التي فيها نجاة الدنيا والآخرة؟

أما علموا أن وجودك بينهم رحمة لهم، وبركة، ووقاية من العذاب الإلهي؟ فكيف بمصاحبتك ومتابعتك؟ ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾، لقد أكرمناهم لأجلك، ولوجودك بينهم، وإلَّا فإنا قادرون على إهلاكهم وإلحاق الوعيد بهم أمام عينيك ولا يقف أمامنا أحد ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾.

أيها العبد المتنسك! يا طالب الحق! تمسك بالوحي وليكن هو صاحبك وصديقك وأنيسك، وعض عليه بالنواجذ، ففيه عزك وعز قومك ومن تابعك. وإياك ومصاحبة المشركين، لا سيما عظماء المشركين، وذوي القربى والرحم منهم، فطريقهم باطل، ومآلهم إلى ضلال. فنوصيك بما وصينا به رسولنا المقرب ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾.

فإياك وقرناء السوء، وعليك بمصاحبة الرسل والدعاة، وتمسك بهديهم، واسألهم لتتعلّم منهم ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾، وهذه وصيتنا لرسولنا الكريم ﷺ.
وهذا هو السبب التاسع للضلال وهو قرناء السوء.

المحور العاشر: الاستهزاء والسخرية

لقد جاء موسى عليه السلام بآيات عظيمة واضحة، وكل آية أعظم من الأخرى، فقابلوها بالسخرية والضحك ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَا﴾. ثم أتبعناها بآيات أخرى من نعم الله تعالى فقابلوها بالاستخفاف والتكذيب بقولهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾. فهذا سبب عاشر للضلال وهو الاستهزاء والسخرية من الحق والرسل والآيات والدعاة إلى الحق.

المحور الحادي عشر: الحرص على الملك والجاه والمتاع الزائل

إنَّ الحرص على الجاه والملك والارتياع من ضياعه وفقده من أسباب الإعراض عن الحق والصد عنه. هذا فرعون، من أسباب صدوده عن الإيمان بموسى عليه السلام الحرص على الجاه والملك والشرف، وقد ربى قومه على الخضوع له وخشي من ضياعه، لذا احتج بمثل هذه التفاهات ليدوم له ملكه قائلاً: ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾.

وكذا من أسباب ضلاله وعدم متابعته موسى عليه السلام حرصه على المتاع الزائل والشهوات التي يتمتع بها في ملكه المزعوم ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾، فأهلكناه وذهب ملكه ومعه المتاع الزائل، وأصبح مثلاً يضرب لمن بعده ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾. فالحرص على الملك والجاه والشرف والحرص على المتاع والشهوات سببان للضلال، وهما السببان الحادي عشر والثاني عشر، قال النبي ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»[1].

١- رواه أحمد (٣/٦٤٠) وصححه الترمذي (٢٣٧٦) وابن حبان (٣٢٨٨) والألباني.

المحور الثاني عشر: حب الجدل والمخاصمة

يتميز أهل الباطل بالمراء وشدة الجدال لتلبيس باطلهم وترويجه على العامة، كحال فرعون الذي استخف قومه بالحجج الواهية ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ﴾.

وكذا كفار قريش لما أنزل الله سبحانه قوله ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ احتجوا بعبادة النصارى لعيسى عليه السلام وبعبادتهم هم للملائكة ليثبتوا أن الآلهة لا تعذب. إذ كيف يعذب الله عيسى عليه السلام والملائكة؟ وقالوا: النصارى تعبد عيسى ابن مريم عليه السلام ونحن نعبد الملائكة، فهل عيسى عليه السلام يعذب؟! فإذا كان عيسى عليه السلام لا يعذب وهو الذي تعبده النصارى فالملائكة التي نعبدها أولى أن لا تعذب، أليست الملائكة خير من عيسى عليه السلام؟ ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾. فإذا تبين أن هذه الآلهة لا تعذب بطل القول بتعذيب الآلهة والقول بأنها حصب جهنم، إذاً سائر آلهتنا من الأحجار والأصنام والقبور لا تعذب كذلك، قياساً على عيسى عليه السلام والملائكة.

وقالوا: أمَّا إن كانت آلهتنا من الأحجار والأصنام وأصحاب القبور ليست خيراً من عيسى عليه السلام فهو إذاً خير منها، فعيسى عليه السلام إذاً قدوتنا، وبذلك يكون أصلاً يقتدى به. فإذا لم يعذب عيسى عليه السلام بالرغم من كونه يعبد وهو الأصل الذي يقتدى به فحينئذ لا تعذَّب آلهتنا؟ فيجري عليها ما يجري لعيسى عليه السلام، فهي تبع وهو الأصل ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴾. فقالوا: في كلتا الحالتين آلهتنا لا تعذب.

ومن ثَمَّ احتجوا بذلك لأمرين: أولهما أن القرآن ليس من عند الله تعالى لما زعموا فيه من التناقض. ثانيهما صحة شركهم وعبادتهم لآلهتهم. فضجَّت أصواتهم وعلت

فرحاً وسروراً بهذه الحجة الساقطة ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾، يصدون أي يصيحون حتى علت أصواتهم سروراً، وهم يعلمون تمام العلم بطلان حجتهم.

فأجابهم الله تعالى بالآتي:

أولاً: تأصيل العبودية لله تعالى.

نبي الله عيسى عليه السلام ليس إلهاً ولا شريكاً ولا ابناً لله تعالى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ ﴾، ولكنه عبد عظيم، لذا ورد وصفه بالعبودية بالتنكير المنون ﴿ عَبْدٌ ﴾. ولكمال عبوديته لنا وحدنا أصبحت له مكانة عالية عندنا ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ وجعلناه من آياتنا ﴿وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾، جعلناه مثلاً يدل على عظم قدرة الله تعالى، إذ كيف يخلق ذكر من أنثى بلا أب ذكر؟! أي بلا نطفة ذكرية، فالأنثى لا تحمل صفات الذكورة، ولا يمكن استنساخ ذكر منها نظرياً. وقد كان عيسى عليه السلام يظهر عبوديته لله تعالى بين بني إسرائيل ليضرب لهم المثل بذلك بالرغم من كونه آية. فلا يجوز أن يُعبد شيء غير الله تعالى، فلا إله إلا الله.

ثم تلك الجنّ النكرة المعبودة من دون الله تعالى والتي تسعى لتُعْبَد من دون الله تعالى أين هي من عبدنا عيسى عليه السلام الذي كان يظهر عبوديته لله تعالى؟ وأين تلك الحجارة والأصنام من عبدنا المقرب عيسى عليه السلام ذي المكانة الرفيعة؟! هذا القياس من أفسد أنواع القياس. فاعلم أنهم ما أثاروا تلك الشبهة إلا بقصد الجدل والمخاصمة والصد عن سبيل الله تعالى ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾.

ثانياً: عبودية الملائكة لله تعالى.

والملائكة كذلك عباد لله تعالى، ليسوا أولاداً له - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وليسوا

آلهة مع الله تعالى. نحن لنا من القدرة العظيمة المطلقة ما نستطيع أن نجعل لكم آية أعظم من آية عيسى عليه السلام. إذ نحن قادرون على أن نجعلكم تتناسلون الملائكة وتتوالدونها، لتروها كيف تعبد الله وحده في الأرض. وسيتبين لكم حينئذ أن الملائكة ليست بنات الله تعالى، وإنما هي مخلوقات خلقت من مخلوقات أخرى ولم تتولد من الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. إنما هم عبيد لله تعالى ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾، ولكنكم بعد ذلك ستكفرون وتشركون وتصدون.

ثم أين الملائكة ذات القدر العالي عند الله تعالى من آلهتكم الوضيعة: اللّات والعزّى ومناة وهبل؟ فكيف تقيسون هذه بالملائكة المقربين؟ أين عقولكم؟ ما أردتم إلا الجدال والمخاصمة ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾.

ثالثاً: أما الآية التي احتجوا بها فقد بيّن الله تعالى فيها أنّ الآلهة التي تكون معهم وقوداً للنار هي الحجارة المعبودة وليس عيسى عليه السلام ولا الملائكة الكرام. لأن المشركين والكفار في حقيقة أمرهم يعبدون الحجارة التي صنعوها وسجدوا لها ونذروا لها. لذا قال تعالى ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾، ﴿ وَمَا ﴾ لغير العاقل، بينما عيسى عليه السلام والملائكة كلهم عقلاء، فآية ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ لا تشملهم ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾.

رابعاً: لو شملت (ما) العاقل وغير العاقل فإن الملائكة وعيسى عليه السلام لا تشملهم هذه الآية لأنّ الخطاب موجه على وجه الخصوص لمشركي قريش، لأنّ الله تعالى قال: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾، ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ يا مشركي قريش، ﴿ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ وهم في حقيقة أمرهم لا يعبدون الملائكة وكذبوا في ذلك، بل يعبدون اللّات والعزّى ومناة وهبل وإساف ونائلة والجنّ. فهذه ليست أسماءً للملائكة، والجنّ هي وراء عبادة المشركين لتلك الآلهة، كما قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ

لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾. فهذه الآلهة وهي الجنّ هي المقصودة في الآية، وتشمل كل من كان في حكمها، وهو كل من رضي بأن يعبد من دون الله تعالى سواءً عُبد من قبل قريش أو من قبل غيرهم. ولكنهم قوم ما أرادوا إلا الجدال والمخاصمة ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾.

خامساً: ثم نحن قد قرنا في القرآن في أكثر من موضع بأنه لا تزر وازرة وزر أخرى. فلمّا ذكرنا عبادة المشركين للآلهة كما في سورة فاطر ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾ الآية، أردفناها بقولنا ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾. وأنتم أيها المشركون تعلمون ذلك تمام العلم، ولكنكم تتجاهلونه. وها نحن نبهنا مرة أخرى بصيغة أخرى وحجة أوضح بياناً: إن كان عيسى عليه السلام سعى في عبادته والشرك به مع الله تعالى كما سعت آلهتكم في ذلك وهي الجنّ ورموزها من الأصنام وغيرها التي كانت تحقق رغباتكم عند عبادة الآلهة فقيسوا عيسى عليه السلام عليها، وقولوا حكمه حكم الآلهة. ولكن الأمر ليس كذلك، فالقياس فاسد ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾.

سادساً: إن عبدنا ورسولنا عيسى عليه السلام جاء بالبينات والدلائل على وحدانية الله تعالى ووجوب عبادته وحده، ونهى عن الشرك به وعن ادّعاء الولد لله تعالى، وجاء بوجوب متابعته في ذلك وفي جميع ما جاء به بصفته رسولا نبياً. هذه حجة قاطعة قاضية على حجتهم الواهية وخصومتهم ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾، وهكذا رسول الله ﷺ جاء بما جاء به عيسى عليه السلام. فإن كانت آلهتكم سعت سعي عيسى عليه السلام في منعكم من الشرك بالله تعالى

ومن عبادتها فقيسوها حينئذٍ على نبينا عيسى عليه السلام واحتجوا بحجتكم التي ذكرتموها. وإن لم تكن آلهتكم كذلك، بل سعت للاستمرار في عبادتها، فكيف تقيسونها عليه؟ فهذا من أفسد القياس الدَّال على انتكاس العقول ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾.

سابعاً: وكذلك إذا نزلت الملائكة فإنهم سيدعونكم إلى ما دعا إليه عيسى عليه السلام لما أتى إلى بني إسرائيل، وما سيدعو إليه عند نزوله قبل قيام الساعة ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾، وهي الدعوة التي دعاكم إليها نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم فصددتم عنها واستهزأتم بها وخاصمتموه فيها. وكذلك الملائكة لو نزلت إليكم فإنكم ستتعاملون معهم كما تعاملتم مع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالتكذيب والكفر. حينئذٍ سيكون نزولهم ووجودهم بينكم وإصراركم على الكفر علامة لقيام الساعة، وإنهاء لهذا النظام الكوني إلى نظام جديد وبعث آخر، كما أن نزول عيسى عليه السلام علامة لقيام الساعة ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾، تلك الساعة التي تكفرون بها.

ثامناً: اعلموا بأن عيسى عليه السلام سينزل قبل قيام الساعة ويقاتل كل من يعبده من دون الله تعالى، ويقاتل أعداءه من اليهود، ليكون ذلك إيذاناً بقيام الساعة ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾؛ وكذلك لو حدث ونزلت الملائكة إلى الأرض وتوالدتموها لقامت الساعة حينئذ ﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ ﴾، تلك الساعة التي تكفرون بها ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾. فدعوكم من تلك المخاصمة التافهة ﴿ وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾.

ودعوكم من الجدال بالباطل، فهذه الحجج الإلهية تروي غليل طالب الحق، وتُلْقم صاحب الباطل حجراً. وهذا السبب الثالث عشر للضلال وهو حب الجدل والخصومة.

تاسعاً: وليعلموا تمام العلم بعد هذه البينات والحجج القاطعة أنا قادرون على أن نهلكهم، ونجعل بدلاً منهم ملائكة يخلفونهم، فالملائكة لا يعترضون ولا يجادلون ولا يخاصمون بالباطل، إنَّما هم سامعون مطيعون، لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾، أي لجعلنا بدلاً منكم ملائكة، ولكننا نريد أن نبتليكم. ولو نزلت الملائكة بدلاً منكم لكان ذلك إيذاناً وعلامة لقيام الساعة كما أن نزول عيسى عليه السلام علامة لقيام الساعة ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾.

المحور الثالث عشر: الخلاف المذموم

الخلاف المذموم من الصوارف عن الحق. ويسمى الخلاف مذموماً إذا توفر فيه أحد شرطين: أولهما إذا كان الخلاف غير مبني على البينة والدليل، وإنما على الرأي المجرد. والثاني: إذا بلغ الجدل فيه مرتبة المراء، ولم ينضبط بضوابط أدب الخلاف. فهذا الخلاف المذموم من أسباب الخصومة والنزاع، ويولّد في القلوب الضغينة والحقد، ثم رد الحق كحال قريش وأمثالهم ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾.

فالأنبياء جاؤوا لجمع الناس على كلمة واحدة، وطريق واحد مبني على الأدلة والبينات، محكم تمام الإحكام، محلّى بالأدب، مرصّع بالحكمة ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ﴾، منضبط بتقوى الله وطاعة الرسول ﷺ ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾، ومُجلّل بالبركة الإلهية. ويتحقق ذلك الاجتماع والتآلف بمتابعة الأنبياء، والسير على هديهم وطاعتهم لا سيما في مسائل الخلاف. ثم بترك المراء وهو كثرة الجدال، وترك الاضطراب فيه وفي طرح المسائل، وبتجنب تشكيك الطرف الآخر لا سيما إن كان محقاً ﴿ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾.

إذ الخلاف سُنّة إلهية في البشر، فالأنبياء جاءوا بهذه الضوابط لتضبط الخلاف وتضبط التعامل معه. فمن اتقى الله تعالى في الخلاف وأطاع أنبياءه وتأدب بأدبهم ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾، واستعمل الحكمة فيه تآلف حينئذ مع إخوانه، وحينئذ يتبين أنَّ خلافه معهم لم يكن سبباً للقطيعة، ولم يزغ عن طريق الهدى، ولن ينجرف في طريق الضلال. بل ستنتهي بهم تلك الضوابط إلى الإقرار والتأكيد على قاعدة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾. ولكنهم لم يتمسكوا بتلك الضوابط وخالفوها، فكان سبباً في تفرقهم أحزاباً وضلالهم ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ ﴾. وهذا السبب الرابع عشر للضلال وهو الخلاف المذموم.

المحور الرابع عشر: ثواب من اجتنب أسباب الضلال

السيادة والشرف الحقيقي مصير الآخذين بالشريعة، المتمسكين بهديها، المجتنبين سبل الضلال. فلن ينكر الله إحسانهم وجميلهم حين تجنبوا أسباب الضلال وطرقها، فشكروا الجميل الإلهي، واتقوا الله تعالى فعبدوه وحده، وانتقوا أخِلاَّء الصلاح الذين يعينونهم على هذا الطريق، وتجنبوا قرناء السوء. فحفظ لهم خلتهم يوم القيامة ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾، فكانوا أقرب الخلق إلى الله تعالى ﴿ يَـٰعِبَادِ ﴾، بحذف الياء ليدل على كمال القرب. لقد سلَّموا للرسل وبما جاؤوا به بدلاً من مخاصمتهم وجدالهم ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾، وقدَّموا المُلك والشرف الدائم الأخروي على المُلك والجاه والشرف المتهافت الدنيوي ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾.

وجعلوا المفاخرة والشهوة والمتاع الحقيقي والتنافس مقصوراً على محبة الله تعالى والفوز بنعيم الجنة وعلوّ المكانة يوم القيامة، بدلاً من المفاخرة في ذهب الدنيا والحرص على زينتها وشهواتها ومناصبها، فأبدلهم الله خيراً ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾.

لقد اجتنبوا إرث الشرك الذي ورثوه من آبائهم، فلم ينتهجوا سبيل التقليد الأعمى للآباء، ولكنهم ورثوا الإرث الجميل من الأنبياء والدعاة وهو العلم النافع، والعمل الصالح، فأثمر لهم فاكهة طيبة كثيرة في قلوبهم وعلى ألسنتهم وجوارحهم، فكان هذا هو جنة الدنيا عندهم. فأثابهم الله تعالى يوم القيامة الإرث المدَّخر لهم وهو جنة الآخرة ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾.

المحور الخامس عشر: تهاوي أسباب الضلال وأثرها العكسي

وأما أهل الضلال فقد تجرعوا مرارة قرناء السوء يوم القيامة، وجنوا عداوتهم ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾. لقد تَنكّروا لهم كما تَنكّروا هم للجميل الإلهي في دنياهم. إنهم سيتجرعون مرارة النكران الدائم للجميل الإلهي بدوام العذاب ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾، وسيذوقون مرارة استمرارهم في المخاصمة والجدل بالباطل وعدم فتورهم عنهما في الدنيا بعدم فتور العذاب عنهم يوم القيامة ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ ﴾. فانقطع جدالهم وخرست مخاصمتهم للحق بعدما استقروا في جهنم، فأيسوا وانقطع رجاؤهم في النار ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾. انظروا يا أهل الإيمان الآن! أين استهزاؤهم بكم وسخريتهم؟ ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ لقد انقطعت سخريتهم واستهزاؤهم.

إنهم هم الذين جنوا على أنفسهم ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فاستقر بهم الحال في جهنم، وتهافتت حينئذٍ المفاخرة في الدنيا والتكالب على المُلك الدنيوي الزائل، فأسقط في أيديهم، واعترفوا بزوال ملكهم وسيادتهم التي كانت سبباً في ضلالهم. بل أذعنوا بأن الموكل فيهم الآن ويملك زمام أمرهم هو «مالك» خازن النار، أعاذنا الله منها. واسمه مناسب لذلك، إذ تحول ملكهم المزعوم إلى «مالك»، وهو القيم عليهم في النار ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾. أين مُلكهم الدائم؟!

لم ينفعهم إرث الآباء الذي كانوا يتذرعون به فقلدوهم في الكفر، وكانوا يكرهون مخالفتهم ولو كان المخالف لهم رسول الله ﷺ، ولو كان المخالف لهم الوحي، ولو كان المخالف لهم القرآن وهو الحق من عند الله تعالى ﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾.

لقد كانوا يكرهون الحق، ويتناجون مستهزئين به ساخرين منه، ويلهثون وراء سبل

الضلال، ويقُروّن في سرهم صدق ما جاء به رسول الله ﷺ. ها هم يتجرعون مرة أخرى مرارته ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾.

إنَّ القول على الله تعالى والاعتقاد فيه لا يُبنى إلَّا على أصول محكمة ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾، لا على الأوهام والشبهات والشكوك التي ساروا عليها، فهذا تلاعب وخوض في الباطل ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ فهذا مصيرهم.

فالله تعالى أعظم الذوات، وهو معبود أهل السماء، ومعبود أهل الأرض، وله ملك السموات والأرض، كيف يُتقوَّل عليه بلا علم؟ ويُتلاعب في إثبات كبريائه وعظمته ووحدانيته؟ وينسب إليه الولد؟ بل الإناث؟ ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾. فهو سبحانه أعلم بنفسه، بل وأعلم بما يخصكم، وأعلم منكم بدنياكم وساعة خرابها ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾. حينئذ سترجعون إليه، وسيحاسبكم على جرأتكم على جلاله وافترائكم عليه.

ثم تدَّعون أن آلهتكم تملك الشفاعة عندالله تعالى؟ وأنَّ بعض المخلوقات يملك الشفاعة؟ ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ﴾. إنه لا تقبل شفاعة أحد من الخلق إلا من أذن الله له بالشفاعة، فكيف يملك الشفاعة؟ لا يملك الشفاعة أحد إلا الله تعالى. أما التقدم بها بين يديه فهو وحده الذي يشرعها ويأذن بها، فلا يقبل مدعيها إلا إذا أتى بحجة واضحة من الله تعالى ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

إنه لا يقبل القول في عظمته وجلاله إلَّا بشهادة حقة، وشهود عدول ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾. من ذلك شهادة الفطر السليمة المستقرة في العقول التي لم تمسخ. إنها تشهد بوحدانيته، فهذا علم يقيني وهو علم الفطرة ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ

وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾.

فما عاينوه الآن بعد البعث هو عيشهم الحقيقي، وهو الحياة الحقيقية. فهذا العذاب هو العذاب الحقيقي، وهذا النعيم هو النعيم الحقيقي وهو الذي يستحق التنافس عليه، لذا ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ﴾. فهل نفعهم حسدهم إياك؟ هل نفعهم استهزاؤهم وسخريتهم؟ ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾.

المحور السادس عشر: الخاتمة

لقد بيَّن القرآن العربي سُبلَ الضلال أتم البيان لعلهم يجتنبونها ليهتدوا في دنياهم، لكنهم أَبوا إلا أن يسلكوها وكرهوا مجانبتها ﴿ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾.

هذا البيان القرآني لا يماري فيه إلا من غلب عليه السفه ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ ﴾، وانتكس عقله ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾، لا يماري فيه ذو بصيرة، ولا من له قلب يعقل. كما ورد في أولها بيان سفههم ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ وانتكاس عقولهم ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾.

لقد خالفوا كلَّ ما تدعو إليه الفطر السليمة والعقول الراشدة ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ فسلكوا أسباب الضلال كما ورد في أولها ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

لقد ظهرت حقائق القرآن يوم القيامة بوضوح كما كان واضحاً في الدنيا في عرضه وبيانه، وكما ورد في أول السورة ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، لكنهم لم يعقلوا ساعتئذٍ، فتهاوت يوم القيامة جميع أسباب الضلال وانتكست على أصحابها لما انتكست عقولهم بسلوكها ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾.

لقد أصروا في الدنيا على طرق الضلال وعدم الإيمان ﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ كما ورد في أولها ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾، فسلكوا كل أسباب الضلال.

يا رسول الله! أنت الآن في المرحلة الأولى من الدعوة، مرحلة بناء القاعدة وتأسيسها، لست في مرحلة المحاسبة والتأديب، لذا تجاوز عنهم، فولِّهم ظهرك وأعرض عنهم وجانبهم إذا أصرّوا على سلوك طريق الضلال ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾.

﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ ﴾ وتعامل معهم كما تتعامل مع الجاهلين ﴿ وَقُلۡ سَلَٰمٌۚ ﴾، ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ عاقبة ذلك، كما توعدهم الله تعالى في أول السورة ﴿ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾. لقد توعدهم الله تعالى بضرب الصفح عنهم في أول السورة ولكنه نوع خاص ﴿ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ﴾. هذا النوع من ضرب الصفح الإلهي عقوبة وتأديب وعبرة لغيرهم. فتطابق آخر السورة مع أولها.

ولله الحمد والمنة أولاً وآخراً والله أعلم.

سورة الدخان

مقصد السورة

شدة الانتقام الإلهي.

الأدلة على مقصدها

١ - المناسبة بين أولها وآخرها

أ- أشارت الآيات الأولى في السورة إلى الانتقام الإلهي الدنيوي، وختمت بذكر الانتقام الإلهي الأخروي. ففي مقدمتها ذُكِرَت بعض صور الانتقام الدنيوي، منها انتشار الدخان سواءً كان المقصود بالدخان العقوبة التي أصابت قريشاً لما كفروا بالنبي ﷺ أو الدخان الذي هو من علامات الساعة الكبرى للإيذان بخراب هذا العالم المشاهد ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾. ومنها الانتقام بالبطشة ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾.

أما في آخرها فقد ختمت بذكر العقوبة الأخروية للكافر ﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ ﴾.

ب- وكذا ورد لفظ الترقب في أولها وآخرها. إذ تكرر لفظ الترقب، وهو ترقب عقوبة الكفار وانتقامنا منهم، فقد ورد في أولها ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾، وختمت السورة بقوله تعالى ﴿ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾.

٢ - تكرار ذكر العقوبات وتنوعها

لقد شحنت السورة بذكر ألفاظ تدل على ألوان من العقوبات والإشارة إليها والتحذير منها من أولها إلى آخرها. من ذلك الدخان، البطشة، الانتقام، منذرين، مرسلين،

وقولهم: اكشف عنا العذاب، عقوبة قوم فرعون، العذاب المهين. ومنها ذكر إهلاك الأمم الكافرة ﴿ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾، ومنها توعدهم بيوم القيامة ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾، ومنها العقوبات في نار جهنم ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾، ثم تلتها أنواع من العذاب والعقوبات في نار جهنم، وختمت بترقب العقوبة.

٣- ما تميزت به

ورد في سورة الدخان بعض الألفاظ التي تميزت بها عن باقي السور لتساهم في تحقيق مقصد السورة:

أ- إذ ورد فيها في حق المؤمنين ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ فنفى عنهم الموت في الجنة. وفي الاستثناء ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ إشارة إلى نفي النعاس والنوم. ولزيادة في البيان في قول الله تعالى ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾. إلا موتة الدنيا التي ماتها ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾، مما يدل على أنهم لا ينامون كذلك. إذ لو وقع في حقهم النوم لاستثناه الله تعالى، ولقيل (لا يذوقون فيها الموت إلا النوم) إذ النوم أخو الموت. فلمّا استثنى الله تعالى البعيد وهو موتة الدنيا ولم يستثن القريب وهو النوم دل على عدم النوم فيها.

ففيها كمال النعيم وأتمه، وكمال الأمن للمؤمنين من المنغصات فضلاً عن الأمن من الانتقام الالهي ليقابل شدة العقوبة الإلهية لمن يستحقها ﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾.

ب- وورد فيها ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾. إذ بعد

غرقهم أصبحت جناتهم وبساتينهم وزروعهم وبلدهم بأكمله نهباً لكل ما حولها من البلاد، وهذا يدل على شدة الانتقام الإلهي.

بينما في الشعراء ﴿ فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ أي أورثنا كنوزهم بني إسرائيل، فأخذوها ليلاً قبل خروج الفراعنة لملاحقتهم، وكذا بعد أن أغرقهم ألقى بجثثهم إلى الساحل فسلب بنو إسرائيل ما تبقى من حليهم التي كانت عليهم. وهذه الوراثة كونية قدرية، أي قدرنا ذلك، ولا يعني أن الله تعالى أذن بها شرعاً.

جـ- وورد فيها ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾. لفظ ﴿ رَهْوًا ﴾ مما تميزت به السورة، إذ لم يرد في غيرها من سور القرآن. والرهو هو السعة والرفق والسهولة والرفاهية. أي على الداعي إلى الله أن يكون سهلاً رفيقاً ذا سعة صدر، وليدع الانتقام لله تعالى ولأمره، فانظر كيف يكون انتقامنا وكيف شدته.

د- وورد فيها ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾، فالعقوبة بالغة، غاية في الانتقام حيث لم يحزن على عقوبتهم أحد.

٤- اسم السورة

اسمها الدخان، والدخان نوع من أنواع العقوبات، وهو من علامات الساعة. فالدخان تنبيه على العلامات الأخرى، التي هي خاتمة العقوبات الدنيوية ومقدمة لليوم الآخر حيث العقوبات الأخروية.

٥- آخر السورة السابقة لها

انتهت السورة السابقة لها وهي سورة الزخرف بقول الله تعالى للنبي ﷺ فيمن آثر

الضلال على الهدى: ﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾، فتوعدهم بالعقوبة والانتقام، فجاءت بعدها هذه السورة لتبين شدة الانتقام الإلهي.

محاور سورة الدخان

المحـور الأول: براعة الاستهلال في التحذير من الانتقام الإلهي.

المحـور الثانـي: تحديد الانتقام الإلهي بدقة متناهية.

المحـور الثالث: سبب الانتقام الإلهي.

المحـور الرابـع: المراحل التي تسبق الانتقام الإلهي في الدنيا.

المحـور الخامس: لا يمتنع شيء من هذا العالم المشاهد من الانتقام الإلهي.

المحور السادس: شدة الانتقام الإلهي في الدنيا متفاوته.

المحـور السـابع: المصالح المترتبة على الانتقام الإلهي في الدنيا.

المحـور الثامـن: الانتقام الإلهي الأعظم.

المحـور التاسـع: الرحمة الإلهية العظمى.

المحـور العاشر: الخاتمة.

محاورها

المحور الأول: براعة الاستهلال

القرآن العظيم -كلام الله تعالى- كتاب عربي مؤلف من حروف عربية ﴿حمٓ﴾، واضح بيِّن، لا غموض فيه ولا لبس ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾. أنزل في ليلة مباركة عظيمة القدر لأمر حكيم ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾. هذا القرآن البين الواضح فيه رحمة عظيمة، وهي إنقاذ الناس من حلول العقوبات الإلهية عليهم والانتقام الرباني ببيان طرق الهداية، ودلالاتها، وإنذارهم من الإعراض عنها ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾، فهو ينذرهم من حلول الانتقام الإلهي.

المحور الثاني: تحديد الانتقام الإلهي بدقة متناهية

هذه الليلة المباركة ليلة القدر التي نزل فيها القرآن رحمة للعالمين تحدد فيها المقادير فيما يخص السنة القادمة، وقد تشمل ما بعدها، وإن كانت كلها مكتوبة في اللوح المحفوظ، ولكن ينزل منها بقدر إلى السماء الدنيا لحكمة بالغة، تلك المقادير التي مُلِئت حكمة ورحمة. من ذلك الانتقام الإلهي مِمَّن طغى وأفسد في الأرض ليريح أهل الأرض من أذاه وضرره، وتستريح الكائنات من فساده وشركه، فهو مستراح منه، كما قال النبي ﷺ عن جنازة فاجر «مستراح منه». وقال: «العبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب» (١).

فالانتقام الإلهي المقدر في اللوح المحفوظ ينزل تقديره سنوياً في كل ليلة قدر إلى السماء الدنيا، يحدد فيها بدقة زمن الانتقام، ونوعه، وحجمه، وآثاره، وموضعه، بتمام الحكمة مع تمام الرحمة. ويسبق ذلك بلوغ الرسالة الإلهية إليهم قبل حلول العقوبة الإلهية ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾.

١- رواه البخاري (٦٥١٢).

المحور الثالث: سبب الانتقام الإلهي

إنَّ انتشار التوحيد في العالم هو سبب استقرار الكون واستمرار الرحمة ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾، لأنه الأصل والأساس الذي قام عليه الكون. فإذا ما وُجِد الشرك عمَّ الاضطراب في السماء والأرض وما بينهما واختلَّ النظام الكوني ليحل حينئذ الانتقام الإلهي ليخلص العالم من الشرك، وتعم الرحمة، وتبقى راية التوحيد هي الحاكمة العالية على وجه الأرض، وتستقر أحوال الكون، وهذه سنة الله تعالى في جميع الأمم. كما حصل لآبائكم الأولين من الأمم الكافرة ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، كقوم نوح ومن بعده لما كفروا اضطربت السماء والأرض، وحلّت عليهم العقوبات السماوية والأرضية، فأبقت أهل الإيمان على قيد الحياة وأهلكت أهل الكفر. تلك سنّة الله تعالى ليستقر الكون حينئذ وينتظم، وإلا اضطرب بأكمله ابتداء من السماء الدنيا ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾ وانتهاء بالأرض ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾. ولتمام الاتصال بين السماوات والأرض ولكونهما وحدة واحدة قامتا على أصل واحد هو التوحيد قال سبحانه ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ولم يقل (رب السموت ورب الأرض). فإذا استحكم الشرك في الأرض اضطرب أمر السماء والأرض وحلّ الانتقام ليعود الاتزان مرة أخرى عند استحكام التوحيد والقضاء على الكفر.

المحور الرابع: المراحل التي تسبق الانتقام الإلهي في الدنيا

سنّة الله تعالى في خلقه أنه لا يهلك أمة أو قرية إلا بعد بلوغ الرسالة، وقيام الحجة، وظهورها، ووضوحها ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾. فإذا قابلت الأمة هذا البيان والحق بالتشكيك واللعب ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾، وتمادت في الكفر والإعراض، واتّهمت رسولها الذي عرفت صدقه وأمانته وكذا أتباعه الدعاة فاتهمتهم بالجنون ﴿ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ حينئذ تحل عليهم عقوبة صغرى تذكيراً وتحذيراً كظهور الدخان، الذي هو من علامات الساعة الكبرى ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾. فالدخان علامة كبرى وعقوبة صغرى، عقوبة صغرى لأنه يمكن أن يتدارك بالتوبة قبل نزول العقوبة الكبرى. وعلامة كبرى لأنه من العلامات العشر النهائية التي لا علامة بعدها، كما قال النبي ﷺ: «إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف في جزيرة العرب، والدخان، والدجال، ودابة الأرض، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، ونار تخرج من قعر عدن ترحل الناس»[(١)].

فإذا ماطلبوا كشف العقوبة الصغرى ووعدوا بالإيمان بالله وحده والاستسلام له كشف عنهم العذاب وذهب الدخان، ولكنهم سيعودون إلى كفرهم فتحِلّ عليهم ساعتئذ العقوبة الإلهية الدنيوية المهلكة ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾، إذ لم ينتفعوا بالحجج البينة على توحيد الله تعالى، ولا بالإنذار على يد الرسل والدعاة، ولم يتذكروا بالعقوبات الصغرى المنذرة لهم.

١- رواه مسلم (٢٩٠١).

المحور الخامس: لا يمتنع شيء من هذا العالم المشاهد من الانتقام الإلهي

لا يقتصر نزول الانتقام الإلهي على أمة واحدة أو فئة خاصة، وإنما يعم كلَّ أمة مشركة، بل قد يعم جميع أهل الأرض إذا أشركوا بالله تعالى، كما سيحدث قبل قيام الساعة ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ﴾. بل إن العقوبة الإلهية قد تنهي هذا العالم المشاهد وهذا النظام الكوني الدنيوي إذا استشرى الشرك ولم يعد فيهم رجاء ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾.

المحور السادس: شدة الانتقام الإلهي في الدنيا متفاوتة

إن شدة الانتقام الإلهي تتفاوت بتفاوت بعض الأمور وهي التي بينت في قصة موسى عليه السلام وفرعون. منها مقام الداعي إلى الله تعالى وجاهه ﴿ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾، وعلى قدر إخلاصه وأخلاقه ﴿ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾. فعلى قدر جاه الداعي وأحواله تشتد العقوبة على مخالفيه. ومنها وضوح الحجة، فعلى قدر وضوح الحجة تشتد العقوبة ﴿ وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ أي بكتاب واضح وحجة بينة يخضع لها القلب لتصبح سلطاناً عليه. وتعظم العقوبة على قدر تعاليهم واستهزائهم بالله تعالى ومعصيتهم ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴾، وكذا على قدر استهزائهم بالرسول والرسالة وإجرامهم ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ (٢٠) وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (٢١) فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾. فعلى قدرها تحدد الخطة الكاملة مع المؤمن الداعي إلى الله تعالى بدقة متناهية وحكمة بالغة لإهلاكهم.

كما حصل لفرعون ذي المملكة العظمى المدعي للألوهية المستهزئ بالرسول الكريم الأمين والرسالة حين غرق فجأة هو وجميع جنوده، وتلاشت المملكة العظمى التي تأسست في عدة قرون. لقد كدَّ فيها فرعون عدة عقود لتزدهر، وترتقي إلى أتمّها، فتحقق له ما أراد. ولكن ذهب النعيم واللذة والترف وتلاشت المملكة العظمى في لحظة.

ومما زاد من عظمة الانتقام أن ورثها أعداؤهم وأصبحت نهبة للبلاد المجاورة ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴾. ثم زاد الأمر حسرة أن لم يحزن عليهم أحد ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾، ولم يمهلوا بعد مجيء العذاب ﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾. ونجّى الله تعالى الضعفاء الذين لا حيلة لهم، ومكّنهم في الأرض، بينما أغرق ذوي الحيل العظمى ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ (٣١) وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾.

هذا الهلاك لم يقتصر على الفراعنة، بل يترقب كل من كذب برسل الله تعالى ودعاة الحق كحال قريش. ولهم أمثلة قريبة منهم كعرب قحطان المشركين ﴿ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾، ذوي الممالك العظمى، الذين بلغ مُلكهم سمرقند، أين مملكتهم؟ ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾، لينتظم الكون مرة أخرى على قاعدة التوحيد.

المحور السابع: المصالح المترتبة على الانتقام الإلهي في الدنيا

الانتقام الإلهي في الدنيا لا يحدث من أجل الانتقام المجرد، ولا يأتي عبثاً، وإنَّما يحل لحِكَم باهرة وفوائد عظمى. منها نجاة المستضعفين من إيذاء المستكبرين ﴿ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾، ومنها وراثة المستضعفين للأرض ﴿ كَذَٰلِكَۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾. ومنها تمكين أهل التوحيد في الأرض واصطفاؤهم للدعوة ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾. ومنها معاينتهم للآيات العظمى في الانتقام الإلهي ليشفي صدور قوم مؤمنين وقلوب المظلومين ثم إكرامهم بالنعم ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا مُّبِينٌ ﴾. ومنها ضرب الأمثال والعِبرَ ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ أَهْلَكْنَٰهُمْۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾. ومنها استقرار النظام الكوني على التوحيد وشيوعه في الأرض، وإظهار عظمة الله تعالى، وأنَّ الأمر كله لله تعالى، لا ينازعه أحد في خلقه وأمره ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾.

المحور الثامن: الانتقام الإلهي الأعظم

أما الانتقام الإلهي الأعظم فميقاته يوم القيامة، ليعم جميع الأمم الفاجرة، حيث لا ينفعهم القريب ولا البعيد، بل ويتبرؤون منهم ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾، إلا من أدركته رحمة الله تعالى التي بها يدخلون الجنة، وبها تحل شفاعة الملائكة والنبيين والمؤمنين لمن في قلبه مثقال ذرة من توحيد الله تعالى من أهل المعاصي الذي لهم بعض الأعمال الصالحة، ثم النجاة بقبضة أرحم الراحمين لمن قال لا إله إلا الله ولم يعمل خيراً قط، فنفعت ولاية أهل الإيمان بعضهم بعضاً.

أخبر النبي ﷺ عن شفاعة المؤمنين لإخوانهم عصاة المسلمين. «يقولون: ربنا! إخواننا كانوا يصلون معنا، ويصومون معنا، ويعملون معنا. فيقول الله تعالى: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه» وفي المرة الثانية قال لهم: «من وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه»، وفي الثالثة قال: «من وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه .. فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون» [١]. وفي رواية أخرى: «يقول الله تعالى: شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط» [٢]. أي من أهل التوحيد ولكنهم عصاة. فالملائكة والنبيون والمؤمنون كل منهم مولى الآخر، فانتفعوا بتلك الولاية لأنها قائمة على التوحيد، فرحمهم الله بذلك ﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ﴾.

أما الانتقام الإلهي في النار فله صور: منها شجرة الزقوم التي هي طعام الكافر الذي

١- رواه البخاري (٧٤٣٩).

٢- رواه مسلم (١٨٣).

يغلي في بطنه بعد الشراب اللذيذ في الدنيا والطعام الهنيء ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴾. حينئذ يصيح بأعلى صوته من شدة العذاب والألم ولما يجري في بطنه، يأمل أن يجتمع حوله الخلان ليسعفوه ويواسوه، ولكنه يفاجأ بتبرؤ الخلان والسادة والأقربين، ويفضح أمامهم وأمام العالمين بالعقوبة الشديدة ﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾، فيعذب بالسجن الانفرادي بعد تقلبه معهم في نوادي الرفاهية ومجالس الاستهزاء في الدنيا. ﴿ خُذُوهُ ﴾ وجروه مقهوراً بمفرده وبغلظة وعنف وبجفاء مهاناً إلى العذاب ﴿ فَٱعْتِلُوهُ ﴾، كما كان في دنياه عُتُلاً جافياً عنيفاً غليظاً، واجعلوا موطنه ﴿ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ وهو وسطها وقعرها بعد المقام الكريم والمتاع الزائل. وينادى عليه جزاءً وفاقاً ﴿ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴾ بعد شموخ الرأس والكبر وترفعه عن عبادة الله تعالى.

ثم يخاطب في السجن الانفرادي ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾، لعلك الآن ذقت مرارة تعززك وترفعك عن قبول دعوة التوحيد، وخلودك إلى المقام الكريم المزعوم في الدنيا، وتكذيبك لرسولنا الكريم ﴿ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾.

المحور التاسع: الرحمة الإلهية العظمى

أمَّا المتَّقون ففي رحمة الله تعالى ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾. فهم في مأمن تام من الانتقام الإلهي الأعظم، بل ومن كل الآفات ﴿فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾، إقامة دائمة لا تزول، ﴿أَمِينٍ﴾ يأمن من زوالها وانقطاعها. فهم يتقلبون في نعيم الجنان والعيون بدلاً من الجنان والعيون الزائفة التي تمتَّع بها الكفار في دنياهم ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾. ولباسهم فيها لباس الملوك، فإذا كان اللِّباس الداخلي من أنفس أنواع الحرير ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾، فكيف بالثوب الخارجي؟ مجتمعين فيها مع أهليهم ونسائهم وذرياتهم، ويتزاورون مع معارفهم وخلانهم. ﴿ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ يقبل كل منهم على الآخر بطلاقة وجه، ولسان عذب، وخلق كريم، وقلب محب صافٍ لا غل فيه. ثم زدناهم نعيماً ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾، في ألذ العيش وأطيبه.

﴿ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ يأمن انقطاعها وفسادها وضررها، ويأمن من إصابته بمرض يمنعه من تناولها، ويأمن من سوء خلق الغلمان الذين يطوفون عليهم بها، ويأمن من كل آفة وضرر وأذى، وأعظمه أن يأمن غضب الله تعالى وانتقامه، فهو في نعيم دائم يأمن انقطاعه.

لا يعيش فيها منفرداً، بل دائما يجتمع بمن يحب، لذا وردت الآيات في نعيم الجنة بصيغة الجمع ﴿ٱلْمُتَّقِينَ، يَلْبَسُونَ، مُّتَقَٰبِلِينَ، وَزَوَّجْنَٰهُم، يَدْعُونَ، وَوَقَىٰهُمْ﴾. بينما وردت الآيات في عقوبة الكافر بصيغة المفرد ﴿ ٱلْأَثِيمِ، خُذُوهُ، فَٱعْتِلُوهُ، فَوْقَ رَأْسِهِۦ، ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾.

خالدين فيها ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ ﴾ إلا موتة الدنيا التي ماتها ﴿ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾، مِمَّا يدل على أنهم لا ينامون كذلك. إذ لو وقع في حقهم النوم لاستثناه الله تعالى، ولقيل «لا يذوقون فيها الموت إلا النوم» إذ النوم أخو الموت. فلمَّا استثنى الله

تعالى موتة الدنيا وهي الأمر البعيد ولم يستثن القريب وهو النوم دل على عدم النوم فيها. وفي الأثر: «النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا يموتون»[1]. جميع ما سبق من النعيم تفضلٌ من الله تعالى ﴿ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَ ﴾، لا جزاء معاوضة للعبد.

١- رواه ابن المبارك (٢٧٩) مرسلاً والبزار في الكشف (٤/١٩٣) مسنداً. والمرسل أصح من المسند كما رجحه العقيلي والله اعلم، انظر تفصيله في سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ الألباني (١٠٨٧).

المحور العاشر: الخاتمة

لقد بينّا الانتقام الإلهي وأسبابه وصوره وأنواعه في هذا الكتاب أوضح بيان، وحذّرنا منه بأفصح اللغات وأيسر الألفاظ ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ ﴾ كما ورد في مستهلها ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾. ذلك ليتذكروا ويتعظوا، لئلاَّ يحل عليهم الانتقام الإلهي ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾، كما ورد في أولها بأنَّ هذه الرسالة تذكير وإنذار لهم من حلول الانتقام الإلهي ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ ﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾، وإلَّا فانتظر عقوبتهم.

واعلم بأن الخوف من حلول العقوبة والانتقام الإلهي قد قطّع قلوبهم وملأ صدورهم، فهم يخشون نزول العقوبة في أي لحظة، لذا تجدهم يلتفتون برقابهم كل حين خشية العقوبة ﴿ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾. لذا توقع حلول الانتقام الإلهي عليهم في أي ساعة ﴿ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ كما ورد في أولها ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾. فتعانقت خاتمة السورة مع أولها.

ولله الحمد والمنة أولاً وآخراً والله أعلم.

سورة الجاثية

مقصد السورة

بيان الآيات والطرق والوسائل التي نصبت لتوصل العبد إلى توحيد الله تعالى.

الأدلة على مقصدها

١- استهلالها

استهلت السورة في آياتها الأولى بقول الله سبحانه: ﴿ لَأَيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾، ﴿ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾، ﴿ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾، ﴿ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴾. ففيها إشارة إلى أن هذه السورة جمعت أنواع الوسائل التي نصبت لترشد وتوصل العبد إلى توحيد الله تعالى.

٢- المناسبة بين مستهلها وخاتمتها

ابتدأت السورة بذكر بعض الطرق الموصلة إلى التوحيد، من ذلك الآيات السمعية كالقرآن، والآيات البصرية والكونية ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ (٢) إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأَيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ (٣) وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ (٤) وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ (٥) تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴾.
ثم ختمت بعقوبتهم لعدم انتفاعهم من تلك الطرق والوسائل، قال الله تعالى ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ﴾، ﴿ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ (٣٤) ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴾.

٣- تكرار كلمة الآيات وما يقاربها في المعنى

تكررت فيها كلمة الآيات ثلاث عشرة مرة، بالإضافة إلى الألفاظ المقاربة لها في المعنى مثل: بينات، بصائر، هدى، العلم، يوقنون، لا ريب فيها.

٤- المقابلة بالضد

ذكر فيها كيف تعامل الكفار مع تلك الطرق والوسائل بالمضادة، منها الهزء بالآيات كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾، ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾، ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾. ومنها الظن ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾، ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا ﴾. ومنها الادِّعاء بعدم التيقن ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾، والاستكبار عنها ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا ﴾، ﴿ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾، والكفر بها ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ ﴾، ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾.

٥- ما تميزت به السورة

ورد فيها تقديم السمع على القلب ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ ﴾، بينما في سورة «البقرة» تقدم ذكر القلب على السمع ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾. ذلك أن موضوع هذه السورة ما نصبه الله تعالى من الدلائل والطرق للتوصل إلى توحيد الله تعالى. فالسمع هو البريد الصوتي للقلب ليفقه ويعقل ومن ثم يتوصل إلى توحيد الله تعالى، فهو الوسيلة الصوتية إلى القلب. بينما مقصد سورة «البقرة» تحقيق كمال الحب لله تعالى مع كمال الذل له سبحانه والذي مقره القلب، فقدم ذكر القلب على الوسيلة.

ومما تميزت به هذه السورة عن جميع سور القرآن ذكر الجثو بين يدي الله تعالى، وهي

جلسة المخاصم بين يدي القاضي ليصدر فيه حكمه بعد أن أقيمت عليه الدلائل، ويسرت له جميع الطرق للتوصل إلى توحيد الله تعالى.

٦- اسمها

قيل من أسمائها سورة «الشريعة» أي الطرق الموصلة إلى صحة هذه الشريعة وهي شريعة التوحيد. وكذا «الجاثية» وهي جلسة المخاصم بين يدي القاضي ينتظر حكمه والقضاء فيه بعد أن أقيمت عليه البينات والدلائل، وبعد أن سلكت معه جميع الطرق والوسائل مع توفر الإمكانات لديه لمعرفة الحق والبحث عنه.

٧- نهاية السورة السابقة لها

انتهت سورة «الدخان» التي سبقت هذه السورة بقول الله تعالى ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾. فمما يسره الله تعالى بلسان النبي ﷺ إرساله ﷺ، وتنزيل القرآن عليه، ومجيء الشريعة والمعجزات على يديه والوسائل الأخرى لمعرفة الطريق إلى توحيد الله تعالى.

محاور سورة الجاثية

المحــــور الأول: براعة الاستهلال في تثبيت الطرق المنصوبة الموصلة إلى توحيد الله تعالى.

المـحــور الثانـي: نصب الدلائل السمعية والبصرية والكونية لتقرير التوحيد.

المحــور الثالـث: إسباغ النعم وتسخير الآيات الكونية لبني آدم.

المحــــور الــرابع: أيام الله.

المحـور الخامس: إرسال الأنبياء وإنزال الكتب ومجيء الشرائع والمعجزات.

المحور السادس: السعادة الروحية والقلبية للموحدين.

المحــور الســابـع: خلق وسائل الإدراك والفهم للمكلف.

المحـــور الثامـن: الترغيب والترهيب.

المحـــور التاسـع: الخاتمة.

محاورها

المحور الأول: براعة الاستهلال في تثبيت الطرق المنصوبة الموصلة إلى توحيد الله تعالى

هذا القرآن عربى في ألفاظه وحروفه ومعانيه ﴿ حمٓ ﴾. نزل متدرجاً ﴿ تَنزِيلُ ﴾ ولم يقل سبحانه (أنزل)، ذلك أنه نزل على فترات متقطعة لترسيخ التوحيد وتثبيته، وليكون أقوى في الدلالة. وأمر أن يكتب ليُحفظ، والمكتوب أثبت في الحجة ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ وأحفظ للعلم الذي فيه لئلا يُنسى. وهو محكم في عرضه للطرق والوسائل المنصوبة الموصلة إلى توحيد الله تعالى، لا خلل في عرضه ولا لبس، ويخذل كل من يحاول أن يجد فيه خللاً أو يعارضه بالمعارضات، ليرجع خائباً مخذولاً مغلوباً، ويبقى القرآن عزيزاً محكماً ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾، فهو كلام الله تعالى، وهو طريقك إلى الله تعالى. وإليك هذه الطرق والوسائل والآيات الدالة على توحيده.

المحور الثاني: نصب الدلائل السمعية والبصرية والكونية لتقرير التوحيد

لقد هيأ الله تعالى وأوجد آيات عظمى سمعية وبصرية يتوصل بها إلى توحيده. فمن الآيات السمعية كتاب الله وهو القرآن وما فيه من دلالات بلاغية وإعجاز يدل على أنه ليس من البشر، مما يقتضي قبول كل ما يتضمنه من توحيد واعتقاد وأحكام ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾. وفيه إشارة إلى رسوله ﷺ الذي نزل عليه الكتاب فوردت على لسانه الآيات السمعية، ثم بيّنها بأقواله وأفعاله وتقريراته، وهي بمجموعها تسمى بالأدلة السمعية، هذا الطريق الأول للتوصل إلى توحيد الله تعالى.

وطريقان آخران يقودان إلى توحيد الله تعالى هما الآيات البصرية والكونية والتفكر فيها. من الآيات البصرية هذا العالم المشاهد المتقن بقسميه العلوي والسفلي وما فيهما ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾، وما يتضمنه كل من العالم العلوي والسفلي من قوانين كونية ثابتة منتظمة تجري عليهما بلا خلل. فالقوانين الرياضية -الحسابية والطبيعية- تجري على الإنس والجنّ والدواب، وكذا تجري على حركة الشمس والنجوم والكواكب، مما يصدر عنها اختلاف الليل والنهار وحركة الرياح ونزول الأمطار وإنبات النبات وغيرها. فهي قوانين متكاملة متقنة متوافقة مع بعضها، يكمّل بعضها بعضاً، ويستحيل أن تتعارض مع بعضها لأن مبدعها واحد، مما يقتضي فطرة وعقلاً أن يلجأ إليه وحده، وأن لا يعبد إلا هو ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾، لا يكلف بمعرفتها ولا يؤاخذ بها إلا العاقل ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾. ولكن هذه الآيات قابلها الكافر بالاستكبار والاستهزاء والإصرار على الباطل محاولة لقلب الحقائق فهو ﴿ أَفَاكٍ ﴾، فالعقوبة له بالمرصاد ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾.

المحور الثالث: إسباغ النعم وتسخير الآيات الكونية لبني آدم

طريق رابع من طرق الاستدلال على التوحيد هو الحكم عن طريق المعايشة والانتفاع والتملك. فكلما ملك الإنسان شيئاً ولو ملكاً مؤقتاً كان أكثر معرفة به، وحباً له ولصانعه، وتعلقاً به وبصانعه. إضافة إلى أن الكرم يوضح الرؤية، ويزيل عن العين الغشاوة وعن القلب الحجب، ويؤلف القلوب نحو المُكْرِم، ويجعلها تقبل عليه ملقيةً إليه سمعها وبصرها وأفئدتها.

فلو لم يهتد الإنسان إلى توحيد الله تعالى بالأدلة السمعية والبصرية والكونية لكانت له وسيلة أخرى يهتدي بها وهي التفكر فيما أكرمه الله به، والتفكر فيما سخر الله له من المخلوقات وذلله له وملّكه إياه ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾. إذ سخر له البحر وما فيه، وجريان الفلك فيه مستقراً ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ ﴾، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾، ثم الوحدة في القوانين الكونية التي تسيّر الآيات البحرية والسماوية والأرضية ليستخدمها الإنسان في تسخير بعض المخلوقات، ويستخدمها في الصناعات كقوانين الجاذبية والطفو والضغط والحرارة وغيرها من القوانين﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾. وفي هذا قال النبي ﷺ في لقاء الله تعالى للعبد يوم القيامة: «يلقى العبد فيقول: أي فُل! ألم أكرمك؟ وأسوِّدك؟ وأزوّجك؟ وأسخّر لك الخيل والإبل؟ وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلى. فيقول: أفظننت أنك ملاقِيَّ؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني»[1]. فهذان طريقان يقودان إلى التوحيد ويزيلان الغشاوة وهما الكرم الإلهي على العبد، وتسخير الآيات الكونية له.

١- رواه مسلم (٢٩٦٨ / ٧٤٣٨).

المحور الرابع: أيام الله

إن الإعراض عن هذا النوع من الآيات والأدلة مدعاة للمحاسبة والمؤاخذة. ولكن دعوا محاسبتهم لنا، أمّا أنتم فادعوهم إلى الله تعالى ثم اصفحوا عنهم واغفروا لهم، ثم انتظروا يوم الله الذي يتحقق فيه القانون الكوني فيهم والسنّة الإلهية فينتقم الله من أعدائه، وينصر فيه أولياءه المؤمنين، ليتوافق مع أيام الله والسنن الإلهية في الأمم السابقة، ولكن الكثرة الغالبة غافلة عن أيام الله في الأمم الكافرة ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾. وهذا طريق سادس يقود إلى التوحيد، وهو التفكر في العقوبات الإلهية التي حلت على من أعرض عن رسالة التوحيد.

المحور الخامس: إرسال الأنبياء وإنزال الكتب ومجيء الشرائع والمعجزات

إن الكتب السابقة المنزلة من الله تعالى على الأنبياء تتضمن ألواناً شتى وطرقاً متعددة لإثبات التوحيد. وكذلك الشرائع الإلهية التي حكم بها الأنبياء والملوك. ظهر للناس فيها فضائل التوحيد ومنافعه وآثاره التي سعد بها جميع الخلق، وكذا سعد بها الملوك من غير الأنبياء لما جعلوا العلم الشرعي هو المرجع الذي يتحاكم إليه، فرأوا كيف تطيب الحياة فيه لما رأوا من قلة الجرائم والفساد وسيادة العدل، ثم السيادة على الأمم ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ ﴾. فهذان طريقان آخران وهما السابع والثامن.

إن أعظم الطرق في إثبات التوحيد وأفضلها، وأفضل النعم على العباد، وهو الذي تقوم به حجة الله على العباد إرسال الأنبياء وهم دعاة التوحيد وما صاحبهم من دلائل صدقهم. فمن دلائل صدقهم ما دلت عليه بداهتهم، وصفاتهم، وأخلاقهم، وانتصاراتهم على أعدائهم، وإخزاء أعدائهم، وما آل إليه أمرهم وأمر أتباعهم من الانتصارات والتوسعة في الرزق ونجاتهم، مع انتشار دعوتهم، وعدم انتقام الله منهم، وظهور فضلهم على سائر الأمم، كل ذلك آيات بينات دالة على صدق ما جاءوا به. ثم معجزاتهم، والآيات البينات الأخرى التي جاءوا بها دالة كذلك على صحة ما جاؤوا به من توحيد الله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ﴾، وهذان الطريقان التاسع والعاشر.

تنبيه: وستستمر هذه الفضائل وهذه الخيرية ماداموا متبعين للشريعة الإلهية. بينما ستتضاءل إذا تحاسد الأتباع، ودب بينهم الخلاف والظلم، وطغت الأهواء، وتفرقوا، وبغى بعضهم على بعض ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾.

المحور السادس: السعادة الروحية والقلبية للموحدين

لا يجعل الله تعالى حياة وأحوال الأمة الموحدة لله تعالى المتبعة للشريعة الإلهية كأحوال الأمة الكافرة. فللأولى حياة طيبة بالرغم من توالي المصائب، إلا أن الشعور القلبي للموحد والسعادة التي تخالجه لا يحصل عليها غير الموحد، لأن الموحِّد حقق الغاية التي من أجلها خلق ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾.

ذلك أن المؤمن إذا وحد الله تعالى فإنه يتكامل مع الكون والسنن الكونية وقوانينها القائمة على نظام توحيد الله تعالى والتي خلقت لأجله، فلا يتناقض معها، بل يتلاءم معها. إذ كل منهم يقوم بدوره في الكون في تحقيق التوحيد، فتستقيم الأمور الكونية والإنسانية حينئذٍ ويشعر بالسعادة القلبية للاتفاق في المقصد ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾. بل ويتفق مع ذرات جسده التي ركب منها، فهي مسبحة بحمد الله ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾.

بينما إذا لم يقم أحدهما بدوره في تحقيق التوحيد تختل الأدوار فتضطرب الأمور، فيضطرب أمر السماء وأمر الأرض إلى أن تقع العقوبات ليتخلص الكون ممن لم يقم بدوره في التوحيد، لتعود إلى الاستقرار مرة أخرى. كالمصنع الذي يتكون من مجموعة من الآلات كل منها يقوم بدوره لإنتاج المنتج الموحد، فإذا اختلت آلة منها ولم تؤد دورها اضطرب حال المصنع حتى يتم إصلاح الآلة أو إبدالها بأخرى سليمة، حينئذٍ تستقيم الأمور وتعمل الآلات بأريحية تامة. هكذا السعادة عند تحقيق التوحيد.

فشعور المؤمن بالسعادة طريق آخر في معرفة صحة ما دعت إليه الرسل من التوحيد، وهذا الطريق الحادي عشر.

المحور السابع: خلق وسائل الإدراك والفهم للمكلف

للتعرف على الحق والوصول إليه لا بد من وجود وسائل حسية للمكلف وكذا أطراف وجوارح يستعين بها. لذا خلق الله تعالى الجوارح للعبد ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، وخلق له السمع والبصر ليتحسس بهما ويتعرف على دلائل التوحيد من خلالهما، ثم خلق القلب ليعقل به ويفقه. إلا أن الكافر لم ينتفع بهذا كله ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ﴾.

فائدة: قدم ﴿سَمۡعِهِۦ﴾ على ﴿وَقَلۡبِهِۦ﴾، لأن السمع هو وسيلة القلب للتعرف على دلائل التوحيد وطرقه، وهذا الطريق الثاني عشر القائد إلى التوحيد.

المحور الثامن: الترغيب والترهيب

إذا لم ينتفع العبد بالعقليات، ولا بالأدلة السمعية والبصرية والكونية، ولا بالكرم الإلهي، ولا بالرسل والدعاة والمعجزات والكتب، ولا بآثار ذلك على القلب، ولا بالحواس والجوارح في التوصل إلى الحق والتوحيد فلا ينفع معه إذاً إلا الزواجر من الترهيب والوعيد والعقوبات.

من تلك الزواجر العقوبات الدنيوية وتوعدهم بها، ومنها الشعور بالحيرة والضياع والاكتئاب والمصائب وغيرها. ثم أعظمها زجراً التذكير بالموت وبالحياة البرزخية وعذابها وبالبعث، مما يجعل العبد يحاسب نفسه قبل فراق الدنيا وقبل لقاء الله تعالى. وهذا الزاجر الأخير يصلح لكفار أهل الكتاب وللمسلمين ولمن يؤمن بالبعث أو بالحياة البرزخية ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾.

أما من ينكر البعث ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ فهم قسمان: قسم لم يتبين له صحة البعث مع صدقه في طلب الحق، فهذا ينتفع بالطرق المذكورة سلفاً وبالزواجر الأخرى من وعيد واكتئاب وشعور بالحيرة والضياع وكذا المصائب.

وأما القسم الثاني وهو الذي تبين له صحة البعث بالطرق السابقة ولكنه جحده كبراً وعناداً ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾، فرد الأدلة القاطعة بالظنون والأوهام ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، حينئذ عليك أن تضع من كبريائه وترغم أنفه بأن تخيفه بالموت وتؤكد عليه البعث ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. مثال ذلك فرعون لما رأى الموت وعاينه أعلن إيمانه وأظهره، وكذا الأقوام الكافرة لما رأت بأس الله تعالى ورأت الموت يسبقهم إلى قبض أرواحهم قالوا ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ

وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴾. فلعل هؤلاء الكفار إذا عاينوا العذاب بقلوبهم واستحضروه آمنوا قبل أن تصل الروح إلى الغرغرة حيث لا ينفعهم حينئذ إيمانهم.

كذلك حطم عناد الكافر الذي لم يقر بالتوحيد بأن تجعله يعايش أحواله يوم القيامة، وأكد عليه بظهور خوره يومئذ وسقوط حجته وفضحه وتحقق خسارته ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾. اجعله يعيش في العقوبات الأخروية كأنه يراها ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾، وهذا الطريق الثالث عشر.

المحور التاسع: الخاتمة

إذا ما انتفع العبد بتلك الآيات وتلك الطرق الموصلة إلى التوحيد فإنه حينئذٍ يكرم وينعّم. بينما يتجرع الكافر مرارة عدم انتفاعه بالطرق والآيات المحكمة الموصلة إلى الحق من الأدلة السمعية والبصرية والكونية، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، ومجيء الشرائع والمعجزات، وسعادة الموحدين، وشقاء الكافرين. ويذوق مرارة عدم استعمال وسائل الإدراك التي جُعلَت له فاستكبر وتلكأ بالظنون فأعرض وتناسى ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴾. فتظهر حينئذٍ نتائج قبائحه وأعماله ﴿ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾.

وكما كنا في الدنيا ننصب الآيات والأدلة والوسائل وطرق معرفة الحق، كذلك يوم القيامة ننصب الأدلة على صحة نسبة الأقوال والأفعال لقائليها من المجرمين ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾. ولما تناسى كَرَمَنا وإنعامَنا عليه وآياتنا والطرق الموصلة إلى توحيدنا وقابله بالاستهزاء مغتراً بدنياه جزيناه من جنس عمله ﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا ﴾. فقد وضحنا طرق الاستدلال وأقمنا جميع الحجج بها ونصبنا كل الوسائل الدالة على التوحيد، فلا عتاب يومئذٍ إنما العذاب والعقاب. لذا أغلقنا عليهم يوم القيامة باب العتبى ﴿ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴾.

فلله الحمد الذي أحكم الطرق الموصلة إلى الحق وأحكم الحجج، فجعلها حاكمة لا محكومة، غالبة لا مغلوبة، هذه الطرق التي كل واحد منها يدل على تفرد الله تعالى في كبريائه وجلاله، فجازى المحسن بإحسانه والكافر بإساءته ﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾.

فتعانق آخر السورة بأولها إذ ورد في مستهلها ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ وختمت ﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾. وورد في أولها ربوبية الله تعالى للسماوات والأرض ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ﴾ إلى قوله تعالى (لعلكم تعقلون) وكذا في آخرها ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

وورد في أولها عبودية السماوات والأرض لله تعالى وانصياعها لأمره فهو الذي يسخرها لمن يشاء ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾، وكذا في آخرها ﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

وورد في أولها كيف تعامل الكفار مع دلائل التوحيد بالاستكبار ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ﴾ وفي آخرها ﴿ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾. وكذا تعاملوا معها بالاستهزاء كما في أولها ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ وفي آخرها ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾، ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾.

وورد في أولها عقوبة من لم ينتفع بدلائل التوحيد وطرقه ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾، ﴿ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾، ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾، ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾، ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾، وكذا ورد في آخرها ﴿ وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾، ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾.

ولله الحمد والمنة أولاً وآخراً والله أعلم.

سورة الأحقاف

مقصد السورة

الإعراض عن توحيد الله تعالى وعاقبته.

الأدلة على مقصدها

١- استهلالها

استهلت السورة بذكر المعرضين ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴾.

٢- المناسبة بين أولها وآخرها

أ- ورد في أولها أن الله تعالى خلق السموات والأرض وأنزل الكتب لتحقيق التوحيد، فهو الحق الذي قامت عليه السموات والأرض ﴿ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾، ولكن الكفار أعرضوا عنه ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴾. وانتهت باعتراف الكفار بهذا الحق ولكن متى؟ عند عرضهم على النار لينالوا عقوبة إعراضهم عنه ﴿ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾.

ب- ورد في أولها ذكر بعض الأدلة التي أعرض عنها الكفار. من ذلك تفرد الله تعالى بخلق الأرض والسموات ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾، وورد في آخرها تفرده سبحانه في ذلك ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾.

ومن تلك الأدلة ما ورد في أولها من ذكر شهادة موسى عليه السلام والكتاب الذي جاء به على صدق ما جاء به نبينا محمد ﷺ ﴿ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ

بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ ﴾ ﴿ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا ﴾ ولكنهم أعرضوا.

وورد كذلك في آخرها تصديق ذلك من قبل الجنّ ﴿ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾، ثم حذروا من الإعراض عنه.

٣- التقابل بين أولها وآخرها

بدأت السورة بذكر المعرضين عن القرآن وعن الرسالة الإلهية ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴾، وانتهت بذكر ما يقابلهم وهم المقبلون على القرآن وعلى الرسالة الإلهية ﴿ وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ﴾، ثم استجابتهم بقولهم: ﴿ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ ﴾ الآيات.ثم ختمت بذكر المعرضين ﴿ وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ ﴾ ﴿ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾.

٤- تكرار بعض الألفاظ

تكرر في السورة ذكر كلمة الإعراض وأضدادها والتصاريف المشابهة لها. من ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴾، ﴿ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾، ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ ﴾.

والعرض في اللغة هو السعة إلى حد الظهور، والعريض هو الواسع الذي ظهرت سعته. يقال عرضت: ظهرت واستبانت لسعتها.وعرضه عليه: جعله يراه ويظهر له سعته كما في قول الله تعالى ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ ﴾.

ويقال أعرض: مشى بطوله وعرضه فذهب عرضاً وطولاً .ويقال أعرض في: أقبل عليه

بطوله وعرضه وسعته إلى أن يتمكن من عرض الشيء ويتمكن من بيانه وتوضيحه. ومن هذا الباب قول الله تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾.

لذا يقال إذا ولاّه ظهره أعرض عنه إذا استقبله بظهره لسعة ظهره ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴾، إذ يقال للجانب وللشق عرض. وأعرض عنه: ذهب بعيداً عنه بطوله وعرضه وسعته أي صد عنه[١].

فجميع تصاريفها تجتمع في أصل اشتقاقها، فالمناسبة واضحة في ذكر هذه التصاريف في سورة الإعراض، سورة الأحقاف.

٥- ما تميزت به السورة

أ- ورد في هذه السورة قول الله تعالى ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾، فتميزت بـ ﴿ إِحْسَٰنًا ﴾، ولم يذكر فيها مجاهدة الوالدين ابنهما على الكفر، بل ذكر فيها حث الوالدين المؤمنين ابنهما على الإيمان. بينما وردت آية العنكبوت ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾[٢]، فورد فيها ﴿ حُسْنًا ﴾، وذكر فيها مجاهدة الوالدين ابنهما للكفر. وفي آية لقمان ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾[٣] فلم يذكر فيها الإحسان ولا الحسن في معاملة الوالدين وإنما المعاملة بالمعروف، واقتصر على ذكر مجاهدتهما ابنهما على الكفر.

ذلك أن مقصد هذه السورة بيان إعراض الكفار عن الحق الواضح الذي لا لبس فيه وهو توحيد الله تعالى، ومن صور هذا الإعراض إعراض الكافر عن شكر المنعم

١- انظر لسان العرب.

٢- العنكبوت (٨) .

٣- لقمان (١٤) .

وهو الله تعالى، وإعراضه عن ذكر جمائل الله تعالى عليه، فالكافر هذا دأبه. فكما هو مستقبح لدى الفطر أن يقابل الإبن جمائل والديه بالعقوق ويرد جميلهما بالنكران والإعراض والتأفف، فكذا تستقبح الفطر أن يقابل العبد نعم الله تعالى عليه بالكفران، وبدلاً من أن يخلص له الشكر تجده يقابله بالشرك مع الله تعالى ويعرض عن الإخلاص له في المحبة والعبودية. لذا ذكر الله تعالى إعراض الإبن الكافر عن الوالدين المؤمنين المحسنين إحساناً كاملاً في حقه، وتحمّلا المكاره من أجله، ولم يأمراه بالكفر ولا المعصية، وإنما نصحاه،وكانا حريصين على إيمانه، ولكنه أعرض عن نصيحتهما وأصر على الكفر. بينما الآيات المشابهة في السور الأخرى ذكرت دعوة الوالدين ابنهما ليكفر، وجاهداه لذلك، بينما هو مصر على الإيمان، وهذا المعنى لا يحقق مقصد السورة.

ب- ورد فيها ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ ﴾ ولم يذكر اسمه بينما في باقي السور ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾[1] ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ ﴾[2] ذلك تصويراً لحالهم، وبيان شدة إعراض قوم عاد عن أخيهم هود عليه السلام، فتجاهلوه، وتجاهلوا قدره وشرفه فيهم، وصدوا عنه، فكأنه غريب عنهم لم يعرفوا له اسماً.

٦- اسمها

اسم السورة «الأحقاف»، والأحقاف جمع حِقف وهو الرمل الكثيب المستطيل ذو الانحناء والاعوجاج، المعرض بطرفيه كانحناء الهلال.إنَّ تصور هذا المعنى مناسب لمقصد السورة وهو الإعراض.

١- الأعراف (٦٥).

٢- الشعراء (١٢٤).

٧- آخر السورة السابقة لها

انتهت سورة «الجاثية» السابقة لهذه السورة بذكر إعراض الكفار عن الآيات والطرق الموصلة إلى توحيد الله تعالى، فأعرضوا عنها بالاستكبار والإجرام والظن وادِّعاء عدم الدراية ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴾، وأعرضوا عنها بالاستهزاء بها وتناسيها ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا ﴾ ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا ﴾.

٨- وضوح موضوعها

ثم محاور السورة واضحة حيث تدور حول الإعراض. أولها إعراض المشركين كفار قريش، ثم إعراض الابن الكافر عن دعوة والديه له للإيمان، ثم إعراض قوم عاد، ثم تحذير الجنّ لقومهم من الإعراض عن الرسالة المحمدية، ثم عقوبة المعرضين، وسيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

محاور سورة الأحقاف

المحــور الأول: براعة الاستهلال في وضوح دعوة التوحيد والعجب من إعراض الكفار بشتى أنواع الإعرض.

المحــور الثانـي: الإعراض عن الإتيان بدليل واحد على صحة شركهم.

المحــور الثالـث: الإعراض عن الرد على الحجج المعارضة لهم، الداحضة لشركهم.

المحــور الــرابع: الإعراض عن الأخذ بشهادة أصدق الشهود.

المحــور الخامس: من خوارم المروءة الإعراض عن ذكر الجميل والاعتراف به لصاحبه وشكره.

المحور السادس: عاقبة الإعراض.

المحــور الســابـع: الإقبال على الله تعالى وثوابه.

المحــور الثامـن: الخاتمة.

محاورها

المحور الأول: براعة الاستهلال في وضوح دعوة التوحيد والعجب من إعراض الكفار بشتى أنواع الإعراض

بدأت السورة بذكر القرآن المؤلف من الحروف العربية ﴿حمٓ﴾.هذا الكتاب الذي نزل من الله تعالى متدرجاً على مراحل ليكون أكثر قبولاً، وأدعى إلى البحث والنظر وأقوى في تثبيت الحجج وترسيخها لتكرار نزول آياته لذا قال سبحانه ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ولم يقل (إنزال).إنه يبهر العقول بإعجازه، ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الذي لا يعتريه خلل بأي وجه من الوجوه، ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ الذي تتسابق الحِكم إلى ألفاظه ومعانيه وتراكيبه مما يستدعي الإقبال عليه، والانكباب على قراءته، والانتفاع به في تحقيق توحيد الله تعالى لا الإعراض عنه.مع العلم بأن الله تعالى عزيز لا يضيره إعراض المعرضين، حكيم في تعامله مع المعرضين ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

إن الله سبحانه نزَّل هذا الكتاب ليُعلم الخلق أنه ما خلق هذا العالم المشاهد إلا لإحقاق الحق وإقامة التوحيد الذي عليه قامت جميع مصالح الخلق ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، وكذا لإقامة الحجج والدلائل عليه. وليعلم العبد أن هذا العالم المشاهد له أجل ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ سينتهي عنده، لنحاسب من أعرض ونثيب من أقبل علينا. ولكن الكفار قابلوا هذا الأمر الجلل بشتى ألوان الإعراض عن الكتب والرسل ومقتضيات العقل الصحيح والآيات ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾. وإليك تفصيل هذا الإعراض:

المحور الثاني: الإعراض عن الإتيان بدليل واحد على صحة شركهم

إنَّ النبي ﷺ لما جاءهم بدعوة التوحيد طالبهم بالإتيان بحجة واحدة تقتضي جواز عبادة ما دون الله تعالى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ هل خَلَقت شيئاً من الأرض فشاركت الله تعالى في ملكه لتستحق به العبادة؟ أم لها مشاركة في تدبير شيء من أمور السماء؟ فأرونيه. فإن لم تكونوا رأيتم بأعينكم أنها فعلت ذلك وإنما علمتموه من كتاب إلهي سابق فائتوني بهذا الكتاب. فإن لم يكن كتاباً كاملاً وإنما جزء من كتاب فائتوني به، فإن لم يكن شيئاً مكتوباً وإنما دليل صحيح يصلح الاحتجاج به فائتوني به، بل إن وجد أي شيء من علم يصح الاحتجاج به فائتوني به. فتحداهم بالإتيان بشيء من ذلك ﴿ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾. ولكنهم أعرضوا ولم يأتوا بشيء، هذا الإعراض الأول.

المحور الثالث: الإعراض عن الرد على الحجج المعارضة لهم، الداحضة لشركهم

فإن أعرضتم عن الإتيان بدليل واحد لصحة شرككم فإني أورد عليكم مجموعة من الأسئلة، ففي الإجابة عليها دحض لشرككم: هل أحجار الصنم لها قدرة على المشي والبطش والحركة لتستجيب لعابديها ؟ هل جسد الميت له القدرة على الحركة والبطش والمشي ليستجيب لداعيه؟ ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾. هل حجارة الصنم تبصر المستغيث بها وعابدها أو تسمعه فتجيب من يخاطبها؟ هل جسد الميت يبصر فيجيب من يخاطبه ويدعوه؟ ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾، ولكنهم أعرضوا عن الإجابة على هذه الأسئلة الداحضة لشركهم. وغاية ردهم على الحجج البيّنة الواضحة أن قالوا ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾، ﴿افْتَرَاهُ ﴾، ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾، ﴿هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾، هذا الإعراض الثاني.

المحور الرابع: الإعراض عن الأخذ بشهادة أصدق الشهود

بعد الإعراض عن الإتيان بدليل يصلح الاحتجاج به على الشرك، وبعد إعراضهم عن الإجابة على الأسئلة الحاكمة عليهم أعرضوا كذلك عن قبول الشهادة الصادقة الحقة على صدق ما جاء به النبي ﷺ، وهو توحيد الله تعالى بالعبادة.أول هذه الشهادات الصادقة شهادة الله تعالى، فلم يقبلوا شهادة الله تعالى ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾ .ثانيها شهادة الرسل الثقات المتواترة، إذ لم يقبلوا شهادة التواتر التي أتى بها أصدق البشر، وهم جميع الأنبياء والرسل الذين جاؤوا بالذي جئت به، فلم آت بجديد من التوحيد ﴿مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾، فالأخبار المتواترة من أقوى الشهادات على الشيء. ثالثها شهادة العلماء الذين شهد الكفار لهم بالعلم والصدق والخيرية، فلم يقبلوا شهادة أصدق علماء بني إسرائيل، لا سيما حبرهم عبدالله بن سلام وغيره ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾. قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «في عبدالله بن سلام نزلت هذه الآية»[1]. رابعها شهادة الكتب السابقة، إذ ردوا شهادة الكتب الإلهية السابقة التي تطابقت مع ما جئت به ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗ﴾. خامسها شهادة هذا القرآن المعجز، فإنَّ هذا القرآن المعجز الذي بهرهم وأخذ بألبابهم شاهد على صدق ما جاء به النبي ﷺ ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا﴾، ولكنهم لم يقبلوا شهادته، فهذا نوع ثالث من الإعراض.

١- رواه البخاري (٣٨١٢).

المحور الخامس: من خوارم المروءة الإعراض عن ذكر الجميل والاعتراف به لصاحبه وشكره

إن النفوس الطيبة والعقول السليمة والسجايا الفطرية تقضي بذكر جمائل من أحسن إليها وشكره، وتثني على من ذكر جمائل غيره عليه وتستحسنه، لا سيما جمائل والديه عليه التي تسابقت إليه منذ أن كان جنيناً إلى أن بلغ أشده ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ ﴾، وهما اللذان تحمّلا الصعاب والمشاق من أجله. لذا من شكر والديه لا سيما بعد بلوغه سن الوقار سن الأربعين قائلاً ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾. فهذا الشاكر يستحق الثناء والثواب والجزاء الحسن ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ ﴾. بينما تستقبح النفوس من أنكر جميلهما ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ ﴾.

فأولى الذوات بذكر جميله وعظيم جوده ونعمه وآلائه التي لاتحصى هو الله تعالى، والأولى بالقبح والإبعاد والعقوبة من أنكر جمائل الله تعالى وكفرها ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾.فها هم يعرضون إعراضاً رابعاً عما تقتضيه المروءة والعقول الصحيحة والفطر السليمة والسجايا الطيبة.

المحور السادس: عاقبة الإعراض

ضرب الله تعالى للعرب مثالاً قريباً منهم، يحذرهم عاقبة الإعراض وهم قوم عاد. أولئك القوم الذين أعرضوا عن نبيهم وهو أخوهم في النسب بل أشرفهم نسباً، وهو من جلدتهم وبلدهم. فتجاهلوه وتجاهلوا اسمه وقدره ﴿ أَخَا عَادٍ ﴾. فلم يذكر الله اسمه ﴿هُودًا ﴾ في هذه السورة إشارة إلى تجاهلهم له، وإعراضهم عن ذكر قدره وشرفه. فذهبوا بعيداً عنه بطولهم وعرضهم وصدوا عنه وأعرضوا. وقد سكنوا الديار ذات الكثبان الرملية الهلالية المعرضة التي تسمى الأحقاف. والحِقْف هو الرمل المستطيل ذو الانحناء والاعوجاج. فهي معرضة مناسبة لإعراضهم عن توحيد الله تعالى، وكما قيل: «وافق شن طبقه»، و«الطيور على أشكالها تقع».

فجازاهم الله تعالى من جنس عملهم، فأعرض عن سقيهم بالأمطار إلى أن اشتد عليهم الأمر. فأرسل الله تعالى عليهم السحاب، فلمّا اعترضهم، وأصبح عريضاً واسعاً، قد ملأت سعته الأفق، وقد استقبل أوديتهم أقبلوا عليه بطولهم وعرضهم حتى بلغ فيهم الفرح والسعادة والسرور غايته لاستبشارهم بالغيث ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾، حينئذ أهلكهم الله تعالى وأبادهم، فأعرضت آلهتهم عن نصرتهم ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ ﴾. أحوالهم كلها إعراض في إعراض فجازاهم الله تعالى بالإعراض.

المحور السابع: الإقبال على الله تعالى وثوابه

ما سبق من الحجج يستدعي الإقبال على الله تعالى، والإيمان به، وتوحيده بالعبادة، وعدم الإعراض عنه. ها هم قوم من الجنّ أبعد المكلفين عنك جسداً ورؤية، وهم الذين لم ترهم ولم تخاطبهم من قبل، ها هم قد أقبلوا عليك وعلى التوحيد وعلى الاستجابة لهذه الدعوة لمّا سمعوا القرآن يتلى لظهور حججه ووضوحها ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾. ثم ﴿ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ مسرعين، داعين إلى الاستجابة لدعوة التوحيد والفوز برضوان الله تعالى ومغفرته ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾. ثم حذروا من الإعراض عنه ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

المحور الثامن: الخاتمة

هذا الكتاب المنزل من عند الله تعالى يستدعي إقبال الإنس قبل الجن للاستماع له، والإنصات، والانتفاع به، والاستجابة لدعوته وهي توحيد الله تعالى. والذي يشهد لصحة دعوته تفرده سبحانه في خلق السموات والأرض، وعدم عجزه في خلقهما، وعدم عَيِّه عن إتقانهما ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ﴾.بينما عجزت الآلهة عن خلق جزء منهما بل وعن المشاركة فيه وعن تدبير شيء منه. فمن أعرض عنه وصدَّ بطوله وعرضه في دنياه فإنه يوم القيامة يقبل قهراً بطوله وعرضه، وها هو يعرض على النار ليعترف به ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾.

فاصبر عليهم، فما هي إلا سويعات حتى يأتي وعد الله تعالى بسبب إعراضهم ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾.

فختمت السورة بما بدأت به،بدأت بقول الله تعالى ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فالحق هو توحيد الله تعالى، والأجل المسمى هو البعث. وانتهت باعتراف الكفار بالحق لما جاء الأجل المسمى لهذا العالم المشاهد وهو يوم القيامة ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ﴾، ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ﴾. ولكن متى؟ بعدما أعرضوا عنه في حياتهم وماتوا عليه.

وورد في أولها ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴾، والإنذار هو الإنذار بالعقوبة لمن أعرض عنه، وورد في آخرها إعراض الكفار عن إنذار المؤمنين لهم ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ﴾، ثم جزاؤهم وهو تحقق الإنذار فيهم ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ

كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾، ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾.

وورد في أولها تفرد الله تعالى بخلق السموات والأرض ولم يشاركه أحد في ذلك ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾، وورد في آخرها ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾، ولكنهم أعرضوا عن تلك الأدلة.

وورد في أولها شهادة موسى عليه السلام والكتاب الذي جاء به على صدق ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ﴾، ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾، وورد في آخرها ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾، ولكنهم أعرضوا عن هذه الأدلة، فتعانق آخر السورة بأولها ليحققا مقصد السورة وهو الإعراض عن توحيد الله تعالى وعاقبته. فتمت السورة واكتملت.

ولله الحمد والمنة أولاً وآخراً والله أعلم.

سورة محمد ﷺ

مقصد السورة

صور الذل والخذلان للكفار ولمن أعرض عن الدعوة النبوية.

الأدلة على مقصدها

١- استهلالها

استهلت السورة بأعظم سبب للذل والخذلان وهو الكفر والصد عن سبيل الله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾.

٢- ارتباط أولها بآخرها

استُهِلّت السورة بإحدى صور خذلان الكفار وهي إبطال أعمالهم بسبب كفرهم ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾، وبصلاح أحوال المؤمنين وفوزهم ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾، وهذا أمر آخر يزيد من خذلان الكفر وأهله. وانتهت كذلك ببطلان العمل بسبب الكفر ﴿ وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾، ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾، وبيان علو المؤمنين وعزتهم ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾، ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾.

وكذا انتهت بصورة أخرى من صور الخذلان لمن لم يتعاون مع المؤمنين لإذلال الكفار. فمن لم يبذل ولم يسع لتحقيق هذا الهدف فإن الله سيستبدل غيرهم ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾.

٣- تكرار ذكر إحباط أعمال أهل الكفر بألفاظ عدة

وردت في السورة ألفاظ مترادفة تشترك في دلالتها على صورة من صور الخذلان وهو إحباط أعمال الكفار وضياعها. من هذه الألفاظ إضلال أعمالهم ﴿ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ ﴿ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾. ومنها تسمية عملهم بالباطل الذي لا بقاء له ﴿ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ ﴾، ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾. ومنها التصريح بالإحباط ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾، ﴿ وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾، وتارة بوصفهم بالتعاسة ﴿ فَتَعْسًا لَّهُمْ ﴾، وأخرى بالدمار ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾، وكذا بالترة ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ أي أيها المؤمنون! إن الله تعالى لن يبطل أعمالكم ولن يجعلها وتراً لا تشفع لصاحبها.

٤- المقابلة

لم تذكر صورة من صور الخذلان أو سبب من أسبابه في حق الكفار في هذه السورة إلاّ وذكر مقابلها صورة من صور العلو والعزة للمؤمنين أو سبب من أسبابه. وهذه المقابلة من أول السورة إلى آخرها مما يدل على مقصود السورة.

فعلى سبيل المثال قال الله تعالى في حق الكفار ﴿ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ وقال في حق المؤمنين ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ ﴿ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾. وفي الكفار ﴿ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ ﴾ وفي المؤمنين ﴿ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾. وفي المؤمنين ﴿ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ وفي الكفار ﴿ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾، وفي المؤمنين ﴿ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾، وهكذا إلى آخر السورة.

٥- اسمها

تسمى بسورة القتال، وفي تسميتها بالقتال دعوة للمؤمنين إلى الالتزام بالقتال إلى أن

تضع الحرب أوزارها بإسلام أهل الأرض كلهم [1]، ليحل حينئذ الذل والخذلان على الكفر وأهله. فالقتال من أكبر وسائل إذلال الكفار على يد المؤمنين وعاجل هلاكهم في الدنيا [2].

وتسمى بسورة محمد ﷺ. إذ ببعثته يحل الذل والخذلان على الكفار على يده وأيدي أتباعه وكل من سار على نهجه، فهو نبي الملحمة.

٦- نهاية السورة السابقة لها

انتهت سورة الأحقاف بخذلان الكفار بالعذاب وإهلاك من أعرض عن الدعوة النبوية ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾، وموضوع سورة محمد ﷺ مناسب لآخر السورة المتقدمة [3]، ومتلاحم بها [4].

٧- شمولها لمبطلات الأعمال

إنّ إبطال العمل من صور الخذلان، وهناك أسباب عدة تبطل الأعمال والتي تسمى بمبطلات الأعمال، وقد جمعت أغلبها في هذه السورة. من ذلك الكفر، وكذا الصد عن سبيل الله ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾، واتباع الباطل ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ﴾، وكره ما أنزل الله تعالى ﴿كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾. وإيذاء النبي ﷺ بصوره المتعددة محبط للعمل، منها إخراجه من بلده ﴿أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾، ومشاقته ﴿وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ

١- انظر نظم الدرر (١٤٨/٧).

٢- انظر البرهان للغرناطي (١٦٦).

٣- انظر تفسير الرازي (٢٨/ ٣٣).

٤- انظر تفسير المراغي (٢٦/ ٤٣).

لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾. وقطيعة الرحم والإفساد في الأرض من مبطلات الأعمال ﴿ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾، وكذا الردة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم ﴾. ومنها اتباع ما أسخط الله تعالى، وكره رضوانه ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾. ومنها الرياء والنفاق ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾، والموت على الكفر ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾.

٨- الفاصلة

إن قوة الفاصلة في آياتها وإيقاعها منذ البدء كأنه القذائف الثقيلة: (أعمالهم، بالهم، أمثالهم، أهواءهم، أمعاءهم) [١]. وحين تخف فإنها تشبه تلويح السيوف في الهواء (أوزارها، أمثالها، أثقالها) [٢]. فهذه الفاصلة القوية القاذفة مناسبة لمقصد السورة وهو خذلان الكفار وإذلالهم.

١- انظر في ظلال القرآن (٦/ ٣٢٨٠).

٢- في ظلال القرآن (٦/ ٣٢٨٠)

محاور سورة محمد ﷺ

المحـــور الأول: براعة الاستهلال في بيان الذل والخذلان وصوره لمن كفر بالله تعالى.

المحـــور الثـانـي: إذلال الكفار على يد المؤمنين وإباحة قتلهم.

المحـــور الثالـث: الإهلاك الإلهي الحسي والمعنوي في الدنيا.

المحـــور الـرابـع: شدة العذاب في الآخرة.

المحـــور الخامـس: قلوبهم مخذولة.

المحـــور السادس: الخذلان في الأصحاب.

المحـــور السـابـع: الخذلان والخزي على يد الملائكة.

المحـــور الثامـــن: فضح أسرارهم وإظهار نفاقهم.

المحـــور التـاسـع: إحباط أعمالهم.

المحـــور العـاشـر: عدم التجاوز عن ذنوبهم.

المحور الحادي عشر: العزة للمؤمنين.

المحور الثاني عشر: البخل جامع لصور الذل والخذلان.

المحور الثالث عشر: الخاتمة.

محاورها

المحور الأول: براعة الاستهلال في بيان الذل والخذلان وصوره لمن كفر بالله تعالى

استهلت السورة بغير الطريقة المعتادة في القرآن، استهلت بهجوم لا مقدمة له ولا تمهيد، وبمفاجأة تثير الانتباه. فاستهلت بذكر أكبر أسباب الذل والخذلان وبطلان الأعمال وضياعها وذهاب بركتها وهو الكفر بالله تعالى، وثنت بالسبب الثاني للخذلان وهو الصدّ عن سبيل الله ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾. ويقابله الإيمان بالله تعالى والعمل الصالح والإيمان بالنبي ﷺ وهو أعظم الأسباب المكفرة للسيئات، وإصلاح جميع الشئون في الدارين، والبركة السابغة.

وعلة ذلك أن الكفر اتباع للباطل فكرّ على عمله بالإبطال. إذ ليس الكفر قاعدة راسخة ولا أساساً يبنى عليه، لذا لا ثبات له، فكل عمل بُنِيَ عليه واتصل به فعاقبته الانهيار والسقوط، والضياع، والضلال ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ﴾، وهذا يشمل جميع أعمال الكفار الدينية والدنيوية والمعاملات، لا بركة فيها. تجدهم يبنون بناءً اقتصادياً مهولاً شامخاً في نظر أهل الدنيا على مدى عقود من الزمن، فإذا به ينهار في ساعات.

بعكس الإيمان بالله تعالى الذي هو أصل القواعد والذي من أجله خلقت الدنيا، وعليه قامت السموات والأرض، وخلقت المخلوقات، وسنت القوانين. فهو سبب البركة والعلو والعزة، وعليه تؤصل الأصول والأهداف والغايات، وعلى قواعده يثبت البناء ﴿وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾، والحق هو الشيء الثابت ثباتاً راسخاً، فثبت به العمل وزكا.

وهذه قاعدة لجميع الأعمال الدنيوية والأخروية، إذ بركة الحق والتوحيد لا تقتصر على الأعمال التعبدية. لذا تجد أعمال المؤمنين الخالصة سواء الدنيوية والأخروية قد جُلِّلت بالبركة الإلهية، بينما جميع أعمال الكفار الدينية والدنيوية والمعاملات لا بركة فيها. فلما ذكر الكفر والإيمان كان هذا من باب تأصيل القاعدة بأن المبني على التوحيد والإخلاص يبارك فيه، بينما المبني على الكفر والشرك ممحوق لا بركة فيه وهو مخذول، وبه تضرب الأمثال وتقاس في المحق والضياع والهلاك وكذا في البركة ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَـٰلَهُمْ﴾، ثم شرع الله تعالى يذكر صوراً عدة للخذلان.

المحور الثاني: إذلال الكفار على يد المؤمنين وإباحة قتلهم

شرع الله تعالى للمسلمين إذلال الكفار وخذلانهم بقتالهم وقتلهم والإكثار منه وحصدهم ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾، وكذا شرع أسرهم ﴿ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ ﴾، والاستمرار في ذلك ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾.

ثم شرع الله تعالى التفضل والمن عليهم بإطلاق سراحهم أو الفداء أو استرقاقهم إلى أن ينزل عيسى عليه السلام أو إلى أن لا يبقى شرك ولا كفر على وجه الأرض، حينئذ تضع الحرب أوزارها ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾، فهذه صور عدة لخذلان الكفار قتال وقتل وحصد وأسر واسترقاق ومنٌّ عليهم.

أما من قُتل من المؤمنين في جهاد الكفار فلن يناله شيء من الخذلان، بل سيحظى بالحفاوة الإلهية في الدنيا والآخرة وفي البرزخ. فعمله مقبول محفوظ، وأجره باق ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾، وسيهديه الله تعالى ويصلح أحواله في قبره ليوفق في إجابة الملكين، وكذا تناله الهداية والحفاوة يوم القيامة عند بعثه، وتستمر معه الهداية إلى أن يجوز الصراط، ويدخل الجنة ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ فيعرف منزله ويهتدي إليه، وقد عبقت له الجنة بالروائح العطرة، قال ﷺ «والذي نفسي بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا»(١).

ومما ينال من الحفاوة ما قاله رسول الله ﷺ: «إنّ للشهيد عند الله عز وجل ست خصال: أن يُغفَر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه»(٢). وكذا يصلح الله تعالى شئون أهله بعد وفاته ﴿ سَيَهْدِيهِمْ

١- رواه البخاري (٦٥٣٥).

٢- رواه أحمد (١٣١/٤) وصححه الترمذي (١٦٦٣) والألباني في أحكام الجنائز (٣٥-٣٦).

وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾.

وأمّا من بقي من المجاهدين على قيد الحياة فالنصر حليفهم، والتمكين في الأرض مكتوب لهم ولو بعد حين، والثبات على الهداية متحقق لهم ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾.

أما سبب صلاح أحوال المؤمنين وإكرامهم ونصرهم فهو إيمانهم بالله تعالى ونصرهم لعقيدة التوحيد ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾. بينما سبب إذلال الكفار وخذلانهم بالصور المذكورة من قتال وقتل وحصد وأسر وسبي ومنٍّ، وشقائهم، وخيبتهم، وتعثرهم، وعدم ثبات أقدامهم، وضلال أعمالهم وحبوطها هو كفرهم ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾، وكفرهم هذا لكراهتهم ما أنزل الله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾. فهذه صور أخرى للخذلان وهي ملازمة الشقاء والخيبة للكفار ﴿ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾.

المحور الثالث: الإهلاك الإلهي الحسي والمعنوي في الدنيا

إذا عجز المؤمنون عن إذلال الكفار بأيديهم تدخلت حينئذٍ اليد الإلهية سافرة فأهلكتهم إهلاكاً حسياً ومعنوياً، ودمّرت عليهم كل شيء، سواء السابقين منهم واللاحقين. أما الهلاك الحسي فصوره منتشرة في كل بقاع الأرض ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾. فما سبق من الإهلاك الإلهي عبرة ومثل وإنذار بعقوبة مماثلة أو أشد لمن يأتي بعدهم ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾، فلا نصير لهم حينئذٍ ولا ولي ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾، وهذه صورة أخرى لخذلانهم وإذلالهم.

أما المؤمنون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر فإن الله تعالى مولاهم، فينجيهم في الدنيا من تلك العقوبة الإلهية ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وكذا في الآخرة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

وقد يخطر على القلب تساؤل عما قبل إهلاك الكفار بالعقوبة الإلهية السافرة أو قبل موتهم الموت المعتاد: ألم يكونوا في نعيم؟

إنهم ليسوا في نعيم حقيقي، إنما كان عيشهم في متعة دنيوية زائلة، فهو انتفاع قليل بالمتاع كتمتع البهائم ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾، فلا قرار ولا استقرار في الدنيا، ومآلهم إلى زوال. إنما مستقرهم نار جهنم ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أعاذنا الله منها، وهذه صورة أخرى من خذلان الله لهم.

أضف إلى ذلك العذاب القلبي الملازم لهم، والاضطراب الدائم، والتخبط، والقلب المحطم المليء بالحطام، وهذا النوع الثاني من الهلاك وهو الهلاك المعنوي. لماذا؟ لأنهم لم يهتدوا بهدى الله تعالى وقواعده الشرعية، إنما قائدهم الهوى، فهو منهجهم وسبيلهم. وإذا كان الهوى قائداً تخبط بأتباعه وتلاعب بهم بلا هدف سام، حينئذ يصبح القلب مضطرباً ينقض آخره أوله، محطماً، ضائعاً، معذباً ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ

﴿ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴾، فهذه الصورة الأخرى من صور الخذلان الإلهي.

بينما النعيم الحقيقي يكمن في السعادة القلبية المصاحبة للإيمان بالله تعالى والاهتداء بهديه، فبه يحصل الاستقرار القلبي والاطمئنان ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾، ومن ثم النعيم الحسي. فهم يتقلبون في الجنان في دورهم الثلاث: في الدنيا وفي قبورهم ثم يوم القيامة، ذاك النعيم الدائم في الجنة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾.

تلخص مّما سبق أن هذه الصورة من الخذلان تتحقق بالإهلاك الإلهي الشديد، فلا ناصر لهم حينئذٍ ولا ولي، ثم النار مثوى لهم. أمّا ما قبل الإهلاك فهو كتمتع البهائم مع ملازمة العذاب القلبي والاضطراب الدائم.

من أسباب هذا النوع من الخذلان الكفر، ثم إيذاؤهم إياك يا رسول الله، وإخراجك، وإخراج أتباعك ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾. إنهم أرادوا بإخراجهم إياك هلاكك فأهلكناهم، أرادوا بذلك تحطيمك فحطمناهم. إن إخراجك لهو أقبح عمل وأسوؤه بعد الكفر بالله تعالى يستحقون به أن يهلكوا عن بكرة أبيهم، وبالرغم من قبحه إلا أن هواهم زينه لهم فتباهوا به على أنه أفضل الأعمال ﴿ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴾.

إن طريق النجاة منه الإيمان بالله تعالى بدلاً من الكفر، والالتصاق بك، ومتابعة هديك بدلاً من إيذائك. فهدي رسول الله ﷺ في فهم القرآن والدين هو البينة التي هي حجة الله تعالى على العباد ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾. لذا فإن طريق النجاة هو بقاء حجة الله تعالى فيهم، وهي هذه الدعوة النبوية المباركة وعدم طمسها فضلاً عن إخراجها.

إن الخذلان الإلهي المباشر في الدنيا لمن ترك متابعتك وترك العمل بالأدلة البينة الواضحة وظل غارقاً في هواه، قد زينت له القبائح ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ فنتج عن ذلك الخذلان في الآخرة.

المحور الرابع: شدة العذاب في الآخرة

إن الخذلان الأكبر والعقوبة الأشد في الآخرة حين يحرم الكافر مما يكرم به المؤمنون. فيرى المؤمنين في أعز حال وأكمله، على ضفاف الأنهار، في غاية الصفاء، لا يجدون رائحة الكدر ولا التغير، وشراب طيب مماثل للحال الطيبة ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾، وأتم أنواع النعيم ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ في غاية البياض والنقاوة، ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴾ وألذها منظراً ومطعماً ورائحة وأثراً، ﴿ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ غاية في الصفاء والحلاوة، ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ قد استقروا في ألوان من النعيم. ولا يطيب العيش إلا بمغفرة الرب ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾، وقد يصاحبها شيء من العتب ليتم صفاء المودة والحب مع أكمل الذوات وأرفعها، مع الله رب العالمين.

بينما يرى الكافر نفسه قابعاً في جهنم، خالداً في النار التي لا يخبو لهيبها عن ظاهر جسده ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ﴾، وأمّا باطنه ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ كأحوالهم المقطعة. هذه هي الأحوال الحقيقية للعزة والعلو من جهة والذل والخذلان من جهة أخرى، لا متاع الدنيا الفاني.

ولا يكن عندكم المتاع الدنيوي الزائل هو ميزان الحكم على العزة من جهة والذل والخذلان من جهة أخرى، بل حقيقة الخذلان ستظهر في الآخرة، فاعملوا لها ﴿ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾.

المحور الخامس: قلوبهم مخذولة

ومن صور الخذلان خذلان القلوب. قد ترى ظاهر الكفار الفرح والسعادة ولكن قلوبهم معذبة، بليدة، مطبوع عليها، لا تحب مجالس الذكر التي تحيا بها القلوب، وإن جلست فإنها لا تفهم ما يقال فيها، ولا تدرك المقاصد العظمى، ولا تحسن فهم ميزان المصالح والمفاسد، غارقة في بحر شهواتها، لاهثة خلف ملذاتها، لا ترى إلا شهواتها، ولا تسمع إلا إياها، مغترة بالعاجل، غافلة عن سعادتها الحقيقية ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾. قلوب خاوية، لا وجهة لها ولا قصد إلاّ اتباع الهوى ﴿ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾، فالأهواء تقلبها وتهوي بها، لذا تتسم بالخفة وعدم الوقار. وهذا لا يقتصر على الكفار بل كل من سار على سنتهم وإن كان من أهل الإسلام.

بضد أهل الإيمان الذين بصّرهم الله تعالى فأمسوا يفقهون المقاصد العظمى لشئون الحياة والتي بينتها الشريعة، ويحسنون فهم ميزان المصالح والمفاسد، فيحسنون تقدير الأمور ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾. لذا فهم يرتقون في سلم السعادة والهداية بتوفيق الله تعالى لهم وإعانته إيّاهم.

ولشدة بلادة قلوب أهل الكفر وغفلتها تراها لا ينفع معها التذكير والإنذار، ولا تعتبر بالمصائب، ولا تتعظ حتى تباغتها عظائم الأمور، فلا تتصف بالفطنة. من ذلك فيما يتعلق بالساعة، بالرغم من وضوح مقدماتها وظهور أشراطها إلا أنهم غافلون عنها، غارقون في ملذاتهم، لاهثون وراء العاجل الفاني الرديء الذي غرهم عن الاستعداد للآجل الدائم النفيس حتى يباغتهم ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾.

فيا أهل الإيمان إياكم وهذه الغفلة وهذا النوع من الخذلان، ولتكن قلوبكم سليمة فطنة.

استثمروا العاجل للفوز بالآجل، واستعدوا لعظائم الأمور والتقادير الإلهية لا سيما الساعة، استعدوا لها بالتمسك بالتوحيد واليقين والعمل الصالح، فإن زللتم فعليكم بالاستغفار، والتآلف مع المؤمنين والمؤمنات والتأليف بينهم، وليسع كل منكم لمنفعة إخوانه، والاستغفار لهم، والتجاوز عنهم، والدعاء لهم ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ . بهذه الأمور الثلاثة: التوحيد، والعمل الصالح مع بغض الذنوب، والتآلف بين أفراد الأمة تتكون أمة عزيزة غالبة. فهذه الأصول التي عليها تبنى سعادة الأمة، ويحرص عليها أصحاب القلوب الحية.

لا تغرنكم أحوال الكفار الظاهرة، مهما جمعوا فقلوبهم مريضة، قد استحكم فيها المرض، لا تفهم الكلام الواضح البين المحكم فضلاً عن الإشارات والكنايات، لا سيما إذا نزلت آيات من الله تعالى محكمة بينة فإن قلوبهم تضيق ذرعاً. فتجدها خائفة مضطربة جبانة، ومن أنعم النظر فيهم رأى ذلك جلياً في أعينهم ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾.

قلوب لا تشعر منها الصدق، فلو كانت صادقة طاهرة كقلوب المؤمنين لرأيت البركات تنهال عليها وعلى أصحابها ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ . لكنها قلوب كاذبة فاسدة، ترتع في الفساد الجاهلي، تبحث عن شهواتها ومصالحها الخاصة، أملت على أصحابها اللهث خلف شهواتها، فتجدها تفسد في الأرض لتحصل أدنى المصالح، فالتنافس على الشهوات قادهم إلى الاقتتال وتقطيع الأمة، فعمّ بينهم القتل وسفك الدماء لا سيما دماء أبناء العمومة ونهب أموالهم مقطعين بذلك أرحامهم وأمتهم ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾، بينما تجبن عن الجهاد والقتال في سبيل الله لإعزاز الأمة.

فالقلوب التي هذه سجايها وطباعها قلوب عمياء، صماء، مقفل عليها ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ أوصدت بقفل كبير. فلا ينفذ إليها القرآن، ولا تفهم ظاهره فضلاً عن دقائقه وإشاراته. قلوب لا تقبل أي نفع ومصلحة، فلا ينفذ إليها شيء من الخير. لكنها تستجيب استجابة سريعة للإشارات والتوجيهات الشيطانية، فتنقلب سريعاً وترتد ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾.

بينما أهل الايمان قد كملت حياة قلوبهم، فقلوبهم حية متلهفة لكل ما نزل من الله تعالى واستجد نزوله. تراها تتدبر كلامه وتفهم الإشارات والكنايات، تتسابق إلى الاستجابة لله تعالى ولما يحبه ويرضاه ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾.

ملخص أسباب هذا النوع من الخذلان وهو خذلان القلوب وعماها أنها لا تبذل أي مجهود للانتفاع من مجالس الذكر عند حضورها. بل دأبهم الاستهزاء بها اتباعاً للأهواء ﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾. ومنها أنها لا تنقاد للمولى تعالى ولا لرسوله ﷺ ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾، بل دائماً ما تظهر الشكاية من الأوامر الإلهية، والاعتراض عليها باللسان بدلاً من ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾، ثم عدم الصدق مع الله تعالى. ومنها السعي في الفساد في الأرض لأدنى مصلحة خاصة ومن ثم قطيعة الرحم الذي بصلته تحل البركة في المال والأهل والبدن والقلب ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ﴾. ومنها عدم تدبر القرآن الذي به تطمئن القلوب ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾. ومن كان من أهل الإسلام ولكنه مشى في هذا الطريق فإنه قد ينتهي به إلى الارتداد المفسد للقلب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾.

المحور السادس: الخذلان في الأصحاب

من صور خذلان أهل الكفر والنفاق أنهم لا يوفقون إلى الأخيار من الأصحاب وإنما يقيض لهم قرناء السوء. خلانهم إخوانهم شياطين الجن ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾، ثم ممالأة من هم على شاكلتهم من شياطين الإنس ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾.

المحور السابع: الخذلان والخزي على يد الملائكة

كما تخلت الملائكة عن الكفار في الدنيا لتتسلط عليهم الشياطين ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ فكذا تتخلى عنهم عند الوفاة، بل إنّ الملائكة تبسط أيديها عليهم بالضرب عند انتزاع أرواحهم ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾، فأنى لهم أن تشفع لهم عند الله تعالى حين تحل الشفاعات يوم القيامة بعدما حوسبوا ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾. التخلي عنهم في الدنيا وضربهم عند الوفاة وعدم الشفاعة لهم أنواع ثلاثة من الخزي على أيدي الملائكة.

وسبب هذه الأنواع الثلاثة من الخزي المصاحب لإحباط العمل هو عدم طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٠ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾، والإعراض عن المعجزة العظمى وهو القرآن وعدم توقيره والانكباب على قراءته وتدبره، بل قفل القلب عنه ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾. فتعظيم القرآن بقراءته تجلب الملائكة لتحف قارئه تعظيماً له ومحبة، قال رسول الله ﷺ «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[١].

وقال النبي ﷺ في رجل قام من الليل يقرأ سورة الكهف فتغشته سحابة فجعلت تدنو وتدور، فلمّا أصبح وأخبر النبي ﷺ بذلك قال له: «تلك السكينة تنزلت بالقرآن».[٢] وفي حديث أسيد بن حضير بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة ثم رفع رأسه إلى السماء فإذا هو بمثل الظلة فيها أمثال المصابيح عرجت إلى السماء حتى ما يراها. فقال له النبي ﷺ: «تلك الملائكة دنت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى

١- رواه مسلم (٢٦٩٩).

٢- رواه البخاري (٥٠١١).

عنهم»[1]. وقال النبي ﷺ: «مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام البررة»[2]. فقارئ القرآن تصاحبه الملائكة وتفر منه الشياطين. لذا قال النبي ﷺ: «إنّ الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة»[3].

إن عدم طاعة الله ورسوله ﷺ والإعراض عن القرآن وعن تعظيمه بقراءته وتدبره يوجب إعراض الله عنه جزاءً وفاقاً فيوكله إلى نفسه، وهذا يقود إلى سبب آخر لهذا الخذلان الملكي وهو سلوك طرق التحلل من الأمور الشرعية، ومن ثم طاعة أهل الكفر وأهل النفاق الكارهين لدين الله تعالى، وهذه الطاعة تقود إلى سيئة أعظم وسبب أكبر للخذلان وهو الارتداد عن دين الله تعالى. لذا من أكبر أسباب هذا الخزي الارتداد عن الإيمان بعد وضوحه لهم سواءً كانت ردة معلنة أو خفية أسرّوا بها إلى بعض الكفار ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ﴾، فلمّا ارتد ورجع رجعت الملائكة عن مصاحبته والشفاعة له، بل أصبح عدواً لها. ولما أعرض عن كلام الله تعالى أعرض الله عنه، وأعرض عنه جميع أهل الخير من الملائكة والصالحين. ولمّا أطاع الكاره لدين الله تعالى كرهته الملائكة. وبسبب اتباعهم لما يسخط الله تعالى وكرههم رضوانه ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ سخطته الملائكة وكرهت رضوان الكافر، فالجزاء من جنس العمل.

١- رواه أبو عبيد في فضائل القرآن (٢٦) وذكره البخاري معلقاً (٥٠١٨).

٢- رواه البخاري (٤٩٣٧) ومسلم (٧٩٨).

٣- رواه مسلم (٧٨٠).

المحور الثامن: فضح أسرارهم وإظهار نفاقهم

من أشد الأمور على الإنسان أن ينكشف أمره ويظهر للناس ما أسره من مكر وخبث ويفضح على الملأ، فتجده يمشي بينهم مخذولاً.

مرضى القلوب الذين امتلأت قلوبهم حقداً وحسداً وجبناً ونفاقاً وتأففاً من الأحكام الشرعية ظنّوا أن لن يفضحهم الله تعالى ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾. بل يفضحهم الله تعالى بعلامات تظهر على سيما وجوههم ﴿ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ﴾، أو على فلتات اللسان، أو لحنه ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾. وكذا المستخْفون بينكم غاية التخفي سنفضحهم بالحوادث والابتلاءات التي تكشف خبايا قلوبهم وضغائنهم ﴿ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾.

بينما أهل الإيمان سيظهر إيمانهم وصفاؤهم على وجوههم وجوارحهم وألسنتهم. أما الحوادث فإنها تصقل أهل الإيمان، وتظهر جوهرهم المكنون وطيب معدنهم ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾.

ليس كل مستتر بالمعصية يفضح، وإنما هذا النوع من الخذلان وهو الفضيحة المصاحبة لإحباط العمل سببه الأول الكفر، ثم الصدّ عن سبيل الله تعالى، ومشاقة الرسول ﷺ من أمامه ومن خلفه، وتأليب الناس ضد الأحكام الشرعية من قتال وغيره بعدما تبين لهم الهدى ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾. فالجزاء من جنس العمل، لمّا كفروا وستروا الحق الذي عرفوه فضحوا، ولمّا صدوا عن سبيل الله جعلنا الناس يصدون عنهم بفضحهم، إذ الناس يصدون عن المفضوح ولا يحبون لقاءه، وكذا يضطر هو للتصدد عن الناس للخجل الذي يصيبه، صدٌّ عوقب بصدٍّ أعظم. والفضيحة من أشق الأمور على النفس فكانت جزاءً لمشاقتهم النبي ﷺ، مشقة عوقبت بمشقة

أعظم، وفيها تأليب للناس عليهم.

فمن أراد العزة والرفعة والستر فعليه بالتسليم لله تعالى بدلاً من الكفر، والتسليم لرسوله ﷺ بالطاعة والدعوة إليه بدلاً من الصد عن سبيل الله تعالى، والانقياد بدلاً من المشاقة والعناد ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾.

المحور التاسع: إحباط أعمالهم

ومن أشد صور الخذلان أن يعمل الإنسان ويجتهد، ثم لا يجد لعمله بركة عاجلة في دنياه ولا آجلة. لا سيما عندما يأتي يوم القيامة وهو في أمس الحاجة إلى أعماله لتشفع له ويثاب عليها فيفاجأ بها قد أحبطت وبطلت. هذا إذا تقرب إلى الله تعالى دون الاهتداء بهدي الله تعالى ولا بهدي النبي ﷺ، إنما تقرب إليه بالبدع ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾، فالبدعة ليست طاعة لله تعالى ولا طاعة لرسوله ﷺ. بل هي باطلة مردودة على صاحبها غير مقبولة عند الله تعالى، قال النبي ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[1]. أي مردود على صاحبه، فالعمل المحدث المبتدع باطل، إنما العمل المقبول ما كان فيه مطيعاً لله تعالى موافقاً لهدي النبي ﷺ في أداء تلك العبادة.

فكيف إذا كان سعيه في دنياه في الكفر والصد عن سبيل الله تعالى ومشاقة الرسول ﷺ؟ فجميع الأعمال والأفعال التي قام بها لإحباط خطط المؤمنين لنشر التوحيد وإن رأى لها ثمرة عاجلة فإنها طفيفة ومؤقتة. ثم يراها بعد ذلك قد تلاشت، بل وانقلبت عليه، فأحبطت خططه وأحبط تدبيره، فالجزاء من جنس العمل. تلك الخطط الماكرة وهذا الكيد لم يؤثر شيئاً في الدعوة إلى الله تعالى بل سيعززها، فهي ماضية تكفل الله برعايتها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾. بينما هو بسعيه الماكر كرّ على نفسه فباء على عمله بالإبطال ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾. أما يوم القيامة فيأتي لا نصير له ولا شفيع ولا صديقاً حميماً، ولا يرى إلا عملاً محبطاً، ولا يرى إلا ما قدمه من مبطلات الأعمال التي تلازمه وهي الكفر والصد عن سبيل الله ومشاقة الرسول ﷺ، فلا بركة لعمله، وإنما يرى شؤم عمله لا ينفك عنه. فاحذروا يا أهل الإيمان!.

١- رواه مسلم (١٧١٨).

المحور العاشر: عدم التجاوز عن ذنوبهم

الذي أحبط عمله ولم يقبل قد يأمل بشيء من الستر للجرائم التي اقترفها ويرجو عدم الافتضاح. إذ ستر بعض الأخطاء مرتبة دون مرتبة إحباط الأعمال، فالذي يئس من الإثابة على عمله لم ييأس من التستر على بعض خطئه.

إن هؤلاء الكفار الذين أحبطت أعمالهم لن يجنوا شيئاً من هذا الستر لأجل كفرهم وصدهم عن سبيل الله وموتهم على الكفر ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾، فلا ستر، ولا إظهار جميل، بل يفضحون أمام العالمين. فبكفرهم ونكرانهم لجميل الله تعالى وبصدهم عن سبيله إلى موتهم قضوا على كل حسنة وكل جميل فعلوه، وأغلقوا الباب أمام كل مغفرة، وهذه صورة أخرى للذل والخذلان.

وفي الآية إشارة إلى الدعوة إلى التوبة قبل الموت، لئلا يموت وهو كافر فيفقد المغفرة والإثابة على عمله، فإذا تاب قبل الموت حصل على ثواب عمله كاملاً ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾، وسترت ذنوبه، وظهر جميل عمله، وغفر له سيئه.

المحور الحادي عشر: العزة للمؤمنين

أيها المؤمنون بعد أن تأصلت لديكم هذه القاعدة أن الخذلان والخزي سيتحقق بجميع صوره للكفار، فلتتأصل عندكم حينئذ القاعدة المصاحبة لها بأن النصر والعزة للمؤمنين دائماً في جميع الأحوال.

فإذا ما ابتلاكم الله تعالى وأصابتكم المصائب وكانت الدائرة عليكم يوماً ما فلا تشعروا بالوهن والذل، ولا تستسلموا لها، ولا تستسلموا للكفار، فليس هذا خذلاناً، بل أنتم الأعلون دوماً. فهذه المصائب ما هي إلا ابتلاءات ليبلو أخباركم ويختبركم. وإذا ما نصركم الله تعالى عليهم فلا تدعوا إلى السلم فأنتم الأعلون كذلك. إذا ما كنتم مع الله تعالى فالله دائماً معكم في جميع الأحوال، ولن يخذلكم في أي مرحلة من المراحل، ولن يتخلى عنكم، فأنتم الأعلون في جميع الأحوال ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ ﴾. ذلك لأن أعمالكم محفوظة عنده لن ينساها، ولن ينسى جهادكم وإحسانكم، فلا تحبط ولا تنقص سواءً جنيتم حلاوتها وآثارها في الدنيا أم لم تجنوها ﴿ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾.

ولا يغرنكم بعض العلو الزائف ولعاعة الدنيا التي يتمتع بها الكفار بجوارحهم بينما أنتم تتقلبون ببعض المصائب لا سيما إذا كانت على أيديهم، فما هو إلا لعب الجوارح لإلهاء القلوب ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾. فليس هذا المتاع الزائف ميزاناً للعلو والعزة الحقيقيين، وإنّما ميزانهما الإيمان والتقوى. فأشغلوا قلوبكم وجوارحكم بالإيمان والتقوى ليرفع عنكم المصائب وتنهال عليكم الرحمة والمنافع والمصالح في جميع الأزمان وجميع الأحوال من جميع الجهات، وتشعروا حينئذ بالعلو الحقيقي والعزة الحقيقية، واعلموا أن الله تعالى لا يسألكم درهماً واحداً عوضاً عنها ﴿ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴾.

المحور الثاني عشر: البخل جامع لصور الذل والخذلان

إن الإيمان والتقوى ليسا ألفاظاً يتلفظ بها العبد ليفوز بمعية الله تعالى، وإنّما حقائق وعقيدة راسخة في القلب يظهر صدقها بالابتلاء والاختبار. من تلك الاختبارات دعوة الله لكم للإنفاق في سبيله. فالإنفاق في سبيل الله تعالى دليل على صدق الإيمان، إذ المال لصيق القلب والروح، وبه تظهر خبايا القلب.

إن أدوى داءٍ في القلب وأخنع سجايا الذل والخذلان في النفس للمسلم والكافر هو البخل كما قال ﷺ: «وأي داءٍ أدوى من البخل» [1]. فالمؤمن الذي يستحق العلو والعزة كريم النفس واليد واللسان، عدو البخل. فالبخيل جبان القلب، ذليل النفس، لا يستطيع أن يجود بماله، فكيف يجود بنفسه لله تعالى وينهض لقتال الكفار ليخزيهم الله تعالى على يديه؟

فالبخيل لا يكون سعيد القلب متنعماً. بل تنخر بقلبه آفات كثيرة، وجملة من أمراض القلوب المتنوعة من حسد، وحقد، وبغض، وتأفف، وعدم صدق، ونفاق، وخبايا سيئة، وتعنت. ثم لا يوفق لصاحب، فكيف يوفق لأصحابٍ خيّرين وإخوة صالحين مع بخله؟ فأي عزة ينالها؟ وأي سعادة يجنيها وهو مخذول القلب والأصحاب؟ بل بالبخل يكون قد سلك طريق الذل والخذلان، فالبخيل مخذول.

وها هو الغني الكريم سبحانه يدعوكم الآن إلى الإنفاق اختباراً وابتلاءً ليظهر خبايا بعضكم ﴿ وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾. إنّ دعوته لكم إلى الإنفاق ليست سؤال محتاج، وإلا لألحّ عليكم إلحاح المحتاج الذي يضجركم، إلحاح من لا يمل من السؤال حتى تصابوا بإملاق أو تصيروا حفاة بلا مال ﴿ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا

١- رواه البخاري في الأدب المفرد (٢٩٦) وصححه العراقي في تخريج الإحياء (٣/٢٥٤) وصححه الألباني.

فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ ﴾.

إنما دعوة الله تعالى لكم للإنفاق دعوة للدخول في تجارة رابحة، لا يصل إلى جلاله منها درهم واحد، وإنما تعود عليكم بالأموال المضاعفة أضعافاً كثيرة، والمصالح العظيمة، والمنافع المتناثرة، والنعم الرافلة، والبركة السابغة، هذا في الدنيا ثم يدخرها لكم ويصلح بها بالكم وشؤونكم في الدور الثلاث، ويكفر بها سيئاتكم، ويدخلكم بها الجنة، ويتمم لكم بها تمام العلو والعزة، ويخذل بها أعداءكم.

فالله تعالى له تمام الغنى والحمد، بينما أنتم لكم غاية الفقر والاحتياج إليه ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ ﴾. إنّ البخيل يحرم نفسه تلك التجارة العظمى، التجارة الرابحة ﴿ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾.

لقد سدّ البخيل على نفسه أبواب الخير وإصلاح البال وتكفير السيئات والنصر على الأعداء وقوة القلب وشجاعته. وسدّ على نفسه استجلاب أهل الخير ومصاحبتهم، إذ النفوس تبغض البخيل وتنفر منه. ثم فتح على نفسه أبواب الفضائح على مصاريعها، فالبخيل مفضوح للجميع.

لقد جمع البخيل جُلّ صور الذل والخذلان، فلا يستحق حينئذٍ أن يكون حاملاً لراية العزة راية الإيمان، وإنّما يستحق الذل والخذلان ليأتي بدلاً منه من يحمل هذه الراية ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴾. لقد اشترك البخل والكفر في أكثر صور الذل والخذلان، لذا فإن البخل طريق ووسيلة إلى الكفر، يستحق صاحبه الاستبدال كما أن الكفار يستحقون الاستبدال.

المحور الثالث عشر: الخاتمة

أيها المؤمنون اسعوا لتحقيق الخذلان للكفار وإذلالهم بالجهاد في سبيل الله تعالى وقتالهم ليخزيهم الله تعالى في الدنيا والآخرة، ويعزكم الله تعالى ويعليكم. ومن أعظم الجهاد الإنفاق في سبيل الله تعالى، فهو دليل على الإيمان بالله تعالى ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وهو من أظهر صور العمل الصالح والإيمان بالنبي محمد ﷺ لتكفر به السيئات، ويصلح الله به أحوالكم وشؤونكم.

وهذا الذي انتهت به السورة تعانق مع ما ورد في أولها من الدعوة إلى الإيمان والعمل الصالح ليصلح الله شؤونكم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾. ومناسب لما ورد في أولها من الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله تعالى وقتال الكفار ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾. فالجهاد يكون بالمال والنفس، فذكر في أولها الجهاد بالنفس، وختمت بالجهاد بالمال.

فانتهت ببراعة وبمفاجأة تثير الانتباه، وختمت باجتناب أدوى داء ينبئ عن نفس ذليلة وروح مخذولة وعادت على بدء، وعاد آخرها على أولها ليتكامل عقد السورة.

ولله الحمد والمنة أولاً وآخراً والله أعلم.

سورة الفتح

مقصد السورة

نصرة النبي ﷺ ومؤازرته وتوقيره.

الأدلة على مقصدها

١- المناسبة بين مستهلها وخاتمتها

استهلت السورة بالفتح المطلق وهو أعظم صور النصر ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، وثنيت بنصر صريح ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾. واختتمت بالفتح وبآيات دالة على نصره ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، وكذا اختتمت بمؤازرته ﴿مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾.

٢- تكرار لفظ النصر ومرادفاته

ورد في السورة عدة ألفاظ تحقق مقصد السورة، منها النصر والتعزير والتوقير ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾، ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾. ومنها الفتح ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾، والمبايعة وهي تأييد بيّن ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ ﴿يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾. ومنها الجنود المعدة للنصر والمؤازرة ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. ومنها فوقية اليد المقتضية للبيعة والنصر والتأييد ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾. ومنها الظفر ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، والظهور بالغلبة والانتصار والعلو ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾. ومنها معية التأييد والنصر ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾، والمؤازرة ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ﴾. ومنها الغنائم التي هي من ثمرات النصر ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾، ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ

﴿ مَغَانِمَ كَثِيرَةً ﴾، ﴿ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ﴾.

٣- ذكر ما يضاد مناصرته

ورد فيها ذم من لم ينصر النبي ﷺ، أو ظن ذلك في الله تعالى. فمن ظن أن الله تعالى لن ينصر نبيه محمداً ﷺ فقد أساء الظن به ﴿ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾. وفيها ذم من تولى وتخلف عن مناصرته ﷺ ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ ﴾ ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ ﴾ ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾.

٤- ما تميزت به السورة

مما تميزت به السورة عن سائر السور أنه ذكر فيها مبايعة الله تعالى وهي أعظم نصر ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾، وكذا فوقية يد الله تعالى على أيديهم أثناء البيعة ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ ففيها بشارة بالتفوق والانتصار. وورد لفظ ﴿ عَلَيْهُ اللَّهَ ﴾ بالضمة الدالة على الرِّفعة، فالرِّفعة في الدنيا نوع من النصر، والرِّفعة في الآخرة أعظم نصراً.

٥- اسمها

اسمها سورة الفتح، والفتح المطلق من الله تعالى للنبي ﷺ أعظم صور نصرته ﷺ. وفروعه إما بفتح بلد والانتصار على أهلها، أو بفتح أبواب الخير عليه، أو بنزول حكم الله تعالى المؤيد له ﷺ، وجميعها فيها نصرة له ومؤازرة وإعلاء شأنه وقدره.

٦- أواخر السورة التي قبلها

ورد في آخر سورة محمد ﷺ السابقة لها ما يشير إلى نصره ونصر أتباعه ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ ﴾. وكذا انتهت بالدعوة للإنفاق لنصرته ﷺ ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

محاور سورة الفتح

المحـــور الأول: براعة الاستهلال بالبشارات الخاصة بنصرة الله تعالى لنبيه محمد ﷺ.

المحـــور الثانـي: ثواب من وقرك ونصرك وآزرك.

المحـــور الثالـث: عقوبة من خذلك.

المحـور الـرابـع: أمر الصحابة والمسلمين بتوقيره ﷺ ونصره.

المحور الخامـس: نواقض نصرته وتوقيره.

المحور السادس: لوازم نصرته.

المحور السـابـع: الخاتمة.

محاورها

المحور الأول: براعة الاستهلال بالبشارات الخاصة بنصرة الله تعالى لنبيه محمد ﷺ

استهلت السورة بالبشارة بتحقق نصر الله العظيم لنبيه محمد ﷺ، وفتح أبواب الخير على مصاريعها له ﷺ خاصة ولأمته عامة ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾. واستهلت بذكر البشارات الخاصة به ﷺ من النصر والمغفرة المتقدمة والمتأخرة وإتمام النعمة والهداية التامة ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾. لذا قال النبي ﷺ «لقد أُنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس، ثم قرأ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾»[1].

١- رواه البخاري (٤١٧٢) ومسلم (٤٦٣٧).

المحور الثاني: ثواب من وقرك ونصرك وآزرك

أما من نصرك وآزرك ووقرك فليبشر بنزول السكينة عليه، وشهادة الله له بالإيمان، والارتقاء والزيادة في الدرجات، وإعذار الله له، وعفوه عنه إذا وقع في الخطأ لعظم المصائب التي تحيط به. كما حصل للصحابة رضي الله عنهم في الحديبية لما وقع منهم ما وقع من مراجعتهم للنبي ﷺ في شأن الصلح وشروطه ورجوعهم ذلك العام وعدم أدائهم العمرة فيه، ومع ذلك عذرهم الله تعالى وأكرمهم بتلك البشارات وأنزل السكينة عليهم.

ومنها تسخير جنود السموات والأرض لتثبيت من نصرك، وتبشيرهم بجنات الخلود وتكفير السيئات، ثم التهنئة والمباركة الإلهية لهذا الفوز العظيم ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾.

المحور الثالث: عقوبة من خذلك

أما من تخلف عن الخروج معك أو خرج وتخلف عن مبايعتك ونصرتك لظنه عدم نصر الله تعالى لك فليبشر بالفضيحة وعقوبته بالنفاق والعذاب الذي يسبق عذاب المشركين. وكذا توعده الله تعالى بالعقوبة السيئة في دنياه، وغضبه عليه، ولعنته، وسوء المصير في أخراه ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾. بل وتسخير جنود السماوات والأرض للانتقام منهم ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾.

المحور الرابع: أمر الصحابة والمسلمين بتوقيره ﷺ ونصره

لقد أرسلك الله تعالى شاهداً على الخلق تشهد عند الله تعالى لمن نصرك لينال خير الثواب، وتشهد على من خذلك لينال أشد العقوبات، ومبشراً لمن نصرك ووقرك وآزرك، ونذيراً لمن خذلك ولم يتابعك. لذا خاطب الله تعالى المسلمين خطاباً مباشراً للإيمان بالله ورسوله ﷺ، وتعزيره بنصرته ومؤازرته وإعانته، والجهاد لمنع كل أذى عنه وكل كيد وكل من يريد شينه.

وكذا أمر الله تعالى بتوقيره عند التعامل معه لأنه ﷺ أوقر من مشى على ظهر الأرض، وكذا أمر بتنزيهه عن كل وصمة تشينه. من ذلك تنزيهه عن إخلاف الوعد، كالوعد الذي وعد به الصحابة رضي الله عنهم بدخول مكة وأداء العمرة فهو واقع، ولكن لا يلزم أن يتحقق هذا الوعد عام الحديبية. وتنزيهه ﷺ عن سوء التدبير في موافقته على شروط قريش، وتنزيهه عن فساد الرأي وحاشاه ﷺ ذلك. وهكذا فليكن دأبكم معه في كل حين، بكرةً وأصيلاً ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾. ثم نزّهوا الله تعالى أن يرسل رسولاً فيه مثل تلك العيوب ﴿ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾.

واعلموا أن من أصدق الأدلة على صدق نصركم له متابعته على ما كرهته النفوس، بل ومبايعته ﷺ على نصره فيها وعلى الموت دونه. تلك البيعة التي تمثلت ببيعة الرضوان التي هي مبايعة لله تعالى، والتي وصف رسول الله ﷺ أصحابها حينئذ بقوله «أنتم خير أهل الأرض اليوم»[1]. وقال ﷺ: «لا يدخل النار إن شاء الله -من أصحاب الشجرة- أحد من الذين بايعوا تحتها»[2]. لذا قال الله تعالى فيهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا

١- رواه البخاري (٤١٥٤) ومسلم (١٨٥٦/ ٤٨١١).

٢- رواه أحمد (٦/٤٢٠) ومسلم (٢٤٩٦/ ٦٤٠٤).

يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾. ثم العض عليها بالنواجذ، وعدم نكثها، والوفاء بها وإلا لم تكن نصراً له ﷺ ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

المحور الخامس: نواقض نصرته وتوقيره

ثم حذر الله تعالى من نواقض نصرة النبي ﷺ ونواقض توقيره. من ذلك نكث بيعته ﷺ، والتخلف عنها ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾. ومن نواقضها التخلف عن الخروج معه في الملمّات وفي الأمور الجامعة، والانشغال بالأموال والأهل عنه ﷺ والتعلل بهم ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾. ومن نواقض توقيره عدم الصدق معه في القول ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾. فليبشر هؤلاء بالفضيحة وبلحوق الضرر بأهليهم وبأموالهم الذين تعذروا بهم ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ﴾. فحصول تمام النفع وحفظ الأهل والأموال بمصاحبته ونصرته ومتابعته ﷺ لا بالتخلف عنه.

ومن نواقضها سوء الظن بعاقبة من آزره ونصره. ومن نواقضها محبة استئصال الإسلام وأهله، وخذلان النبي ﷺ وأتباعه، ومحبة هزيمتهم. فسوء العاقبة والبوار لاحق بمن أساء الظن به وخذله ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾، والبوار هو الهلاك والفساد.

ولا تصدر تلك النواقض إلا ممن لم يؤمن بالله ورسوله ﷺ الذي هو أصل نواقض نصرته ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾. واعلموا بأن الله تعالى غير محتاج إلى إيمانكم ولا إلى نصركم للنبي ﷺ، فله ملك السموات والأرض، فهو غني عنكم وغني عن إيمانكم وطاعاتكم ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾. وبالرغم من ذلك فباب التوبة والمغفرة والرحمة مفتوح لم يغلق لمن تاب من تلك النواقض، وأقبل على الله تعالى تائباً مستغفراً مع غناه عنكم ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

أيها المؤمنون! احذروا هذا الصنف من الناس، فإنهم لن يطلبوا الخروج معكم إلا إذا شعروا أنهم سيكسبون من ورائكم منافع كثيرة وأموالاً طائلة، لا تظنوا أنهم أتوا إليكم

لنصرة النبي ﷺ، فلا تقبلوا خروجهم معكم. والذي يدل على هذا أنهم سيسقطون في أقرب اختبار وأيسره. إذ لو منعتموهم من هذا الخروج لاستطالوا عليكم واتهموكم بحسدهم، وعدم محبتكم الخير للناس ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾. بينما لو دعوتموهم بعده للخروج إلى قتال عدو ذي بأس شديد لنكلوا ونكصوا على أعقابهم ولم ينصروا النبي ﷺ ولا دعوته.

فمن نواقض نصرته أنهم لايخرجون معكم إلا لمصلحة عاجلة لا بقصد نصر دين الله تعالى ونصر رسوله ﷺ. ولا يخرج منهم إلا الذي تاب من سوابقه ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾، فمن تاب تاب الله عليه.

المحور السادس: لوازم نصرته

من لوازم نصرته ﷺ بعد الإيمان به اتباعه وطاعته لا سيما إذا دعاكم للخروج معه إلى الجهاد لتفوزوا بالأجر الحسن ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾. وكذا طاعته ﷺ على العموم التي تثمر ثواباً جزيلاً عند الله تعالى ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. وكذا الانكباب عليه حال حياته ﷺ، وعدم الانصراف عنه لا سيما في الأزمات والنوازل، ومبايعته على ذلك للفوز برضوان الله تعالى ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾.

ثم لا بد وأن يكون هذا العمل مصاحباً لإخلاص القلب لله، ونابعاً من شدة محبة القلب لله ولرسوله ﷺ ودالاً على صفائه ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، بهذا ينال المؤمن أعظم الثواب.

ويتجلى هذا الثواب برضوان الله تعالى، ونزول السكينة، والبشارة بفتوحات قريبة وغنائم كثيرة وما لا يخطر على قلوبكم ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾. وكذا الفوز بنظر الله إليكم والتفاته ورعايته لكم ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾، فخاطبهم الله تعالى خطاباً مباشراً بعد أن تكلم عنهم بصيغة الغائب ﴿وَعَدَكُمُ، تَأْخُذُونَهَا، فَعَجَّلَ لَكُمْ، عَنكُمْ، وَيَهْدِيَكُمْ﴾، وهذا يسمى بالالتفات. ومن ثوابه أن فرق أعداءكم بعد أن اتفقوا سوياً على قتالكم وهم يهود خيبر وغطفان. فألقى في قلوب غطفان الخوف، فكف أيديهم عن مقاتلتكم لمناصرة يهود خيبر. فجعلكم تتفردون بقتال اليهود ليتحقق وعد الله لكم بغنائم اليهود الكثيرة فتكون آية لكم لتزدادوا بها هدى ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

ومن لوازم نصرته المحافظة على عهود النبي ﷺ ومواثيقه في حال انتصاركم، أو عند التمكن من العدو وعدم البغي عليه، لا سيما مع نشوة الانتصار كما حدث بعد توقيع معاهدة الحديبية لما مكن الله تعالى سلمة بن الأكوع من أربعة من مشركي أهل مكة، ومكن آخرين من مجموعة أخرى من المشركين حتى اجتمع منهم سبعون بين يدي النبي ﷺ «بلا قتال وقد ظهرت منهم بوادر الغدر فعفا عنهم»[1]. لذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

ومنها مراعاة الضعفاء من أتباع النبي ﷺ وعدم إيصال الأذى إليهم كأولئك الضعفاء الذين كانوا بين ظهراني قريش ولم يعلم بهم الصحابة ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾.

ومن لوازم نصرته الثبات على متابعته ﷺ بالرغم من القرارات النبوية الشديدة على النفس، كما حصل في شروط قريش المجحفة ظاهراً في صلح الحديبية والتي وافق النبي ﷺ عليها. وإن كان لا يوافق ما في نفوسكم لما رأيتم في شروطهم نوعاً من الاستعلاء عليكم وصدهم لكم عن المسجد الحرام ومنعكم من العمرة. إلا أن في ذلك مصالح ومنافع عظيمة، من هذه المصالح حفظ دماء ضعفاء المسلمين الذين لم تعلموهم، ومنها منع وقوع مصائب عليكم لو أصبتم من دماء المسلمين الضعفاء، ومنها ما قدره الله تعالى من إيمان بعض أولئك الكفار في المستقبل ليدخلهم في رحمته كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وأبي سفيان وسهيل بن عمرو وغيرهم ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾. ومن هذه المصالح تثبيت المؤمنين وإنزال السكينة عليهم عند ظهور الاستفزازات وحمية

١- رواه مسلم (١٨٠٧).

الجاهلية من قبل الكفار كطلبهم محو اسم «الرحمن» [1] من كتاب المعاهدة، ومحو لفظ «رسول الله ﷺ» [2] ليرتقي بهم في مراتب التقوى ومنازل الثناء العليا ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾.

ومن لوازم نصرته التصديق بالإشارات النبوية، والأخذ بها، كرؤيا المنام وهي أدنى طرق الوحي ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ ﴾. فكان ثوابها أن تحققت الرؤيا بأفضل تأويل بما فيه مصلحة عظيمة للأمة ولمن تابعه.

ومن لوازم نصرته التصديق بأخباره والفرح بها، لا سيما الأخبار المبشرة بظهور دينه، والعمل الدؤوب لتحقيقه بتعلم دينه والعمل به والدعوة إليه والصبر عليه ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾، فالله تعالى يشهد أن دينه سيظهر وسينتصر على جميع الأديان، وهذا ثواب من صدق بأخباره.

ومن لوازم نصرته محبة ملازمته ومصاحبته ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ فإن لم يفز بالمعية الجسدية وهي الصحبة فلن يحرم من معية النصرة والمحبة والتأييد له، فيدافع عنه وعن سنته ويذب عنها، ويحفظها ويصفيها ممّا ليس منها من الشوائب التي شوهتها. ولن يحرم من معية متابعته ﷺ والاهتداء بهديه والسير على سنته في تعامله مع الناس وتعامله مع الله تعالى وصدق السريرة.

ومن لوازم نصرته محبة صديقيه وأصحابه وأتباعه ومناصريه وبغض أعدائه ﴿ مُّحَمَّدٌ

١- رواه البخاري (٢٧٣١).

٢- رواه البخاري (٢٦٩٨).

رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾. وكذا بغض من يبغض أصحابه ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ ﴾، فالذي يغتاظ من أصحابه ﷺ هم الكفار. فمن سلك هذا النوع من النصرة النبوية فثوابه أن يكرمه الله تعالى ويعطيه مناه ويجعله مع زمرة الصحابة ليفوز بثناء الله تعالى وفضله ورضوانه ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾، وينال العلو والعزة في الدنيا والآخرة ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾، وإخزاء أعدائه ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾.

المحور السابع: الخاتمة

عود على بدء، فقد عاد آخرها على أولها. إذ بنصرة النبي ﷺ تقوم دعوته والتي من لوازمها مصاحبته وملازمته ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾، والشدة على مبغضيه وأعدائه، ومحبة متبعيه ومناصريه ونصرتهم والتلاحم معهم، والتراحم فيما بينهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾، واتّباعه بصدق السريرة ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾، وتطابقها مع الظاهر ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ فهذا مثل أتباع النبي ﷺ ومناصريه المضروب لليهود في التوراة ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ﴾.

أما المثل الثاني للنبي ﷺ وأتباعه المضروب للنصارى في الإنجيل فهو مؤازرته ونصرته إلى أن يظهر الله تعالى دين نبيه ﷺ ويغيظ أعدائه ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾.

وهذان المثلان مناسبان لمستهل السورة من جهة أخرى في نصرة النبي ﷺ. وذلك بالبشارة بتحقق النصر للنبي ﷺ المذكور في آخرها ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ وقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ الموافق للبشارة المذكورة في أول السورة بالفتح المبين للنبي ﷺ ودعوته وأتباعه وظهور رسالته ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾.

ومناسبة ثالثة وهو إغاظة أعدائه وتعذيبهم ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ﴾ موافق لآخرها ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾.

ومما تعانقت به خاتمتها بمستهلها الثناء على مناصريه ﴿ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ الآية، وهو مناسب لأول السورة من الثناء عليهم وإكرامهم ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ الآيات.

ومنها ما ختمت به من وعد المؤمنين المناصرين له بالمغفرة والأجر العظيم ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ المناسب لأول السورة ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾.

فعاد آخرها على أولها فتكاملت السورة عقداً محكماً، فلله الحمد والمنة أولاً وآخراً، والله أعلم.

سورة الحجرات

مقصد السورة

دعوة للتأدب بالآداب والأخلاق اللسانية وتجنب آفاته.

الأدلة على مقصدها

١- استهلالها

استهلت السورة بالنهي عن بعض آفات اللسان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾، ﴿ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ ﴾. ثم أعقبها الثناء على من عف لسانه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

٢- المناسبة بين أولها وآخرها

كما استهلت باجتناب بعض آفات اللسان فقد انتهت ببعضها، كالتباهي بأفواههم مدعين أمراً ليس فيهم ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا ﴾، وكذا المنُّ بألسنتهم ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ ﴾.

٣- تعدد الألفاظ ذات المعاني المتقاربة

تكررت في السورة كلمات وجمل تشترك معانيها في اجتناب آفات اللسان. منها **التقدم بالقول بين يدي النبي ﷺ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾، ورفع الصوت ﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾، ﴿ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ ﴾، ونداء النبي ﷺ وهو في أهله ﴿ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾**. ومنها **السخرية واللمز والتنابز بالألقاب ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾، ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ** وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾. ومنها تناقل الأخبار غير الموثوق بها ﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ ﴾،

والغيبة ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾، والمن ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ ﴾، والادعاء بما ليس فيه ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ﴾.

٤- المتضادات

كما تضمنت السورة النهي عن آفات اللسان ﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ وَلَا تَجْهَرُواْ ﴾، فإنها قد تضمنت كذلك الحث على ضدها ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ ﴾، ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ والإصلاح يكون باللسان وهو ضد النميمة ونقل الأخبار السيئة.

٥- ما يميز هذه السورة

وردت في السورة بعض الألفاظ المميزة الدالة على مقصدها، من ذلك:

أ- وردت كلمة النفس ويقصد بها الأخ ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾. ففيها دعوة للتعامل مع الأخ بمثابة النفس، ليحسن التعامل والتخلق معه، فيتجنب مساوئ الأخلاق وآفات اللسان.

ب- استعمال لفظ ﴿ الإخوة ﴾ بدلاً من الإخوان. لفظ الإخوان يدل على كمال الأخوة على أتم وجه، فلا غل في القلب ولا وحر في الصدر. أما لفظ ﴿ الإخوة ﴾ فإنه يستعمل عند التعامل معه تعامل الأخ، ولكن قد يبقى في الصدر شيء. وذلك أن لفظ ﴿ الإخوة ﴾ ورد في التعامل مع أخيه المسلم بعد الإقتتال بينهما، وفي هذه الحالة يصعب على المسلم أن يبقى صدره سالماً سلامة تامة تجاه أخيه المقاتل له، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها. ولكن الله تعالى أمره بأن يتعامل معه في الظاهر معاملة الأخ وإن بقى شيء في الصدر، فيحسن التعامل الظاهري معه بأن يجتنب قتاله ويجنبه آفات لسانه، فيسلم أخوه من يده ولسانه، وهو موافق لمقصد السورة.

٦- اسمها

اسم السورة الحجرات، والحجرات جمع حجرة. وأصلها من الحَجْر وهو المنع والكف. وهذا المعنى مناسب لمقصد السورة، فهو منع اللسان وكفه عن آفاته.

٧- علاقتها بالسورة السابقة لها

عند توقيع النبي ﷺ المعاهدة مع قريش ظهر من بعض الصحابة رضي الله عنهم في الحديبية بعض الألفاظ الدالة على شدة حبهم لله تعالى ولرسوله ﷺ، ولكنها لا تليق بمقامهم، ولا ينبغي أن تصدر منهم لأن فيها مخالفة للنبي ﷺ، فنزلت سورة الفتح. فناسب أن تأتي السورة التي بعدها بما فيه التأديب الإلهي في طرق التعامل بالألفاظ مع النبي ﷺ خاصة وكذا العلماء والوجهاء، ومع المسلمين عامة.

٨- المعنى العام

المعنى العام للسورة واضح، فالآيات من أولها إلى آخرها تتضمن النهي عن آفات اللسان، والتحذير منها، وعواقبها، والبدائل.

محاور سورة الحجرات

المحور الأول: براعة الاستهلال بالتأدب مع النبي ﷺ غاية الأدب، والحذر من الآفات اللسانية معه.

المحور الثاني: خصوصية الكبار في آداب اللسان وعاقبتها.

المحور الثالث: الوشاية وأثرها في هلاك الأمة.

المحور الرابع: آفات اللسان العامة بين أفراد الأمة وعوامها.

المحور الخامس: آفات اللسان المتعلقة بفساد النفس.

المحور السادس: الخاتمة.

محاورها

المحور الأول: براعة الاستهلال

لمَّا وقع من الصحابة في صلح الحديبية بعض الآفات اللسانية التي لا ينبغي أن تصدر منهم لا سيما في تعاملهم مع النبي ﷺ جمع الله تعالى لهم مجموعة من الآداب ليتخلقوا بها مع رسول الله ﷺ. من تلك الآفات: الاعتراض على النبي ﷺ بضد ما عاهد عليه قريشاً في الحديبية، وكذا ما صاحب ذلك من آفات لسانية أخرى كقول أحد سادة الصحابة رضي الله عنه للنبي ﷺ حمية للدين ومحبة لله ولرسوله ﷺ: «لماذا نرضى بالدنية من ديننا؟ ألست برسول الله؟ ألسنا بالمسلمين؟ ألم تقل لنا أننا نعتمر؟». وقول بعضهم الآخر لما أمره النبي ﷺ بمحو «رسول الله» من كتاب الصلح قال الصحابي رضي الله عنه: «والله لا أمحوها»[1]. بالرغم من كون هذه الألفاظ التي صدرت منهم لم تصدر إلا محبة لله ولرسوله ﷺ. لذا استهلت السورة بمفاجأة الصحابة بعدم الاقتراح عليه ﷺ ﴿ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ فكانت صدمة، فكيف بما هو أعظم من الاقتراح عليه ﷺ ؟

رواه البخاري (٢٧٣١، ٢٦٩٨)

المحور الثاني: خصوصية الكبار في آداب اللسان وعاقبتها

أولى الناس بالتأدب معهم هم الكبار، أي كبار القوم. فأول الآفات التي يجب اجتنابها هو إبـداء الرأي لهم قبل طلبهم ذلك، لا سيما النبي ﷺ ﴿ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾. فلا تفتاتوا ولا تسرعوا في الأشياء قبله ﷺ كالقول: «لو أنزل في كذا كذا»، «لو صنع كذا». فلا تتقدموا بين يديه ﷺ بالآراء. وكقول بعض سادة الصحابة: «لو أمَّرت فلاناً» كما حدث لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. إذ قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ، فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أمِّر القعقاع بن معبد. وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بل أمِّر الأقرع بن حابس. فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما أردت إلا خلافي. فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما أردت خلافك. فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزلت في ذلك ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾.[١]

ومن تلك الآفات رفع الصوت فوق صوته، كما حدث لثابت بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ﴾. إذ افتقد النبي ﷺ ثابت بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال رجل: يا رسول الله! أنا أعلم لك علمه. فأتاه فوجده في بيته منكِّساً رأسه. فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ، فقد حبط عمله، فهو من أهل النار. فأتى الرجل فأخبر النبي ﷺ. فقال ﷺ: «اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة».[٢]

ومنها التحدث عند الكبار بصوت جهوري مما ينافي هيبة العظماء وتوقير الكبار لا سيما النبي ﷺ ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾. لذا ينبغي غض الصوت عندهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

١- رواه البخاري (٤٣٦٧).

٢- رواه البخاري (٤٨٤٦).

﴿ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾. قال ابن الزبير رضي الله عنهما: «فكان عمر رضي الله عنه بعدُ إذا حدث النبي ﷺ بحديث حدثه كأخي السرار، لم يسمعه حتى يستفهمه رسول الله ﷺ». (١)

ومنها مناداة الكبار من وراء البيوت والدور. فهذا مما ينافي المروءات ونداء العقل فضلاً عن التوقير ومراعاة خصوصيات المرء وانشغاله بأهله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾. كما حدث لرجل أنه نادى رسول الله ﷺ من وراء الحجرات فقال: يا محمد. إن حمدي لزين وإن ذمي لشين. فقال ﷺ: ذاك الله عز وجل. (٢)

١- رواه البخاري (٧٣٠٢)

٢- رواه أحمد (٣/٤٨٨) وابن جرير (٢٦/٧٧) عن الأقرع بن حابس بسند صحيح، ورواه ابن جرير عن البراء وعن الحسن البصري وقتادة مرسلاً.

المحور الثالث: الوشاية وأثرها في هلاك الأمة

من الآفات التي يجب أن تجتنب الوشاية وتناقلها، لما فيها من نشر الفساد في المجتمع، وغالباً ما تنتهي بتفرق الأمة وتقطيعها، وربما سفك دمائها. فإذا ما أتت وشاية وجب أولاً التأكد من عدالة ناقليها، فإن كانت من فاسق وجب التأكد من صحتها لئلا تؤذوا أقواماً بريئين منها سواء المسلمين وغيرهم. كما حدث في الحديبية عندما انتشر خبر مقتل عثمان رضي الله عنه على يد قريش ثار الدم في وجوه المسلمين، فتوجهت المطالبات نحو قتال قريش، فقال الله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾.

فالوشاية تثير نفوس العوام والجمهور، مما يؤدي إلى إحداث ضغط على ذوي الرأي وأهل الحل والعقد، مما قد يؤدي بدوره إلى إلزامهم بآراء وقرارات غير مرضية لهم. فقد تؤدي طاعة أهل الحل والعقد للجمهور إلى مفاسد كبرى، مما فيه عنت على الأمة، وتؤثر على مصالحها ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾.

وإذا لم يستجب ذوو الرأي لضغط الجمهور حينئذ قد ينتهي الأمر بالجمهور إلى العصيان العام أو عدم الاستجابة للأوامر. وقد كاد أن يظهر ذلك في الحديبية في أخف صوره لما صالح النبي ﷺ قريشاً على أن يرجع هذا العام ولا يعتمر وإنما يعتمر العام القادم، فوقع في نفوس الصحابة ما الله به عليم. فلما أمرهم النبي ﷺ بالحلق والنحر والتحلل من العمرة لم يستجيبوا إلا بعد فعله ﷺ مما أثار حفيظة النبي ﷺ وغضبه، وإن كان الذي صدر منهم لشدة حبهم لله تعالى ولرسوله ﷺ، وشوقاً إلى بيت الله، وبغضاً للكفار. إذ دخل النبي ﷺ على أم سلمة فذكر لها ما لقي من الناس فقالت له: «يا نبي الله! اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك وتدعو حالقك فيحلقك»[١].

وقد يؤدي إلى العصيان الجزئي، وقد كاد أن يحدث ذلك في الحديبية لما قال ﷺ لكاتبه:

١- رواه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

امح رسول الله، امح الرحمن الرحيم. فلم يمحها الصحابي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ حباً لله ولرسوله ﷺ. وقد يؤدي إلى ما هو أعظم وهو رد أمر النبي ﷺ، قال سهل بن حنيف: اتهموا رأيكم على دينكم، رأيتني يوم أبي جندل لو أستطيع أن أرد على رسول الله ﷺ أمره لرددت.[1]. وقد يؤدي إلى الفسق، كما كاد بعض الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يكون له دور في نقض عهد الكفار في الحديبية حمية لله ولرسوله ﷺ. لكن الله تعالى حفظهم من جميع ما سبق.

فالخلاصة أن الاستجابة للوشاية عاقبتها وخيمة، فقد تؤدي إلى ضغط الجمهور على ذوي الرأي. فإن استجيب لهم فقد يؤدي ذلك إلى إلحاق العنت بالأمة. وإن لم يستجب لهم فقد يؤدي إلى العصيان العام أو العصيان الجزئي أو الفسق أو الردة والكفر إلا من عصمه الله تعالى ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾.

وكذا الاستجابة للوشاية قد تؤدي إلى القتال وسفك الدماء. فالنميمة ونقل الأخبار الباطلة ربما جرّت فتناً عظيمة تنتهي بالقتال ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾. فإذا ما حدث مثل ذلك وجب حينئذ المسارعة إلى الإصلاح بين الفئتين، وتجنب المشاركة في القتال مع أي طرف منهما، وتجنب إعانة أي منهما ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾. أما إذا ظهر بغي إحداها وجب حينئذ قتال الفئة الباغية ﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ﴾.

ولكن ليعلم أنه لو حدث مثل هذا الاقتتال فإنهم وإن تصالحوا فإن القلوب لا ترجع سليمة تماماً من الغلّ بينهما كما كانت في السابق، لذا قال سبحانه بعد الصلح: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾، لم يقل الله سبحانه «إخوان»، لما في لفظ «الإخوان» من تمام المودة والمحبة والصحبة. إذ زيادة الألف والنون في «إخوان» تدل على كمال الشيء وتمامه

١- رواه البخاري (٣١٨١، ٣١٨٩، ٤١٨٩، ٧٣٠٨)

بما يليق بمقامه. ولكن الله سبحانه قال: ﴿ إِخْوَةٌ ﴾، إذ قد يبقى في القلب شيء، وقد يحصل بينهم شيء من اللمز والتنابز والسخرية والظن والغيبة بعد القتال بالرغم من الصلح. لذا وردت بعدها الآيات التي تنهى عن هذه الآفات اللسانية، أما الأمور القلبية القاهرة من بقايا الغل ووحر الصدر بسبب القتال فلا سلطان للعبد عليها، ولكن عليه أن يدفع منها ما يستطيع.

المحور الرابع: آفات اللسان العامة بين أفراد الأمة وعوامها

من الآفات التي يجب اجتنابها بين أفراد الأمة السخرية واللمز والتنابز بالألقاب. أما السخرية فهي احتقار الآخرين وازدراؤهم بالألفاظ، وأما اللمز فهو أن يواجه الآخرين بما يعيبهم ولكن بكلام خفي، وأما التنابز بالألقاب فهو التداعي بلقب يسوء الآخر ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾، فجميع ما سبق يعتبر فسقاً ﴿ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ ﴾. بينما يجب أن تتعامل مع أخيك كما تتعامل مع نفسك ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ فجعل الأخ بمثابة النفس، فلا تفسد لسانك عند التعامل معه.

ومن متعلقات تلك الآفات إساءة الظن بالأخ، فيظن أن أخاه يسخر منه أو يلمزه أو ينبزه بلقب بينما أخوه بريء من كل ذلك ﴿ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾. ومن آثار الظن التجسس للتأكد من صحة ذلك الظن. والتجسس هو الإمعان في البحث عن الخفايا وبواطن الأمور، إما باليد أو بوسائل الحس من عين وأذن، مما يؤدي إلى الاطلاع على العورات، وفي الأثر: «إذا ظننت فلا تحقق».

ومن آفات اللسان بين العامة الغيبة الماحقة للحسنات لا سيما بعد الحروب والعداوات، وبعد التجسس ومعرفة العورات. وحقيقتها أكل لحوم الناس وأعراضهم ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾. قال رسول الله ﷺ: «لما عُرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم». [1]

وجميع الآفات السابقة آخذ بعضها برقاب بعض. فالوشاية تؤدي إلى العداوة والقتال،

١- رواه أحمد وأبو داود وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٣٠).

والذي ينتهي بوجود الإحن والغل في القلوب وإن تصالحوا، ومن ثم يؤدي إلى السخرية منهم وعيبهم ولمزهم والتداعي بألقاب سيئة، ومن ثم إساءة الظن بكل قول يصدر من الطرف الآخر بأنه يقصد السخرية مني، أو يقصد لمزي أو ينبزني باللقب، ومن ثَمَّ التجسس لمعرفة أقواله في بين خاصته، أو التجسس لمعرفة عيوبه للتندر بها والرد عليه مما يؤدي إلى غيبته وهكذا.

لو تمادت النفس مع الظن فاحذر من أن تصل إلى مرحلة التجسس، وإن تمادت إلى التجسس فاحذر من نشر المعايب واغتياب الإخوة، وإنما عليك الستر عليهم، فإن «الله حييٌّ ستير يحب الحياء والستر».[1]

وليعلم المرء أن جميع الصفات الخَلْقية المختلفة وما تضمنت من عيوب - والتي هي مادة السخرية واللمز والتنابز والغيبة - موجودة في طينة آدم ﷺ والتي تسمى بمادة الوراثة. فكلنا خلقنا من ذلك الطين، فإذا سخرنا فقد سخرنا ولمزنا وتنابزنا بأنفسنا. بينما من نظر إليها بعين الحكمة وجد أن هذه الصفات الخَلْقية المختلفة وما تضمنت من عيوب لها حكم شتى، منها أن الله تعالى أراد أن نتمايز بها، فتتمايز القبائل، وتتمايز الأفخاذ، وتتمايز الأسر بصورها وأشكالها، ويتمايز الأفراد ليعرف الناس بعضهم بعضاً. إذ لو تماثلوا في اللون والعين والأنف والطول وغيرها لما عرف بعضهم بعضاً ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾.

فهذه الصفات وجودتها ليست ميزاناً للكرامة والشرف، وإنما ميزان الكرامة والشرف تقوى الله تعالى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾. فالعيب الحقيقي هو البعد عن هذا الأصل وهذا الهدف. فإذا ما جعلناه أصلاً نسير عليه وبه نهتدي فحينئذ نتلافى تلك الآفات اللسانية الماحقة ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾. لذا قال النبي ﷺ لمعاذ

١- رواه أبو داود (٤٠١٢) وصححه الألباني.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟» ثم قال له: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ فأخذ بلسانه وقال: كف عليك هذا. فقال: يا نبي الله! وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال ﷺ: ثكلتك أمك يا معاذ. وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟!»[1]

١- رواه الترمذي (٢٦١٦) وصححه الألباني.

المحور الخامس: آفات اللسان المتعلقة بفساد النفس

من الآفات اللسانية التي تنم عن فساد النفس تشبّع المرء بما لم يعط، كالادعاء بما ليس فيه للتباهي والتفاخر، لا سيما في علاقته مع الله تعالى. من ذلك ادعاء بلوغ منزلة لم يبلغها، كمن ادعى الإيمان الكامل ممن لم يبلغ ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾.

فالإيمان ليس ادعاء بالقول، وإنما ما وقر في القلب وصدقته الجوارح ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾. ثم الإصرار بلسانه على هذا الادعاء المزيف بمثابة تعليم الله تعالى بما لم يعلمه –عياذاً بالله ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

ومما يقاربه آفة المنّ على الله تعالى ورسوله ﷺ ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾، والمن يكون بالألفاظ فهو من آفات اللسان.

المحور السادس: الخاتمة

تعانقت آخر السورة مع أولها، حيث انتهت بالتحذير من آفات اللسان، لا سيما المتعلقة بذي الجلال والإكرام كالمنّ والادعاء المزيف عليه ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ ﴾ ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾، والتحذير من الآفات التي تنافي توقير العظماء من البشر، وسيدهم رسول الله ﷺ ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ﴾، وبوجوب توقير النبي ﷺ في الخطاب وطاعته ﴿ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾. وكذا انتهت بالأمر بتقوى الله تعالى فهو مِلاك ذلك كله ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾.

اعلموا أن جميع ما يصدر منكم من التأدب بالآداب الإلهية في اللسان والتخلق بها، أو التقذر بالآفات اللسانية سراً وعلانية جميع ذلك يحدث بمرأى من الله تعالى وعلمه وسمعه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾. وجميع ذلك ورد في أول السورة مجموعاً ﴿ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

فمقصدها التوجيه للتأدب بالآداب والأخلاق اللسانية في التعامل مع الله تعالى ثم مع النبي ﷺ ثم مع العظماء من المؤمنين ثم مع سائر المسلمين لتتآلف قلوبهم.

ولله الحمد والمنة أولاً وآخراً والله أعلم.

المراجع

١- الإتقان، جلال الدين السيوطي.

٢- أحكام الجنائز، محمد ناصر الدين الألباني.

٣- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي.

٤- الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل البخاري.

٥- أسئلة القرآن المجيد، محمد بن أبي بكر الرازي.

٦- الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ، د.محمد الأمين الخضري.

٧- الإعجاز البياني للقرآن، د. عائشة عبدالرحمن بنت الشاطىء.

٨- إعجاز القرآن، مصطفى صادق الرافعي.

٩- بدائع التفسير، ابن قيم الجوزية.

١٠- البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل ابن كثير.

١١- البرهان في تناسب سور القرآن، أحمد بن الزبير الغرناطي.

١٢- البرهان في توجيه متشابه القرآن، محمود بن حمزة الكرماني.

١٣- البرهان في علوم القرآن، بدرالدين الزركشي.

١٤- بلاغة القرآن، لأحمد بدوي .

١٥- تخريج الإحياء، الحافظ العراقي.

١٦- الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، محمد نورالدين المنجد.

١٧- تفسير البيضاوى، عبدالله بن عمر.

١٨- تفسير الجلالين، جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي.

١٩- تفسير الرازي.

٢٠- تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير.
٢١- تفسير القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري.
٢٢- تفسير المراغي.
٢٣- التفسير والمفسرون، د. محمد المغراوي.
٢٤- جامع البيان في تفسير القرآن، ابن جرير الطبري.
٢٥- حاشية الجمل على تفسير الجلالين، الفتوحات الإلهية، سليمان بن عمر العجيلي.
٢٦- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى، شهاب الدين الخفاجى.
٢٧- درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية.
٢٨- درة التنزيل وغرة التأويل، الخطيب الاسكافي.
٢٩- دلائل النبوة، أبو بكر البيهقي.
٣٠- السلسلة الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني.
٣١- شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي.
٣٢- صحيح البخاري.
٣٣- صفة صلاة النبي ﷺ، محمد ناصر الدين الألباني.
٣٤- صحيح مسلم.
٣٥- علم المناسبات في السور والآيات، د.محمد بن عمر بازمول.
٣٦- غاية المرام، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني.
٣٧- فتح الرحمن بكشف مايلتبس في القرآن، أبو يحي زكريا الأنصاري.
٣٨- الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، د.محمد بن عبد الرحمن الشايع.
٣٩- فضائل القرآن، لأبي عبيد القاسم بن سلام.

٤٠- في ظلال القرآن، سيد قطب.

٤١- الكشاف، جار الله الزمخشري.

٤٢- مباحث في التفسير الموضوعي، د. مصطفى مسلم.

٤٣- مجموع الفتاوى، شيخ الإسلام ابن تيمية.

٤٤- مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية.

٤٥- مسند الإمام أحمد.

٤٦- ملاك التأويل، أحمد بن الزبير الغرناطي.

٤٧- من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، د. محمد الأمين الخضري.

٤٨- مناهل العرفان، محمد عبدالعظيم الزرقاني.

٤٩- النبأ العظيم، د. محمد عبدالله دراز.

٥٠- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي.

٥١- الوجيز، لابن عطية.

الفهرس

المقدمة ٥

أهمية معرفة مناسبة الآيات ١٢

النبي ﷺ وتناسب الآيات ١٣

التخلص ١٤

التكرار ١٥

سبب تكرار ذكر التوحيد والتحذير من الشرك وتأكيد البعث ١٥

التفسير الإشاري ١٦

خطة الكتاب ١٩

سورة الصافات ٢١

مقصد السورة ٢١

الأدلة على مقصدها ٢١

١- المناسبة بين أولها وآخرها ٢١

٢- تكرار بعض العبارات ٢١

٣- مما يميزها ٢٢

٤- اسمها ٢٤

٥- آخر السورة السابقة لها ٢٤

محاور سورة الصافات ٢٥

المحور الأول: استهلالها بمكانة أولياء الله تعالى ٢٧

المحور الثاني: سبب سفالة وحقارة أعدائه ٢٩

المحور الثالث: الذل والصغار لأعدائه في أرض المحشر يوم القيامة ٣٠
المحور الرابع: كرامة العباد المخلصين في المحشر وعلو درجتهم في الجنة ٣٢
المحور الخامس: كمال الإهانة والذل لأعدائه في نار جهنم ٣٣
المحور السادس: حسن العاقبة في الدنيا والنصر لأولياء الله تعالى وسوء العاقبة لأعدائه ٣٤
المحور السابع: سفالة عقول الكفار واعتقاداتهم ٣٦
المحور الثامن: كمال عقول أولياء الله تعالى ٣٨
المحور التاسع: الخاتمة ٣٩
سورة ص ٤١
مقصد السورة ٤١
الأدلة على مقصدها ٤١
١- المناسبة بين أولها وآخرها ٤١
٢- تكرار كلمة الصبر ٤١
٣- تكرار لفظي (العبد) و (إنه تواب) ٤٢
٤- تميزها ٤٢
٥- اسم السورة ٤٥
٦- الآيات الأخيرة من السورة السابقة لها ٤٥
محاور سورة ص ٤٧
المحور الأول: استهلالها ٤٩
المحور الثاني: تواصي الكفار بالصبر على كفرهم ٥١

المحور الثالث: الصبر على أذى الكفار ٥٣
المحور الرابع: الصبر على التراجع عن الخطأ وعاقبته ٥٥
المحور الخامس: الصبر على بذل المحاب لأجل الله ٥٧
المحور السادس: إطالة مدة الصبر ٥٩
المحور السابع: نخبة من الصابرين ٦٠
المحور الثامن: العاقبة الأخروية للصبر ٦١
المحور التاسع: أمر عظيم يستحق الصبر ٦٣
المحور العاشر: صبر السيادة ٦٥
المحور الحادي عشر: الصبر عن التكلف ٦٧
المحور الثاني عشر: صبر الله تعالى ٦٨
المحور الثالث عشر: الخاتمة ٦٩
سورة الزمر ٧١
مقصد السورة ٧١
الأدلة على مقصدها ٧١
١- المناسبة بين استهلالها وخاتمتها ٧١
٢- تكرار كلمة العبادة وتصاريفها ٧١
٣- تكرار لفظ الإخلاص والصدق ومرادفهما في العبادة ٧٢
٤- التحذير من عدم الإخلاص في العبادة ٧٢
٥- ما تميزت به السورة ٧٣
٦- الآيات الأخيرة في السورة التي قبلها ٧٤

محاورها ٧٧
المحور الأول: براعة الاستهلال في إخلاص المحبة لله تعالى ٧٩
المحور الثاني: الله تعالى يحكم ولا يحكم عليه ٨٠
المحور الثالث: الله الواحد لا ولد له ولا شريك ٨٢
المحور الرابع: لوازم المحبة الخالصة، صورها وعلاماتها ٨٤
المحور الخامس: خوارم المحبة الخالصة ٩٢
المحور السادس: عقوبة عدم الإخلاص في المحبة ٩٦
المحور السابع: ثواب المحبة الخالصة ٩٩
المحور الثامن: الخاتمة ١٠١
سورة غافر ١٠٣
مقصد السورة ١٠٣
الأدلة على مقصدها ١٠٣
١- المناسبة بين مستهلها وخاتمتها ١٠٣
٢- كلمات مكررة ١٠٣
٣- تميزها ١٠٤
٤- اسمها ١٠٥
٥- أواخر السورة السابقة لها ١٠٦
٦- تعدد صور الجدال ١٠٦
محاور سورة غافر ١٠٧
المحور الأول: براعة الاستهلال بأن الحجة البالغة لله تعالى ١٠٩

المحور الثاني: تبعات الجدال بالباطل ١١٠
المحور الثالث: أسلوب المؤمن في الجدال ١١٣
المحور الرابع: كيف يمكن تجنب الجدال بالباطل ومفاسده ١١٨
المحور الخامس: الخاتمة ١٢٢
سورة فصلت ١٢٣
مقصد السورة ١٢٣
الأدلة على مقصدها ١٢٣
١- المناسبة بين أولها وآخرها ١٢٣
٢- تكرار ذكر علم الله تعالى ومرادفاته ١٢٤
٣- تميزها ١٢٤
٤- اسمها ١٢٤
٥- آخر السورة السابقة لها ١٢٤
٦- المعنى العام ١٢٥
محاور سورة فصلت ١٢٧
المحور الأول: براعة الاستهلال في تضمن القرآن لأصول العلم الجامعة للسعادة البشرية ١٢٩
المحور الثاني: تضمن القرآن جميع الأصول الجامعة للإشباع النفسي ١٣١
المحور الثالث: فيه تفصيل العذاب البدني والنفسي لمن أعرض عنه ١٣٦
المحور الرابع: القرآن هدى وشفاء ورحمة لأكبر المشكلات، وأعظم الملِمّات، والمسائل الكبار التي تحار فيها عقول الأذكياء ١٤٠

المحور الخامس: علم الله تعالى بأدق أحوال النفس البشرية وتقلباتها فهو أعلم بطرق علاجها ١٥٦
المحور السادس: الخاتمة ١٥٨
سورة الشورى ١٥٩
مقصد السورة ١٥٩
الأدلة على مقصدها ١٥٩
١- المناسبة بين أولها وآخرها ١٥٩
٢- الكلمات المكررة ١٦٠
٣- الكلمات المرادفة للوحي ١٦٠
٤- تميزها ١٦١
٥- اسم السورة ١٦١
٦- آخر السورة السابقة لها ١٦٢
محاور سورة الشورى ١٦٣
المحور الأول: براعة الاستهلال في بيان عظمة الموحي المشرع هو الله تعالى ١٦٥
المحور الثاني: مميزات شريعة الوحي ١٦٧
المحور الثالث: المقومات لتفعيل العمل بها ١٧٢
المحور الرابع: شبهة والجواب عنها ١٧٥
المحور الخامس: الوصايا الجامعة لبناء قادة شريعة الوحي ١٧٨
المحور السادس: خسران من أعرض عن شريعة الوحي ١٨١
المحور السابع: الخاتمة ١٨٤

سورة الزخرف ١٨٧
مقصد السورة ١٨٧
الأدلة على مقصدها ١٨٧
١- المناسبة بين أولها وآخرها ١٨٧
٢- تميزها ١٨٧
٣- اسمها ١٨٨
٤- آخر الآيات في السورة السابقة لها ١٨٨
محاور سورة الزخرف ١٨٩
المحور الأول: براعة الاستهلال في التحذير من أسباب الضلال وطرقه ١٩١
المحور الثاني: من أسباب الضلال معارضة الفطرة وما استقل في القلوب ١٩٢
المحور الثالث: من أسباب الضلال نكران الجميل وكفرانه ١٩٣
المحور الرابع: من أسباب الضلال عدم اتزان العقول ١٩٤
المحور الخامس: الاعتماد على الظنون والأوهام والشكوك في الاعتقاد ١٩٥
المحور السادس: التقليد الأعمى ١٩٧
المحور السابع: الحسد ١٩٨
المحور الثامن: الكبر و المفاخرة ١٩٩
المحور التاسع: قرناء السوء ٢٠٠
المحور العاشر: الاستهزاء والسخرية ٢٠١
المحور الحادي عشر: الحرص على الملك والجاه والمتاع الزائل ٢٠٢
المحور الثاني عشر: حب الجدل والمخاصمة ٢٠٣

المحور الثالث عشر: الخلاف المذموم ٢٠٩
المحور الرابع عشر: ثواب من اجتنب أسباب الضلال ٢١٠
المحور الخامس عشر: تهاوي أسباب الضلال وأثرها العكسي ٢١١
المحور السادس عشر: الخاتمة ٢١٤
سورة الدخان ٢١٧
مقصد السورة ٢١٧
الأدلة على مقصدها ٢١٧
١- المناسبة بين أولها وآخرها ٢١٧
٢- تكرار ذكر العقوبات وتنوعها ٢١٧
٣- ما تميزت به ٢١٨
٤- اسم السورة ٢١٩
٥- آخر السورة السابقة لها ٢١٩
محاور سورة الدخان ٢٢١
المحور الأول: براعة الاستهلال في التحذير من الانتقام الإلهي ٢٢٣
المحور الثاني: تحديد الانتقام الإلهي بدقة متناهية ٢٢٤
المحور الثالث: سبب الانتقام الإلهي ٢٢٥
المحور الرابع: المراحل التي تسبق الانتقام الإلهي في الدنيا ٢٢٦
المحور الخامس: لا يمتنع شيء من هذا العالم المشاهد من الانتقام الإلهي ٢٢٧
المحور السادس: شدة الانتقام الإلهي في الدنيا متفاوتة ٢٢٨
المحور السابع: المصالح المترتبة على الانتقام الإلهي في الدنيا ٢٣٠

المحور الثامن: الانتقام الإلهي الأعظم ٢٣١
المحور التاسع: الرحمة الإلهية العظمى ٢٣٣
المحور العاشر: الخاتمة ٢٣٥
سورة الجاثية ٢٣٧
مقصد السورة ٢٣٧
الأدلة على مقصدها ٢٣٧
١- استهلالها ٢٣٧
٢- المناسبة بين مستهلها وخاتمتها ٢٣٧
٣- تكرار كلمة الآيات وما يقاربها في المعنى ٢٣٨
٤- المقابلة بالضد ٢٣٨
٥- ما تميزت به السورة ٢٣٨
٦- اسمها ٢٣٩
٧- نهاية السورة السابقة لها ٢٣٩
محاور سورة الجاثية ٢٤١
المحور الأول: براعة الاستهلال في تثبيت الطرق المنصوبة الموصلة إلى توحيد الله تعالى ٢٤٣
المحور الثاني: نصب الدلائل السمعية والبصرية والكونية لتقرير التوحيد ٢٤٤
المحور الثالث: إسباغ النعم وتسخير الآيات الكونية لبني آدم ٢٤٥
المحور الرابع: أيام الله ٢٤٦
المحور الخامس: إرسال الأنبياء وإنزال الكتب ومجيء الشرائع والمعجزات ٢٤٧

المحور السادس: السعادة الروحية والقلبية للموحدين ٢٤٨
المحور السابع: وسائل الإدراك والفهم للمكلف ٢٤٩
المحور الثامن: الترغيب والترهيب ٢٥٠
المحور التاسع: الخاتمة ٢٥٢
سورة الأحقاف ٢٥٥
مقصد السورة ٢٥٥
الأدلة على مقصدها ٢٥٥
١- استهلالها ٢٥٥
٢- المناسبة بين أولها وآخرها ٢٥٥
٣- التقابل بين أولها وآخرها ٢٥٦
٤- تكرار بعض الألفاظ ٢٥٦
٥- ما تميزت به السورة ٢٥٧
٦- اسمها ٢٥٨
٧- آخر السورة السابقة لها ٢٥٩
٨- وضوح موضوعها ٢٥٩
محاور سورة الأحقاف ٢٦١
المحور الأول: براعة الاستهلال في وضوح دعوة التوحيد والعجب من إعراض الكفار بشتى أنواع الإعراض ٢٦٣
المحور الثاني: الإعراض عن الإتيان بدليل واحد على صحة شركهم ٢٦٤
المحور الثالث: الإعراض عن الرد على الحجج المعارضة لهم، الداحضة لشركهم ٢٦٥

المحور الرابع: الإعراض عن الأخذ بشهادة أصدق الشهود ٢٦٦
المحور الخامس: من خوارم المروءة الإعراض عن ذكر الجميل والاعتراف به لصاحبه وشكره. ٢٦٧
المحور السادس: عاقبة الإعراض ٢٦٨
المحور السابع: الإقبال على الله تعالى وثوابه ٢٦٩
المحور الثامن: الخاتمة ٢٧٠
سورة محمد ﷺ ٢٧٣
مقصد السورة ٢٧٣
الأدلة على مقصدها ٢٧٣
١- استهلالها ٢٧٣
٢- ارتباط أولها بآخرها ٢٧٣
٣- تكرار ذكر إحباط أعمال أهل الكفر بألفاظ عدة ٢٧٤
٤- المقابلة ٢٧٤
٥- اسمها ٢٧٤
٦- نهاية السورة السابقة لها ٢٧٥
٧- شمولها لمبطلات الأعمال ٢٧٥
٨- الفاصلة ٢٧٦
محاور سورة محمد ﷺ ٢٧٧
المحور الأول: براعة الاستهلال في بيان الذل والخذلان وصوره لمن كفر بالله تعالى ٢٧٩

المحور الثاني: إذلال الكفار على يد المؤمنين وإباحة قتلهم ٢٨١
المحور الثالث: الإهلاك الإلهي الحسي والمعنوي في الدنيا ٢٨٣
المحور الرابع: شدة العذاب في الآخرة ٢٨٦
المحور الخامس: قلوبهم مخذولة ٢٨٧
المحور السادس: الخذلان في الأصحاب ٢٩٠
المحور السابع: الخذلان والخزي على يد الملائكة ٢٩١
المحور الثامن: فضح أسرارهم وإظهار نفاقهم ٢٩٣
المحور التاسع: إحباط أعمالهم ٢٩٥
المحور العاشر: عدم التجاوز عن ذنوبهم ٢٩٦
المحور الحادي عشر: العزة للمؤمنين ٢٩٧
المحور الثاني عشر: البخل جامع لصور الذل والخذلان ٢٩٨
المحور الثالث عشر: الخاتمة ٣٠٠
سورة الفتح ٣٠١
مقصد السورة ٣٠١
الأدلة على مقصدها ٣٠١
١- المناسبة بين مستهلها وخاتمتها ٣٠١
٢- تكرار لفظ النصر ومرادفاته ٣٠١
٣- ذكر ما يضاد مناصرته ٣٠٢
٤- ما تميزت به السورة ٣٠٢
٥- اسمها ٣٠٢

٦- أواخر السورة التي قبلها ٣٠٣
محاور سورة الفتح ٣٠٥
المحور الأول: براعة الاستهلال بالبشارات الخاصة بنصرة الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ٣٠٧
المحور الثاني: ثواب من وقرك ونصرك وآزرك ٣٠٨
المحور الثالث: عقوبة من خذلك ٣٠٩
المحور الرابع: أمر الصحابة والمسلمين بتوقيره ﷺ ونصره ٣١٠
المحور الخامس: نواقض نصرته وتوقيره ٣١٢
المحور السادس: لوازم نصرته ٣١٤
المحور السابع: الخاتمة ٣١٨
سورة الحجرات ٣٢١
مقصد السورة ٣٢١
الأدلة على مقصدها ٣٢١
١- استهلالها ٣٢١
٢- المناسبة بين أولها وآخرها ٣٢١
٣- تعدد الألفاظ ذات المعاني المتقاربة ٣٢١
٤- المتضادات ٣٢٢
٥- ما يميز هذه السورة ٣٢٢
٦- اسمها ٣٢٣
٧- علاقتها بالسورة السابقة لها ٣٢٣

٨- المعنى العام ٣٢٣

محاور سورة الحجرات ٣٢٥

المحور الأول: براعة الاستهلال بالتأدب مع النبي ﷺ غاية الأدب، والحذر من الآفات اللسانية معه. ٣٢٧

المحور الثاني: خصوصية الكبار في آداب اللسان وعاقبتها. ٣٢٨

المحور الثالث: الوشاية وأثرها في هلاك الأمة. ٣٣٠

المحور الرابع: آفات اللسان العامة بين أفراد الأمة وعوامها. ٣٣٣

المحور الخامس: آفات اللسان المتعلقة بفساد النفس. ٣٣٦

المحور السادس: الخاتمة. ٣٣٧

المراجع ٣٣٩

الفهرس ٣٤٣